



169

تاريخ الكتاب

(القسم الأول)

تأليف: د. الكسندر ستيبتشفيتش

ترجمة: د. محمد م. الأرناؤوط

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت



سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت

صدرت السلسلة في يناير 1978 بإشراف أحمد مشاري العدواني 1923 ـ 1990

169

تاريخ الكتاب

القسم الأول

تأليف: د. الكسندر ستيبتشفيتش

ترجمة: د. محمد م. الأرناؤوط



المحتوى

مقدمه

تصدر الطبعة العربية لهذا الكتاب بعد عدة سنوات فقط من صدور الطبعة الأصلية في زغرب بيوغسلافيا(*) وبعد عدة طبعات في اللغات الأوربية مما يوضح الأهمية الخاصة لهذا الكتاب. وفي الواقع لقد اعتبر هذا الكتاب في حينه من أفضل الكتب التي صدرت في يوغسلافيا خلال عام 1985، إلا أنه سرعان ما انتزع الاعتراف بقيمته على المستوى الأوربي والعالمي. وهكذا ليس من المبالغة القول أن صدور الطبعة العربية يجسد طموح المؤلف نفسه في رد الاعتبار للعرب ولغيرهم من شعوب الشرق الذين كانوا لفترة طويلة من الزمن ضحية تجاهل أوربي متعمد. ففي أوربا، وحتى في يوغسلافيا سابقا، كانت قد صدرت حوالي عشرة كتب بعنوان واحد (تاريخ الكتاب أو ما شابه ذلك) إلا أنها كانت تهمل أو تتجاهل على نحو غريب دور الشرق إلى أن صدر أخيرا هذا الكتاب ليعطي الشرق حقه وليخصص فصلا كاملا عن العرب. وهكذا نجد أن بعض هذه الكتب، على الرغم من العنوان العام، يكاد يقتصر على دولة واحدة، كما

«لقد حاولت في هذا الكتاب أن أصحح الخلل وأن أعطي كل شعب المكانة التي يستحقها».

ا.ستيبتشفيتش

(*) لقد صدرت الطبعة الأصلية في اللغة الكرواتية:

1985 Aleksandar Stipcvi‘c, Povijest knjige, Zagreb

ثم صدرت لاحقا الطبعة الألبانية في يوغسلافيا في أواخر 1988

Aleksandar Stipceviq, Historia e librrit, Prishtin :

والطبعة الألمانية في ألمانيا الاتحادية:

1989 Aleksandar Stipcevi ‘c, Die Geschichte des Buchs, Wiesbaden

بينما يترجم الكتاب الآن إلى الإيطالية والإنكليزية.

هي الحال في: «كتب هزت العالم» د ك. شوتنلوهر K.Schottenloher بالنسبة إلى ألمانيا و«تاريخ الكتاب» لـ أ. ادفرسيا A.Adversia بالنسبة لإيطاليا. أما البعض الآخر، مثل «تاريخ الكتاب» للدانمركي سفند دال Svend Dahl، فيكاد يقتصر على القارة الأوربية وحتى على أوربا الغربية فقط. ففي هذا الكتاب لا نجد إلا القليل عن أوربا الشرقية ولا نجد عن العرب سوى صفحة واحدة. وعلى الرغم من هذا فقد بقي هذا الكتاب، الذي صدرت طبعته الأولى سنة 1927، يترجم ويطبع باستمرار خلال هذه السنوات الخمسين حتى كاد أن يصبح المرجع الأساسي في هذا الموضوع.

وفي الواقع لقد كان صدور هذا الكتاب المتحيز في يوغسلافيا (1979) أحد الأسباب التي عجلت بعمل البروفسور ستيبتشفيتش لإنجاز كتابه هذا[*1]. فقد كان البروفيسور ستيبتشفيتش قد بدأ منذ عام 1972 يحاضر على طلاب الدراسات العليا في جامعة زغرب في مادة «تاريخ الكتاب والمكتبات»، ولذلك فقد أخذ في تأليف كتاب جامعي يلبي حاجة الطلاب في الدرجة الأولى. ومن خلال عمله في جمع المواد، وتتبع كل ما صدر في هذا المجال، شعر البروفيسور ستيبتشفيتش بنوع من التحدي العلمي لكي يكتب كتابا جديدا وشاملا بالعنوان ذاته، أي «تاريخ الكتاب»، ليتلافى فيه النظرة المحلية أو الأحادية-الفوقية-الأوربية الغربية التي غلبت على الكتب التي صدرت حتى الآن. وهكذا بعد أن كان الشرق لا يحتل إلا صفحات متفرقة، على الرغم من دوره الرائد في اختراع الكتابة وأدوات الكتابة ومواد الكتابة وحروف الكتابة الثابتة والمتحركة الخ، في الكتب المشابهة أصبح الآن بحق يحتل المكانة التي يستحقها فعلا في هذا الكتاب الجديد.

وفي هذا الإطار الجديد لا بد أن نشيد باهتمام المؤلف لتخصيص فصل خاص عن العرب بعد أن كان العرب لا يذكرون إلا بشكل عابر في الكتب السابقة. ففي هذا الكتاب لا يكتفي المؤلف، كغيره من المؤلفين، بالإشادة بدور العرب في نقل صناعة الورق من أقصى الشرق إلى مركز

(*1) بمناسبة صدور كتابه انتقد البر فسور ستيبتشفيتش في لقاء مع مجلة «ناشا غنيغا» الخلل الكبير في كتاب سفند دال (تغيب أوربا الشرقية وشعوب الشرق عامة عن التاريخ الحضاري) وقال بهذه المناسبة: «لقد حاولت أن أصحح هذا الخلل وأن أعطي كل شعب المكانة التي يستحقها»:
Povijest drustvene funkcije Knjige, Nasa Knjiga 13-14 Zagreb1985,s.15-17.

العالم القديم، بل يهتم بتوضيح مساهمة العرب في ثقافة الكتاب بشكل عام، أي في قيمة الكتابة لدى العرب ومكانة الكتاب لديهم وإسهامهم في المؤلفات البيو-ببلوغرافية وتطور المكتبات لديهم. وإذا كان لا بد من ذكر مفارقة هنا فيكفي أن نذكر أن معظم هذا الكتاب قد ترجم في دمشق، التي كانت تعاني من أزمة ورق في عام 1987، بينما يكشف لنا المؤلف في هذا الفصل الخاص بالعرب أن أوربا بقيت فترة طويلة من الزمن تستورد أفخم أنواع الورق من دمشق، ذلك الورق الذي اشتهر حينئذ في كل أوربا باسم «الورق الدمشقي» Charta Damascena.

ولا شك أن الميزة الأخرى للكتاب، بالمقارنة مع الكتب الأخرى، تكمن في منهج المؤلف. ففي هذا الكتاب لا يركز المؤلف على الجانب التقني لتطور الكتاب بل على مغزى تطور الكتاب عبر التاريخ ليصبح الكتاب بهذا الشكل تاريخا للثقافة الإنسانية. وهكذا يبدأ المؤلف بالمحاولات الأولى للكتابة، وأقدم النصوص، والأشكال الأولى للكتاب، وأدوات الكتابة، ومواد الكتابة، ليصل إلى مصير الكتاب في كل مجتمع من المجتمعات الإنسانية المعروفة. وهكذا من خلال هذا المصير، المشرق أحيانا والمظلم أحيانا، نتعرف على أهم الأحداث التاريخية-الثقافية وعلى أهم التغيرات الفكرية التي تركت أثرا كبيرا في وسطها وفي محيطها الإقليمي والقاري. ومن خلال هذا كله يلح المؤلف دائما على تتبع مكانة الكتاب من وسط إلى آخر ومن مجتمع إلى آخر حتى أنه يكاد يحول هذا إلى مؤشر للحكم على أي مجتمع بمدى تخلفه أو تطوره الثقافي.

ولا بد لي هنا أن أشيد باهتمام المؤلف، الذي حرص على إرسال كل ترجمة جديدة للكتاب لكي تكون الترجمة العربية في أحسن مستوى، وأن أشكر هنا الدكتور غانم-الأستاذ في كلية الآداب بجامعة دمشق-الذي ساعد في ترجمة عناوين الكتب اللاتينية والإيطالية والألمانية الواردة في هذا الكتاب.

محمد م. الارناؤوط

دمشق 1987- اربد 1991

١ الحضارات القديمة في الشرق الأوسط

١ - السومريون

تبدأ قصة الكتاب في السهول الخصبة للجزء الجنوبي من بلاد الرافدين، حيث أقام هناك حضارة متقدمة أحد أغرب الشعوب في تاريخ الإنسانية- السومريون.

وفي الواقع أن مصير هذا الشعب فريد من نوعه لأسباب كثيرة. فحتى هذا اليوم، وعلى الرغم من الأبحاث الاركيولوجية الكثيفة ودراسة الجوانب المادية والروحية لحضارته، لم يتم التوصل إلى أصل هذا الشعب ولا إلى الجنس الذي ينتمي إليه. وهناك من يفترض أن السومريين في النصف الثاني للألف الخامسة قبل الميلاد (وحتى أقدم من هذا عند بعض الباحثين) هبطوا من الشمال، وربما من منطقة بحر قزوين، واستوطنوا الجزء الجنوبي للسهول الخصبة بين دجلة والفرات. وبعد عدة قرون من قدومهم كان هؤلاء قد أقاموا حضارة ممتازة، ومن هذه الحضارة تشربت كل الحضارات الكبرى التي تطورت في الشرق الأوسط. إلا أن السومريين سرعان ما اختفوا من ساحة التاريخ بعد أن فقدوا

استقلالهم السياسي في نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد. وفي هذه الساحة جاء بعدهم الأكاديون والبابليون والآشوريون وغيرهم، الذين أخذوا وطوروا ما كانت قد وصلت إليه حضارة السومريين، ولذلك فقد اقترنت لاحقا بهؤلاء الشعوب الإنجازات الحضارية في حقل المعرفة وتنظيم الدولة والأدب إلخ.. . وهكذا فقد ضاع في النسيان حتى اسم السومريين وبقي منسيا حتى القرن التاسع عشر، حين أخذت الحفريات الأثرية تكشف عن المدن السومرية، وعن أقنية الري، وعن الهياكل الضخمة وعن آلاف الرقم الطينية التي نقشت عليها الكتابة السومرية أو الكتابة التصويرية. وهكذا أصبحنا الآن نعرف الكثير عن السومريين، وعاد العلم للاعتراف لهم بالكثير من الإسهامات التي كانت تنسب على مر القرون للشعوب الأخرى. وعلى رأس هذه الإسهامات، التي تضمن مكانة الشرف لهذا الشعب في تاريخ الحضارة العالمية، تأتي الكتابة والكتاب والمكتبات.

وفيما يتعلق بالكتابة ما زلنا لا نعرف على وجه اليقين هل أن السومريين بالذات هم الذين قاموا أولا باستخدام الكتابة للتعبير عن الفكر، مع أن هذه الفرضية تعتبر الأكثر شيوعا. إن أقدم الشواهد على الكتابة السومرية هي تلك الرقم الطينية الصغيرة التي نقشت عليها الكتابة التصويرية والتي تعود إلى منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد. وربما يكون السومريون قد بدأوا بالكتابة قبل هذا التاريخ على مواد أخرى ذات تركيبة عضوية، وأن تكون هذه المواد قد تحللت وتلاشت للابد. ومن المحتمل أيضا ألا يكون السومريون هم أول من توصل إلى تطوير الكتابة كوسيلة جديدة للتواصل، أي أن يكونوا قد أخذوا هذا عن شعب آخر غير معروف كان يعيش قبلهم في الجزء الجنوبي من بلاد الرافدين. وربما تجدر الإشارة هنا إلى الفرضية الجديدة التي تقول إن السومريين قد تعلموا الكتابة، من أحد الشعوب الذي كان على ضفاف نهر الدانوب، ولكنهم قاموا بدورهم بتطوير هذه الكتابة. وقد أصبحت هذه الفرضية مقبولة أكثر منذ أن تم العثور في 1961 على الرقم الطينية التي تعود إلى العصر الحجري الجديد في منطقة تارتاريا برومانيا. فالتشابه بين الإشارات الواردة في هذه الألواح وبين أقدم الكتابات التي خلفها السومريون واضح للغاية، ولذلك فقد استخلص علماء الآثار أن هذه الإشارات، بالإضافة إلى الكثير من أمثالها التي تم اكتشافها

قبل وبعد 1961 في ضفاف الدانوب، قد نشأت تحت تأثير الحضارات الكبيرة للشرق الأوسط إلا أن نتائج التحاليل الراديو كربونية قد فاجأت وحيرت الخبراء لأنها أوضحت أن تلك الإشارات من ضفاف الدانوب أقدم بمئات السنين من أقدم الرقم السومرية. وليس من المستبعد أن تفاجئنا التحاليل الراديوكربونية في المستقبل أيضا، ولذلك فإن الوقت مبكر جدا لاستخلاص رأي نهائي حول هذا، أي من الذي تأثر بالآخر. وبغض النظر عن الأسبقية الآن فهناك حقيقة يمكن أن نؤكدها فورا، ألا وهي أن السومريين هم أول من ابتدع الكتابة التصويرية ثم طوروها إلى أن حولوها إلى نظام كتابي تطفي عليه السمات الصوتية.

لقد تم العثور على مئات من الرقم الطينية التي نقشت عليها الكتابة التصويرية وهي الأقدم التي طورها السومريون، في مدينة أوروك (التي وردت في التوراة باسم ارك) وهي تعود إلى منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد. وفي ذلك الوقت كان السومريون يستعملون حوالي 2000 إشارة تصويرية، إلا أن هذا العدد أخذ يقل تدريجيا نتيجة لتزايد ارتباط الإشارات بالأصوات حتى وصل عددها إلى 500-600 إشارة خلال الألف الثانية قبل الميلاد. وبالإضافة إلى ذلك فقد تغير شكل الإشارات السومرية في حد ذاته على مر القرون. فالأشكال الأساسية-المرحلة التصويرية ستنتظم في إشارات لا تشبه كثيرا الأصول الأولى التي تطورت منها. وكان مما ساهم في التطور المورفولوجي للإشارات الطريقة الجديدة لكتابة هذه الإشارات على الطين الطري بواسطة أقلام رفيعة عن القصب أو الخشب إلخ.. تلك التي كانت تتحرك على الطين إشارات طويلة على شكل مثلث تشبه المسامير. ومن هنا جاءت تسمية هذه الكتابة أيضا (الكتابة المسمارية). وقد نجح السومريون في تطوير هذه الكتابة إلى حد أنهم استطاعوا أن يدونوا بها أدق المفاهيم التجريدية وأرق المشاعر.

إلا أن الكتابة التصويرية ثم الكتابة المسمارية لاحقا لم تنشأ وتتطور بدافع الرغبة في أن تكتب بها القصائد والقصص أو النصوص العلمية-التعليمية. فقد طور السومريون الكتابة لدوافع عملية، أي لكي يسجلوا بها الاتفاقيات التجارية والمعاهدات مع الدول الأخرى، أو لكي يدونوا بها البضائع أو المواشي التي يدين بها بعض الأفراد إلى المعابد أو إلى المسؤولين المحليين

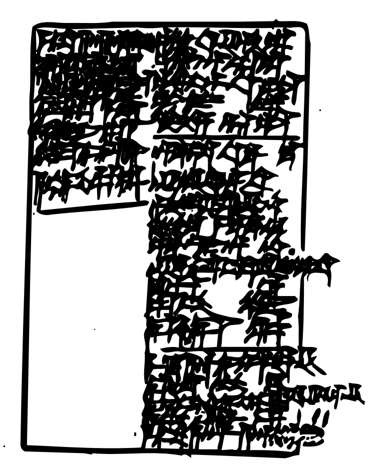
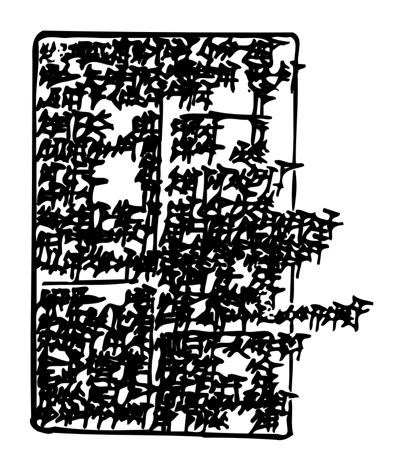
إلخ.. وحتى في القرون اللاحقة، أي خلال ازدهار الإمبراطوريتين البابلية والآشورية وبقية الدول في الشرق الأوسط، فإن الكتابة كانت في الدرجة الأولى تستخدم لغايات عملية.

فمن كل النصوص التي تم العثور عليها حتى الآن، سواء أكانت مدونة على الرقم الطينية أو على الأحجار أو على بقية المواد الأخرى التي كانت تصلح للكتابة، نجد أن 95٪ من هذه النصوص تتعلق بأمور التجارة والإدارة وشؤون الدولة.

وهكذا فإن هذه النصوص لها أهمية لا تقدر بثمن بالنسبة للتاريخ السياسي والاقتصادي للإنسانية، ولكن فيما يتعلق بالتاريخ الحضاري فإن النصوص الأخرى التي تتضمن الأدب والقوانين والميثولوجيا والفلك والبيطرة والتاريخ إلخ تعتبر ذات أهمية أكبر. إن القراءة المتأنية لتلك الرقم الطينية، التي هي غالبا ما تكون مفتتة ومتضررة كثيرا، قد قادت بالفعل إلى معارف مثيرة.

فقد كشفت هذه الرقم إن السومريين كان لهم أدب غني ومتطور وكانوا يعرفون أسس الكثير من المعارف الطبية، بالإضافة إلى أنهم كانوا يتمتعون بميثولوجيا غنية جدا. وفي هذه الميثولوجيا يمكن أن نرى الكثير من الموتيفات التي استحوذت عليها لاحقا كل الشعوب في الشرق الأوسط، والتي عايشت كل التغيرات التاريخية لتصل إلى وقتنا هذا.

كان السومريون يحتفظون بالرقم الطينية في أماكن خاصة داخل المعابد أو القصور الملكية أو المدارس. وقد تم العثور على بقايا هذه المكتبات أو مراكز الوثائق في المدن السومرية الكبيرة كلاغاش وأوروك ونيبور إلخ. وفي الواقع إننا لا نعرف الكثير عن مظهر هذه المكتبات أو مراكز الوثائق ولا نعرف شيئا عن تنظيمها وعملها. ومع ذلك فإن الخبير الأمريكي بتاريخ وثقافة السومريين س. ن. كرامر قد سلط أخيرا ضوءا ساطعا على هذه القضية المثيرة. فقد كشف عن أن أحد النصوص المدونة على رقم طيني محفوظ في المتحف الجامعي في فيلادلفيا (ولاية بنسلفانيا-الولايات المتحدة) ما هو إلا فهرس لإحدى المكتبات. وفي الواقع أن هذا الرقم الطيني يعود إلى حوالي 2000 ق. م، وقد تم العثور عليه في بقايا مدينة نيبور، المركز الديني والثقافي للسومريين حيث اكتشفت أيضا الكثير من الرقم الطينية

أقدم كتالوج-سجل مكتبي في العالم. اكتشف في نيبور ويعود إلى العهد السومري (حوالي 2000 ق. م.) يتضمن هذا الكتالوج 62 عملا أدبيا، وهو محفوظ في المتحف الجامعي في فيلادلفيا- أمريكا.

بالإضافة إلى ورشة للكتابة في حالة جيدة ومدرسة أيضا. وعلى الوجه الأمامي والخلفي لهذا الرقم الطيني نجد سجلا لاثنين وستين كتابا في موضوعات مختلفة، حتى أن الكتب الـ 13 لأخيرة تنتمي إلى مجموعة (الحكمة). إن هذه المعلومة تقود إلى أن الرقم الطينية في مكتبات ذلك الوقت كانت تتوزع على مجموعات متنوعة حسب الموضوعات المختلفة. وإذا كان كرامر على حق في ما وصل إليه فإن هذا دليل على وجود نظام للتصنيف البدائي في المكتبات السومرية.

ومن نيبور لدينا أيضا رقم آخر محفوظ الآن في متحف اللوفر بباريس، وكان قد عثر عليه أيضا كرامر الباحث الجلود. وفي هذا الرقم تجد بعض عناوين الكتب التي دونت أيضا في الرقم المحفوظ في فيلادلفيا، ولكن لدينا أيضا بعض العناوين الجديدة بحيث يصل عدد كل العناوين المذكورة على وجهي هذا الرقم إلى 87 عنوانا. وهنا لم تخف على عين كرامر الخبيرة بعض التفاصيل المتعلقة بالخط بحيث قاده ذلك إلى القول أن هذين الرقمين كتبتهما يد واحدة.

إننا لا نستغرب لكون القائمين على رعاية تلك الرقم، لكي لا نقول

العاملين في المكتبات ومراكز الوثائق، الذين كان عليهم أن يجدوا الرقم المطلوب بين المئات من الرقم، كانوا يعمدون إلى ترتيب تلك الرقم في الرفوف بشكل منطقي. فقد كان في وسعهم أن يضعوا مثلا الرقم التي تتضمن موضوعات ميثولوجية في أحد الرفوف، وأن يضعوا في رف آخر الرقم التي تختص بالرياضيات. ومن الصعب الآن أن نقطع أن هذا الفهرس، كما نعرفه الآن، له قيمة عملية ولكنه دون شك يكشف لنا عن جهد العاملين في المكتبات ومراكز الوثائق لوضع وسيلة للتوصل إلى ما هو مطلوب وسط الرقم الكثيرة الموجودة في المكتبات.

لقد سادت الثقافة السومرية في بلاد الرافدين فترة طويلة تزيد عن 1500 سنة، أي من منتصف الألف الرابعة ق. م وحتى بداية الألف الثانية ق.م. وخلال هذه الفترة الطويلة تمكن الكتاب السومريون من تدوين عدد كبير من النصوص في موضوعات مختلفة وفي نسخ متعددة. فبعض الحكايات الشائعة، كما هو الأمر مع البطل غير المحظوظ جلجاميش، فقد حفظت في نسخ كثيرة وروايات متعددة. وقد كان السومريون أول من سجل هذه الحكاية ثم قام بتدوينها بعدهم الشعوب الكثيرة الأخرى التي توازنت حضارتهم في تلك المنطقة. إلا أن الكتاب السومريين لم يدونوا فقط الأعمال الأدبية والميثولوجية بل دونوا أيضا المعاجم والنصوص المتعلقة بالبيطرة والرياضيات وغير ذلك من النصوص التي سجل فيها إنسان ذلك الوقت معارفه وإنجازاته التقنية.

وفي الواقع أن السومريين هم أول من سجل تلك الإنجازات بهدف واضح، بأن يحفظوها للأجيال القادمة.

وبعبارة أخرى فإن السومريين هم الذين خصوا الكتاب بالدور الذي ارتبط به حتى هذه الأيام، أي أن يكون الحافظ للإنجازات الإنسانية الثقافية والتكنولوجية وأن يخدم أيضا الأهداف الرسمية والتعليمية وغير ذلك من الغايات اليومية.

في منتصف الألف الثالثة ق. م أخذ الأكاديون الساميون ينتشرون في بلاد الرافدين، وهكذا أخذ السومريون يتلاشون من ساحة التاريخ تحت تأثير الضربات من هؤلاء القادمين الأقوياء. وهكذا بعد صعود قصير وباهر في الألف الثانية ق. م حين عايشت الحضارة السومرية أهم ازدهار لها،

جاء الآموريون الساميون ليدمروا مقر دولتهم، أور، وليخضعوا أراضي السومريين إلى حكمهم. وعلى أنقاض الدولة السومرية والحضارة السومرية ستتطور لاحقا الدولة القوية للبابليين.

2- البابليون

أخذ البابليون وطوروا كل ما خلفه السومريون في المجال الروحي وفي حقل الحضارة المادية. فمن هؤلاء أخذ البابليون الكتابة المسمارية وكل المعارف الرياضية والفلكية إلخ، بالإضافة إلى أسلوب بناء المدن والسدود إلخ. ولكي يفهموا النصوص التي ورثوها عن السومريين فقد كان على البابليين أن يضعوا القواميس العديدة وأن يترجموا النصوص الأدبية وغيرها، وأن يتابعوا تطوير المعارف حيث توقف السومريون. وهكذا فقد تفوق المنتصرون الساميون، الذين انبهروا بالتركة الروحية، للسومريين المهزومين في مجال الثقافة والمعارف. فقد تحولت ملحمة جلجاميش وغيرها من الأعمال الأدبية إلى جزء لا يتجزأ من الأدب البابلي.

لقد ورث البابليون عن السومريين أيضا الموهبة الكبيرة للكتابة، بل إن الأساتذة البابليين قد تفوقوا أيضا على السومريين. ففي عصر الازدهار الكبير، وخاصة خلال عهد حمورابي في القرن 18 ق. م توصل البابلييون إلى إنتاج كتابي ضخم مما دفع عالم الآثار الألماني ر. غولدوى، الذي قام بالتنقيب في العاصمة بابل، إلى أن يطلق على البابليين (أحباء الكتابة) وفي الواقع أن عدد الرقم الطينية البابلية التي تم اكتشافها حتى الآن يتجاوز 600 ألف رقم تتضمن مختلف الموضوعات.

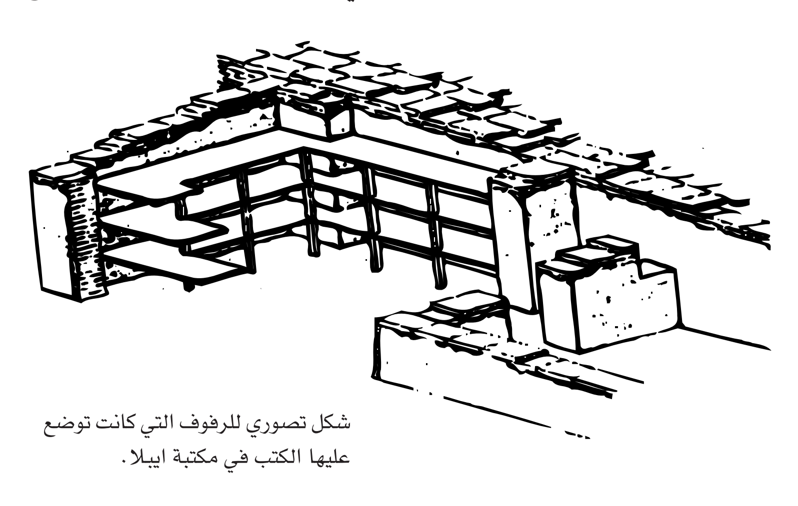
وكما في العصر السومري فقد كان البابليون أيضا يدونون وينسخون الرقم في ورش خاصة ويحفظونها في المكتبات أو مراكز الوثائق، التي كانت تنتشر في المعابد وفي قصور الحكام. وقد تم اكتشاف مكتبات من هذا النوع تحتوى كل واحدة على عشرات الألوف من الرقم، في مدن كيش وسيبار وفي بقية المراكز الثقافية البابلية.

وبالإضافة إلى البابليين فقد استعملت الكتابة المسمارية والرقم الطينية شعوب أخرى في بلاد الرافدين وفي البلاد المجاورة لها، وقد تمكن أيضا بعض هذه الشعوب من إنجاز إنتاج كتابي ضخم وتنظيم جيد للمكتبات.

3- المكتبة الرسمية في ايبلا

إن هذه المكتبة أو مركز الوثائق تستحق عناية عامة بسبب بعض التفاصيل المتعلقة بها. وقد تم اكتشاف هذه المكتبة مؤخرا في تل مرديخ، الذي يقع على بعد 55 كم في جنوب غرب مدينة حلب بسوريا، حيث كانت تقوم في الأزمنة القديمة المدينة القوية والغنية ايبلا. ففي خلال 1974 كشفت الحفريات الأثرية، التي كان يقوم بها منذ 1964 خبراء من جامعة روما، عن مكتبة أو مركز للوثائق في حالة جيدة، بحيث يمكن القول إن هذه أقدم مكتبة تم اكتشافها حتى الآن في الشرق الأوسط. وخلال الأبحاث الاركيولوجية الكثيفة تم اكتشاف بقايا القصر الملكي الكبير الذي كان يحتوى على قسمين خاصين بالكتب، ومن هنا أخرج العلماء 17 ألف رقم طيني مدونة بالحروف المسمارية ولكن في اللغة المحلية، أي في اللغة الايبلية.

وقد كان هذا القصر قد تهدم سنة 2250 ق. م نتيجة للحريق الذي شب فيه خلال هجوم الملك الأكادى نارام سين. ونتيجة لهذا الحريق فقد التهمت النار الرفوف الخشبية التي كانت تحمل الرقم الطينية، مما سبب تساقط هذه الرقم فوق بعضها البعض وهذا ساعد العلماء على إعادة تصور كيفية توزع هذه الرقم كما كانت في ذلك الوقت. وهكذا فقد اتضح أن هذه الرقم كانت مرتبة الواحد وراء الآخر حيث كان في الإمكان (تصفحها) كما يتصفح



شكل تصوري للرفوف التي كانت توضع عليها الكتب في مكتبة ايبلا.

المرء اليوم البطاقات المفهرسة في المكتبات العامة. أما الرقم الكبيرة، التي كانت تتعلق بشؤون الإدارة والدولة، فقد كانت تسند على الجدار في الأرضية.

إن التحليل المتأني للمواد المكتشفة يكشف عن تفاصيل مثيرة، وهي تكشف بدورها كيف أن العاملين في تلك المكتبة قد توصلوا إلى حل جيد للوصول بسهولة إلى الرقم المطلوب. فقد كانت كل الرقم مرتبة بحيث يبدو منها بداية النص، وفي رأس اللوح كان يكتب العنوان بشكل مختص ولذلك كان يمكن قراءته بسهولة دون أن تكون هناك حاجة إلى تحريك الرقم من مكانه، وكان يمكن أيضا بالاستناد إلى ذلك معرفة محتوى الرقم.

بعد ذلك الحريق لم يتم تجديد المكتبة أو مركز الوثائق، ولا حتى القصر الملكي بكليته، ولذلك فقد كانت هذه فرصة نادرة لعلماء الآثار لكي يقوموا بأبحاثهم في هذه المكتبة التي بقيت كما تركها الجنود الأكاديون. وهكذا فقد وجد العلماء ما يكفي من العناصر لإعادة تصور القصر الملكي كما كان في الواقع إلى حد كبير. فالغرفة التي عثروا فيها على النصوص الأدبية والتاريخية إلخ كانت مساحتها 4x3م وعلى جدران تلك، الغرفة بقيت آثار الحوامل الخشبية التي كانت ترفع الرفوف المخصصة للرقم الطينية الثقيلة. وعلى الأرضية أيضا كانت توجد وبأبعاد مناسبة شقوق للحوامل العامودية التي كانت تسند الرفوف الأفقية المملوءة بالرقم الثقيلة. وبالاستناد إلى ذلك أصبح في الإمكان معرفة عرض الرفوف (حوالي 80 سم) والارتفاع الذي يفصل كل رف عن الآخر (حوالي 50 سم).

ومن هذه الرقم المكتشفة لم يتم حتى الآن إلا قراءة عدد قليل، حوالي الألف فقط.

ومن هذه النصوص التي تمت قراءتها يبدو بوضوح أن القسم الأكبر من هذه الرقم يحتوى على نصوص إدارية وقانونية وسلطوية. وفي هذه الرقم سجلات كثيرة للبضائع التجارية التي كانت تصل إلى أيبلا، وأوامر ملكية مختلفة، واتفاقيات تجارية مع المدن والدول المجاورة إلخ.. ولكن في هذه الرقم نجد أيضا سجلات مختلفة لحكام أيبلا ورسائل تاريخية وأناشيد وأعمال أدبية بالإضافة إلى عدد كبير من المعاجم الأيبلية-السومرية والحكايات الميثولوجية والأمثال إلخ ومن هذه النصوص نجد أن بعضها قد

حفظ في أكثر من نسخة.

لقد كانت المعاجم توضع على رف خاص، بينما كانت النصوص الأدبية توضع على رف آخر خاص بها. وهكذا أيضا بالنسبة لبقية الموضوعات. ومن هذا يمكن أن نستخلص أن العاملين في أيبلا كانوا كزملائهم في نيبور يضعون الألواح في مجموعات منفصلة حسب الموضوعات.

ومن المحتمل جدا أن بقية المكتبات أو مراكز الوثائق في الشرق الأوسط كانت تشبه هذه المكتبة المكتشفة في أيبلا، إلا أن الحظ قد حالف العلماء هذه المرة ليجمعوا عناصر كافية تساعدهم على إعادة تصور كل الأمور الجوهرية لمكتبة من هذا النوع، وعلى التأكد من وجود نظام للتصنيف فيها.

4- الكتاب والمكتبات في أوغاريت

فيما يتعلق بتاريخ الكتاب في الشرق الأوسط، وبشكل خاص بالمكتبات، فإن المكتشفات الأركيولوجية في أوغاريت تعتبر ذات أهمية خاصة. وقد تم العثور على بقايا هذه المدينة في رأس شمرا، بالقرب من اللاذقية على الساحل السوري.

لقد كانت مدينة أوغاريت تمتد في موقع مناسب جدا حيث كانت تتقاطع الطرق التجارية والمؤثرات الحضارية للعالم في ذلك الوقت. فالتجار والدبلوماسيون والكهنة وغيرهم من أصحاب الغايات من مصر وبلاد الحيثيين والبابليين والآشوريين والمكانيين والقبارصة كانوا قد أوجدوا في أوغاريت تجمعا شرقيا وحضورا متميزا وبارزا في شوارع هذه المدينة.

وهكذا لم تكن أوغاريت مكانا للتجارة فقط بل كان يتم فيها تبادل الرأي ومعرفة كل ما يحصل في البلدان الأخرى، مما كان يخلق فيها شرطا مثاليا للمركز الديناميكي والخلاق الذي تبرز فيه الأفكار الجديدة والذي يضمن لنفسه التطور المتواصل.

لقد وجد العلماء أنفسهم أمام كنز لا يقدر بثمن بعد أن تولت بعثة التنقيب الفرنسية برئاسة ك. شافير العمل منذ 1939 بشكل واسع ومنظم في رأس شمرا. ومن بين الأشياء التي استخرجت كانت الرقم الطينية الكثيرة التي نقشت عليها الحروف المسمارية للغة مجهولة حتى ذلك الحين- اللغة الأوغاريتية، بالإضافة إلى رقم كثيرة بلغات تلك الشعوب التي كان

الأوغاريتيون يقيمون معها صلات تجارية ودبلوماسية. وقد اتضح على الفور أن مضمون تلك الرقم مهم للغاية فيما يتعلق بإعادة ترتيب الحوادث التاريخية في النصف الثاني للألف الثانية قبل الميلاد، أي في الوقت الذي كانت فيه أوغاريت تعايش أعظم ازدهار اقتصادي وثقافي. وبشكل خاص لقد كانت بعض الرقم تتمتع بقيمة كبيرة، وبالتحديد تلك الألواح التي تتضمن نصوصا أدبية وقانونية ومعرفية ودينية. وبعبارة أخرى فقد كان قد تجمع في أوغاريت جزء كبير مما أبدع خلال آلاف السنين في الشرق الأوسط. وقد كان التجار والأفراد العمليون والأغاريتيون قد بسطوا الحروف المسمارية إلى حد كبير حتى أن عددها وصل إلى ثلاثين فقط، وبهذا كانوا قد وضعوا واحدة من أقدم الكتابات الصوتية في العالم، أي تلك الأبجدية التي تعود إلى القرن 15 ق. م.

وفي وسط من هذا النوع كان لا بد بالطبع أن تكون هنا ورش للكتابة ومدارس للكتاب ومكتبات أيضا، وهي التي برزت بسرعة خلال الحفريات. ففي بداية أعمال التنقيب، خلال عام 1929، تم اكتشاف مكتبة بالإضافة إلى ورشة للكتابة في البناء ذاته. ومن خلال الكتابات الجدرانية اتضح أن ذلك البناء كان مقرا لسكن ومكتب رئيس الكهنة في أوغاريت. وفي مكتبة رئيس الكهنة كان هذا يحتفظ بكتب دينية وثقافية، نظرا للمنصب الرفيع الذي يحتله، بالإضافة إلى كتب أدبية ومعاجم وحتى رسالة غير عادية بعنوان «معالجة الحصان المريض».

ومع استمرار الحفريات الأثرية تم اكتشاف عدد آخر من المكتبات في هذه المدينة، وبين هذه كانت المكتبات الخاصة هي الأكثر عددا. ومن المثير فعلا أنه حتى الآن لم يتم العثور على مكتبة رسمية أو مركز للوثائق، كما هو الأمر مع بقية المراكز الثقافية الكبرى في الشرق الأوسط.

فخلال عام 1956 تم اكتشاف مكتبة خاصة في بيت أحد الموظفين الملكيين في ذلك الوقت. وفي هذه المكتبة وجدت رسائل كان هذا المسؤول قد تسلمها من حاكم قبرص ومن عدد آخر من الشخصيات الهامة في تلك الفترة. وبالإضافة إلى هذه الوثائق فقد كان هذا المسؤول يحتفظ في مكتبته بمعاجم متعددة، ومن هذه معجم بأربع لغات سومري-أكادى-حوري-أوغاريتي. ومن الواضح أن هذا المعجم كان ضروريا له للاتصال مع المحيط

المتنوع الذي كان يتعامل معه من خلال مسؤولياته الرسمية.

وفي عام 1959 اكتشفت مكتبة خاصة أخرى في هذه المدينة. وقد كانت هذه المكتبة موزعة على قسمين ووجد العلماء فيها معاجم كثيرة ونصوصا فلكية وأدبية، ومن بين هذه كان هناك مقطع للحكاية السومرية-البابلية الشائعة عن جلجاميش.

وخلال أعمال التنقيب الأخرى التي جرت سنة 1962 ظهرت مكتبة خاصة أخرى بالقرب من أكروبول المدينة تحتوى على كتابات قانونية ومعرفية. كانت هذه المكتبة تخص أحد الموظفين الكبار في الدولة (نهاية القرن 15 وبداية القرن 14 ق. م) الذي لم يكتف بتجميع النصوص التي يحتاج إليها خلال عمله الرسمي وإنما كان كغيره من المثقفين حريصا على أن يكون لديه في المكتبة من المعاجم والأعمال الأدبية الأوغاريتية والسومرية وغيرها. وفي هذه المكتبة نجد مجموعات مثيرة من الرقم الطينية التي كانت معروفة لدينا من خلال المكتبات الأخرى الخاصة في أوغاريت كتلك التي تتضمن تعابير الحكمة، التي تكشف عن الاهتمامات الفكرية للشريحة المثقفة في المجتمع الأوغاريتي. ففي أحد الرقم نقرأ ما يلي: «هل هناك حياة دون مجد وأكثر قيمة من الموت ؟» وفي رقم آخر نصادف مثلا: «من الذي لا يتجاهل الضعف ؟» أو «هذا هو قدر الأبرياء» إلخ.

وهكذا من المعطيات الكثيرة التي توصل إليها العلماء خلال أعمال التنقيب في المدينة القديمة يمكن لنا أن نستخلص أن الكتاب كان مقدرا جدا في الشرائح العليا للمجتمع الأوغاريتي وحتى أن بعض النصوص الأدبية والمعرفية كانت نصوصا مقررة للمتعلمين.

ومن الواضح هنا أن معرفة الأعمال الأدبية وبقية الأعمال السومرية-البابلية كانت في ذلك الوقت جزءا أساسيا من التعليم الأساسي. وبالاستناد إلى ذلك فمن المؤكد أن أفراد الطبقة الحاكمة من المسؤولين والكهنة والتجار كانوا يزدرون كل فرد يجهل ما يعرفونه، أو كل من لا يحتفظ في مكتبته الخاصة بالكتب المعروفة والشائعة كملحمة جلجاميش مثلا.

لقد تعرضت أوغاريت للغزو والتدمير على يد شعوب البحر. ومن حسن الحظ فعلا أنه لم يتم تجديدها لاحقا. فقد وجد علماء الآثار بقايا هذه المدينة كما تركها الغزاة، ودلت أبحاث أولئك العلماء على أن أوغاريت لها

مكان مشرف في تاريخ الكتابة والكتاب والمكتبات.

5- المكتبة الرسمية الحيثية في هاتاشاش

كان للحيثيين أيضا في عاصمتهم «حتوساس Hahusas» مكتبات أو مراكز للوثائق غنية ومنظمة بشكل جيد. وكان علماء الآثار قد حددوا ونقبوا عن هذه العاصمة في بوغاز كوى، التي تبعد حوالي 150 كم عن شرق أنقرة الحالية في تركيا. وخلال الحفريات التي استمرت منذ سنة 1906 وحتى الآن، تم اكتشاف آلاف الرقم الطينية التي تحتوى على كتابات حيثية بالحروف المسمارية البابلية، والتي دونت خلال القرنين 14- 13 ق.م وتتضمن هذه الرقم نصوصا دبلوماسية وإدارية وسلطوية على الأغلب، ولكننا نجد فيها أيضا نصوصا كثيرة تحتوى على موضوعات تاريخية وعلى حكايات سومرية-بابلية، ومن ذلك بطبيعة الحال ملحمة جلجاميش. إلا أن هذه الحكايات لا توجد فقط في أصولها البابلية وإنما في عروضها الحيثية أيضا.

وفي الواقع إن وجود النصوص الأدبية والتاريخية كان يدفع للاعتقاد أن ما يضم هذه النصوص لم يكن مجرد مركز للوثائق. بل إن الأمر يتعلق بالمكتبة الرسمية الحيثية.

وحول هذه المكتبة أصبحنا نعرف الآن بعض المعطيات التي توضح إلى أي مدى وصل العاملون في المكتبات بالشرق الأوسط فيما يختص بتنظيم الكتب في المكتبات. فقد استفاد أولئك العاملون من خبرة الآخرين المتراكمة على مر القرون في المكتبات الأخرى للشرق الأوسط وأصبحوا يعرفون في ذلك الوقت كيف يتوصلون إلى الرقم المطلوب وسط آلاف الرقم الأخرى. ففي نهاية الرقم الطينية في هاتاشوش نجد معطيات تتعلق بالعنوان، وبالتحديد عن مضمون النص وحول الناسخ. وإذا كان النص في أحد الرقم يكتمل في رقم آخر فإن الرقم في هذه الحالة كانت ترقم، وكان النص في كل رقم آخر يبدأ بالجملة الأخيرة الواردة في الرقم السابق. ولمعرفة مكان كل رقم أيضا فقد قام العاملون في المكتبة بوضع فهرس للمكتبة. وبعبارة أخرى فإن هذه المكتبة، كغيرها من المكتبات الكثيرة خلال ذلك الوقت في الشرق الأوسط، كانت تحظى بكل العناصر الجوهرية التي تميز المكتبة

المنظمة عن المكان الذي تتجمع فيه الوثائق المكتوبة دون أي ترتيب.

6- مكتبة الملك الأشوري آشور بانيبال

بالاستناد إلى العناصر المذكورة أعلاه فقد تطورت بأبعاد أوسع أهم مكتبة في الشرق الأوسط، تلك التي أسسها بكل عناية الحاكم الآشوري المثقف آشور بانيبال، الذي تولى الحكم خلال عام 669-627 ق. م.

ولقد أدت المصادفة أن يكتشف هذه المكتبة في بداية التنقيبات الأثرية في بلاد ما بين النهرين. فخلال عام 1845- 1851 كان قد اكتشفها حينئذ الدبلوماسي الإنكليزي الشاب أ. د. لايرد في تل كيونجيك بالقرب من الموصل، حيث تم اكتشاف بقايا العاصمة الآشورية نينوي.

وفي عام 1850 اكتشف لايرد البلاط الملكي للملك سنحاريب (705-681ق. م) ووجد فيه ما سماه (غرفة السجلات). وقد تابع عمله بعد ذلك هـ. راسم خلال (1852-1854) و(1877-1881)، واكتشف بقايا قصر الملك آشور بانيبال ومكتبته التي تحتوي على أكثر من عشرين ألف رقم طيني.

لقد أثارت قراءة تلك الرقم، التي انتقلت إلى المتحف البريطاني في لندن، ضجة كبيرة سواء في وسط الخبراء في ذلك الوقت أو في وسط المهتمين بالثقافات القديمة للشرق الأوسط. وهكذا مثلا تم اكتشاف أن ذلك الحاكم الآشوري الكبير، الذي روت المصادر التاريخية الكثير عن شدته وحملاته الدموية ضد جيرانه، كان في الوقت ذاته عالما كبيرا ومحبا للكتب. وفي الواقع لقد كان هذا الملك هو أول من توصل إلى الفكرة بأن يجمع في مكان واحد كل ما أبدعته الأجيال السابقة في الشرق الأوسط في حقل الأدب والمعرفة، وهي المبادرة التي لا مثيل لها في التاريخ.

إن الرقم التي اكتشفت في المكتبة الملكية تروى بنفسها كيف تم إنجاز هذه المبادرة. فمن خلال هذه الرقم أصبحنا نعرف كيف أن جيشا كاملا من الكتاب قد كلف بأمر ملكي بأن ينسخ عدة مرات كل نص قديم يتم الحصول عليه. وقد كان الكتاب يسجلون بفخر أصل وقدم الأصلي: «نص منسوخ من بلاد آشور التي هي مصدر النص الأصلي»، أو «حسب أحد الرقم من بابل» إلخ. وهكذا إن هذه الإشارات وغيرها تكشف عن الجهد والتنظيم الذي تم بهما نسخ النصوص القديمة لمكتبة آشور بانيبال. وبالإضافة إلى هذا فقد

تم ببساطة نقل الكثير من الرقم من المدن الأخرى للإمبراطورية الآشورية إلى هذه المكتبة. فمن هذه الرقم نفسها نعرف الآن أنه تم نقل مكتبة خاصة بكاملها من كلاح إلى نينوى.

لقد كان الملك آشور بانيبال يهتم بنفسه على أن يتم نسخ كل الرقم القديمة التي يمكن العثور عليها في أرجاء إمبراطوريته أو نقلها إلى مكتبته. ففي إحدى رسائله إلى أحد المسؤولين في بابل تجده يأمره كما يلي:

«ابحثوا عن الرقم القيمة التي لا يوجد منها نسخ في بلاد آشور وأرسلوها لي. لقد كتبت الآن إلى رئيس الهيكل ومحافظ المدينة في بورسيبا عنك، وعليك الآن ياشادان أن تحفظ الرقم في مقرك بحيث لا يتجرأ أحد على أن يسرق منها شيئا. وحيثما تجد أي رقم أو أي نص شعائري يمكن أن يناسب قصري فخذه وأرسله إلى هنا».

ومن أمثال هذه الأوامر التي كان الملك يوجهها إلى العاملين لديه في أرجاء الإمبراطورية يمكن لنا أن نستخلص ببساطة أن الأسلوب الذي كان ينتهجه الملك لجمع الرقم المرغوبة لا يمكن أن يمدح عليه. ولكن مع ذلك علينا أن نكون منصفين له وأن نعترف بأن آشور بانيبال لا يمكن أن يقارن بالكثير من الحكام اللاحقين والزعماء العسكريين النابهين. وبعبارة أخرى فإننا نعرف أن القسم الأكبر من مكتبته قد تجمع بواسطة نسخ الرقم القديمة وليس عن طريق نهب المكتبات الأخرى.

لقد ساهم الكتاب-الذين كانوا يعملون تحت متابعة المسؤولين المتعلمين في القصر الملكي-والمصححون، والمصنفون، والعاملون الذين كانوا يشوون بعناية الرقم الطينية وأولئك الذين كانوا يرتبون الرقم على الرفوف. بالإضافة إلى الكثيرين أيضا، لقد ساهم كل هؤلاء تحت رعاية الموظفين الملكيين وحسب خطة الملك آشور بانيبال نفسه في إنشاء أكبر مكتبة في الشرق القديم.

وفي الواقع لقد كانت هذه المكتبة هي النموذج الأولى للمكتبة، كما هو الحال مع مكتبة الإسكندرية من العصر الهليني، التي ستأخذ أرقى شكل لها.

كان المسؤولون عن تنظيم هذه المكتبة يواجهون المشاكل أيضا، مع أن تلك المشاكل لم تبرز لأول مرة في الشرق الأوسط. فقد حاول الآخرون

قبلهم حل تلك المشاكل، إلا أن هموم العاملين في مكتبة آشور بانيبال كانت أكثر لأن هذه المكتبة كانت أكبر مكتبة حتى ذلك الوقت.

فالسؤال كان دائما يدور حول أسلوب ترتيب الرقم الطينية وطريقة تصنيفها لكي يسهل التوصل إلى الرقم المطلوب. وبالاستناد إلى خبرة الذين سبقوهم في حل هذه المشكلات الصعبة فقد كانوا يدركون أنه من الصعب عليهم التوصل إلى الرقم المطلوب إذا لم يكن لهذا اللوح ما يحدد موضعه على رف من الرفوف.

ولهذا فقد استفادوا من الخبرة المتراكمة من الأزمنة السابقة وقاموا بترتيب الرقم في مجموعات حسب نظام محدد بالضبط. فقد كان لكل رقم يحدد موضعه في أية مجموعة، بينما كان في وسع المهتمين أن يحددوا بواسطة الفهرس موضع كل رقم.

كان لكل رقم ما يشير إلى مضمونه وإلى ناسخه وما شابه ذلك. وفي نهاية كل رقم نص منقوش بواسطة قالب أو خاتم: رقم رقم..... في صف....... قصر آشور بانيبال، ملك العالم، ملك بلاد الآشوريين.

ويبدو أن كتب هذه المكتبة كان يمكن أن تخدم دائرة واسعة من المتعلمين، وبالدرجة الأولى أولئك الذين يدخلون القصر الملكي. فوجود المعاجم اللغوية المتعددة وكتب القواعد وما شابه ذلك من الكتب يدل في ذاته على كثرة تداولها، إلا أن ذلك لا يمكن أن يقودنا إلى أن مكتبة آشور بانيبال كانت مكتبة عامة بالمفهوم الشائع في وقتنا هذا. وبعبارة أخرى لم يكن في وسع أي شخص أن يأتي ويستفيد مما هو متوفر في هذه المكتبة.

وأخيرا لقد أصبحنا نعرف لقب المنصب المهم لمدير هذه المكتبة: رب جرجيناكي، بينما كانت المكتبة ذاتها تسمى «جيرجيناكي» وذلك نسبة إلى اسم الخوابي الطينية التي كانت تحفظ فيها بعض الرقم الطينية. وبالإضافة إلى ذلك نعرف أنه في هذه المكتبة كان يطبق نظام تصنيفي وعلى هذا الأساس كانت توزع الرقم في رفوف المكتبة.

بعد موت الملك آشور بانيبال جاء دور المكتبة أيضا. ففي سنة 612 ق. م قام الملك الميدى كيازاس بتدمير نينوي من أساسها. وحتى هذه المدينة لم يتم تجديدها ولذلك فقد تمكن العلماء من اكتشاف بقايا مكتبة آشور بانيبال كما قد تركها الجيش الميدي.

7- المكتبات الأخرى في الشرق الأوسط القديم

تعرضنا حتى الآن إلى أهم المكتبات المكتشفة في الشرق الأوسط القديم. وتجدر الإشارة هنا، لكي لا يستخلص القارئ هنا صورة مشوهة عن أهمية الكلمة المكتوبة وتطور المكتبات في تلك المنطقة، إلى أن عددا كبيرا من الشعوب التي تعاقبت هنا، أو التي عاشت متجاورة في وقت واحد، قد خلفت كتبا ومكتبات كثيرة إلى حد يصعب فيه أن نذكرها فقط في هذا المجال. ومن هنا سنكتفي فقط بذكر البعض منها. ففي مدينة لاغاش السومرية مثلا التي نقب فيها أولا القنصل الفرنسي ارنست سرزيه خلال عام 1877- 1900، ثم بقية العلماء بعده، تم اكتشاف أكثر من ألف رقم طيني. وفي مدينة شوروباك اكتشفت عدة مكتبات خاصة، وفي بورسيبا عثر على مكتبة كبيرة في هيكل الإله بعل. ومن المصادر التاريخية نعرف أن مدينة بابل الغنية كانت فيها مكتبات كثيرة. ومن هذه نذكر على سبيل المثال مكتبة أسرة اغيبي الغنية، بينما نقلت من هذه المدينة رقم طينية كثيرة ورقوق جلدية إلى مدينة نينوى خلال عهد الملك سرجون الثاني (نهاية القرن الثامن ق. م). وعلى الرغم من ذلك فقد بقيت كثير من الرقم الطينية في بابل واستمرت هذه المدينة غنية بالكتب حتى انهيارها خلال العهد الفارسي. وفي مدينة أوروك كانت هناك المكتبة الشهيرة للملك الآشوري تيجلات بيلسير الثالث (القرن الثامن ق. م)، التي كانت تحتوى على ترجمات من الأكادية إلى الآرامية والآشورية، وكتب كثيرة للقواعد ومعاجم أيضا. وفي هذه المكتبة كان يوجد رقم دونت عليه ملحمة جلجاميش ورقم أخر يتضمن حكاية عن الفيضان الكبير الذي يغرق كل العالم، وهو الرقم الذي طلبه الملك آشور بانيبال لكي ينسخ ويحفظ في مكتبة في نينوي. وقد كان يوجد الكثير من أمثال هذه المكتبات لأنه من بداية الكتابة وحتى العهد الفارسي كانت كل الشعوب في بلاد ما بين النهرين تحظى بثقافة مكتبية غنية.

وفي هذه المنطقة كان الحكام الأقوياء والإمبراطوريات والمدن الغنية بين مد وجزر، إلا أن الكتاب كان هو الذي وحد كل هذه في مجموعة كبيرة للشعوب المثقفة. فملحمة جلجاميش وبقية النصوص الأدبية والمعرفية هي ملك لكل الشعوب في تلك المنطقة بغض النظر عن الدين واللغة والأصل. ولقد كانت الحروف المسمارية أيضا تربط بين تلك الشعوب، إذ أن غالبية

تلك الشعوب كانت تستعمل هذه الحروف بينما بقي البعض يستخدمها حتى القرون الأولى بعد الميلاد. وفي الحقيقة لقد كانت هذه الحروف تتغير وتتطور نحو الأحسن. ومع أن بعض الشعوب اتخذت لنفسها لاحقا أبجديات خاصة بها، إلا أن البداية بالنسبة للجميع كانت في الحروف المسمارية.

8- الطين كمادة للكتابة

كنا قد ذكرنا أن السومريين وبقية الشعوب في الشرق الأوسط قد استخدموا على الأغلب الطين كمادة للكتابة. وفي الحقيقة أن الفضل فيما نعرفه عن ثقافات الشعوب في الشرق الأوسط يعود إلى مقاومة الطين للتأثيرات المناخية، وبالتحديد إلى صلابته.

كانت تلك الشعوب تأخذ المادة الخام لصنع الرقم من ضفاف دجلة والفرات، بينما كانت طريقة صنع تلك الرقم بسيطة للغاية. ففي البداية كان الطين يوضع في إناء مع الماء بغرض تصفيته بحيث يسقط الحص والمواد الثقيلة الأخرى نحو الأسفل بينما يطفو على السطح القش وفتات الخشب وغير ذلك من الشوائب.

وفي هذه الحالة كان يلقى ما يطفو على السطح بحيث كان يسهل أخذ الطين بعد فصله عما هبط منه نحو الأسفل. وعلى هذا النحو كان يتم الحصول على الطين النقي الذي يستعمل لصناعة الرقم. وقد كان في الإمكان أيضا العثور على الطين النقي، الجاهز للاستعمال، من ضفاف دجلة والفرات، حيث كانت تقوم هناك الطبيعة بتصفية الطين عوضا عن الإنسان كما رأينا سابقا. فهنا أيضا كانت تسقط الحصى نحو الأسفل بينما كان ماء النهر يجرف الشوائب في طريقه، ولذلك فقد كان الطين مناسبا للاستعمال ولا يحتاج إلى أي تحضير.

أما حجم الرقم الطينية فقد كان مختلفا، من 5-6 سم إلى 25-30 سم من حيث الارتفاع.

كان الكتاب ينقشون الإشارات على الطين النقي، ثم كانت توضع هذه الألواح تحت أشعة الشمس إلى أن تجف. أما الرقم التي تتضمن اتفاقيات تجارية هامة ووثائق للدولة وأعمالا أدبية ومعاجم، أو أي نص مخصص للاستخدام العام، فقد كان يتم شويها لحمايتها من التشوه.

كانت الرقم الطينية تحفظ في الخوابي الطينية أو كانت ترتب بعد ذلك على الرفوف. وقد كانت الرقم غير المشوية حين تتصل بالرطوبة، وهي ليست حالة نادرة تمتص كثيرا من الرطوبة مع مرور الوقت حتى تتحول ثانية إلى طين طري. وقد سبب هذا متاعب كثيرة للعلماء أثناء الحفريات، إلا أنه اليوم لدينا وسائل فعالة جدا لإنقاذ الرقم من هذا النوع. ولكن في الماضي كان يحدث من حين إلى آخر أن تضيع إلى الأبد بعض الرقم بسبب هذا.

9- مكتبات أو مراكز للوثائق

لقد استعملنا حتى الآن تعبير «المكتبات» حين كنا نتحدث عن مجموعات الألواح الطينية المكتشفة في مدن الشرق الأوسط، وقد آن الأوان هنا لنتوقف عند هذا التعبير لكي نرى إلى حد ينطبق على تلك المجموعات من الألواح الطينية.

إننا في الوقت الحاضر نقسم النصوص المكتوبة إلى مواد وثائقية (رسائل الحكام والكهنة والتجار، سجلات بيع وشراء البضائع سجلات أصحاب الديون، عقود بيع الأراضي إلخ...) وإلى مواد خاصة بالمكتبات إذا كان الأمر يتعلق بنصوص أدبية ومعجمية وبيطرية وقانونية إلخ، إلا أن هذا التقسيم يصعب تطبيقه على الألواح الطينية المذكورة.

ولكن مع وجود العدد الكبير من الألواح التي تتضمن نصوصا إدارية وما شابه ذلك فإن تلك المجموعات من الألواح تجد مكانها في مركز الوثائق وليس في المكتبات. إلا أن السومريين أنفسهم وغيرهم من شعوب الشرق الأوسط لم يهتموا كثيرا بالأمور التي ستحير المؤرخين لعدة آلاف من السنين: هل هذه مواد خاصة بمراكز الوثائق أو بالمكتبات؟

ومن هنا فقد كانت كل الألواح حينئذ توضع في مكان واحد بغض النظر عن مضمونها، إلا أن هذا لم يكن يمنع تصنيفها إلى مجموعات حسب الموضوعات التي تتضمنها.

ولذلك يمكن لنا في أغلب الحالات أن نستعمل تعبير المكتبة كمرادف لمركز الوثائق، أي مكتبة ومركز وثائق معا، إلا في الحالات الخاصة حين يتعلق الأمر بمركز للوثائق أو بمكتبة فقط.

١٥- الفينيقيون

في تاريخ الكتاب، وبشكل خاص فيما يتعلق بالكتابة، يحتل الفينيقيون فصلا خاصا، وهم الذين تربطهم قرابة وثيقة بالأوغاريتيين. وقد كان الفينيقيون يسكنون منذ الألف الثالثة الشريط الساحلي لسوريا ولبنان، وأخذوا يمارسون التجارة منذ وقت مبكر جدا حتى أصبحوا مع مرور الزمن أشهر من مارس التجارة واختراق البحار في الأزمنة القديمة. وفي الواقع لقد أملى عليهم موقعهم الاستراتيجي أن يكونوا في مفترق الطرق للحضارات المتقدمة التي كانت تتطور في البلدان المحيطة بهم كمصر وبلاد ما بين النهرين وكريت وآسيا الصغرى. ومن موانئهم المعروفة كبيبلوس وصيدا وصور وغيرها كانت تنطلق سفنهم التجارية السريعة إلى كل أرجاء البحر الأبيض المتوسط، وحتى خارج هذا البحر. وقد كان للفينيقيين عدد كبير من المراكز والمستوطنات التجارية، التي كانت تضمن لهؤلاء البحارة الممتازين التجول في البحار وممارسة التجارة الرابحة.

ومن هنا لا نستغرب أن يتوصل الفينيقيون بالذات، وهم الذين اشتهروا كشعب عملي إلى المبادرة في نهاية الألف الثانية قبل الميلاد لوضع نمط جديد من الحروف أسهل وأفضل بكثير من تلك المسمارية والهيروغليفية وغيرها من الحروف التي تطورت في منطقة الهلال الخصيب. وفي الواقع لقد أبدعت هذه المبادرة أبجدية جديدة بحروف مبسطة جدا لكل صوت، وبالتحديد فقد كانت هذه الأبجدية تتضمن 22 رمزا للتعبير عن الأصوات فقط. وبعبارة أخرى فإن الفينيقيين، كبقية الساميين، لم تكن لديهم رموز خاصة للأصوات، وهي التي أضافها اليونانيون فيما بعد عندما أخذوا لأنفسهم الأبجدية الفينيقية.

لقد اشتهر الفينيقيون منذ العصر القديم، وبالتحديد منذ هيرودوت، بكونهم هم الذين أبدعوا الأبجدية بعد أن نشروها في كل البلدان الواقعة على البحر الأبيض المتوسط.

ولكن لا بد أن نذكر هنا أن الفينيقيين ليسوا هم أول من توصل إلى الرموز التي تعبر عن الأصوات، إذ أن هذا النوع من الحروف قد ظهرت قبلهم بثلاثة أو أربعة قرون في الشرق الأوسط وشرق البحر الأبيض المتوسط. وكنا قد أشرنا إلى أن الأوغاريتيين قد استعملوا الرموز التي تعبر

عن الأصوات، كما أن هذه الرموز كانت معروفة في سيناء وغيرها. إلا أن هذا لم يؤثر على الشهرة التي لحقت بالفينيقيين في تاريخ الكتابة لأن الفضل يبقى لهم في أنهم هم الذين أبدعوا أبجدية جديدة ومبسطة ثم قاموا بنشر هذه الأبجدية على شواطئ البحر الأبيض المتوسط. ويكفي هنا للتدليل على أهمية ذلك أن اليونانيين قد أخذوا هذه الأبجدية عن الفينيقيين ثم انتقلت بواسطتهم إلى بقية الشعوب.

لقد لعب الفينيقيون أيضا دورا مهما كتجار لورق البردى. , فمنذ القرن 11 ق. م كان الفينيقيون يشترون ورق البردى من مصر ثم يبيعونه لبقية الشعوب ولليونانيين أيضا. ولقد كان ورق البردى الذي يشتريه اليونانيون يأتي غالبا عبر بيبلوس ولذلك فقد أطلق اليونانيون أولا على ورق الكتاب ثم على الكتاب نفسه اسم «بيبلوس» أي نسبة إلى هذه المدينة الفينيقية.

أما عن الكتاب والمكتبات عند الفينيقيين فنحن لا نعرف إلا القليل. ففي وقت متأخر أخذ الكتاب يذكرون كتب التاريخ والكتب المقدسة المحفوظة في المعابد ومراكز الوثائق والمكتبات، ولكنه لم يكتب الاستمرار لشيء من هذا. ولدينا هنا معطيات أكثر حول الكتاب في أهم مستوطنة فينيقية، في قرطاجه التي تقع ضمن تونس حاليا. فقد كان للقرطاجيين مراكز للوثائق ومكتبات جيدة للغاية، ويمكن للمرء أن يتعرف على مصير هذه بواسطة ما خلفه الكتاب الرومانيون. وهكذا نجد أن الكاتب المطلع بلين الأكبر قد ذكر في كتابه التاريخ الطبيعي (18، ص 22) أن مجلس الشيوخ الروماني قد قام، بعد تولى القائد سكيبون الأفريقي سنة 146 ق. م. الاستيلاء على قرطاجة وتدميرها، بتوزيع الكتب على الحكام الأفريقيين المجاورين الذين لم يعارضوا تقدم الجيش الروماني الفاتح.

وقد كان من حظ روما أن يصلها كتاب الكاتب القرطاجي ماغوا عن الزراعة، وقد ترجم هذا الكتاب أولا إلى اللاتينية ثم إلى اليونانية، وقد أثر هذا الكتاب بشكل واضح على الأعمال المشابهة التي كتبت لاحقا في روما.

11 - اليهود

أن أقدم المعطيات عن الكتب والمكتبات عند اليهود نجدها في أسفارهم المقدسة حيث يتردد ذكر الكتاب والنساخ وحفظ الكتب في المعابد. فعلى

سبيل المثال نجد أن الكتاب الثاني عن المكابيين (2, 13-15) يذكر أن نحميا كان يحتفظ بمكتبة تتضمن «كتب عن الملوك الأنبياء، عن داود وبقية الملوك»، كما أن يهوذا المكابي كان يملك مكتبة مثل هذه أيضا. وفي الكتاب الثاني (أخبار الأيام) (34, 14 وغيرها) يقال إن الحبر حلقيا «وجد كتاب قوانين يهوه، التي نطق بها موسى» في «بيت يهوه»، أي في الهيكل. إلا أن ما بقي من الكتب والمكتبات اليهودية القديمة قليل جدا لأن الحروب المختلفة على مر القرون قد التهمت قسما كبيرا مما خلفه اليهود في العصر القديم. ففي فلسطين ذاتها لم يجد علماء الآثار حتى الآن إلا القليل من النصوص اليهودية المكتوبة التي ترجع إلى ماضيهم القديم، مع أن المصادر المكتوبة تشير إلى أن اليهود كانوا يملكون مكتبات كثيرة في البيوت أو في المعابد. ومن هذه الأخيرة كانت من الأهمية بمكان تلك التي وجدت في الهيكل الكبير.

وهكذا لم تكتشف حتى الآن من الماضي القديم سوى بعض الكتابات القصيرة على قطع فخارية كما في لاحيش وسمارا. أما أقدم النصوص اليهودية التي كتبت على ورق البردى والتي حفظت حتى الآن، فهي التي اكتشفت في مطلع هذا القرن في الفانتينا قرب أسوان في مصر، حيث كانت تعيش هناك جالية يهودية قوية. وهذه النصوص ترجع إلى القرن الخامس ق. م وتحتوى على عقود مختلفة باللغة الآرامية. وقد حفظ لنا المناخ المصري الجاف نصوصا أخرى مكتوبة على البردى في إدفو ترجع إلى القرن 3 ق. م، بينما لم يتم العثور في فلسطين ذاتها على لفائف من البردى إلا منذ القرن الثاني ق. م.

وقد تأخر أهم اكتشاف للنصوص الأدبية من العصر القديم حتى سنة 1947، إلى أن تم ذلك في قمران بالقرب من البحر الميت. ففي تلك السنة كان أحد الرعاة البدو يبحث عن جدى له فدخل في كهف حيث اكتشف بالصدفة جرة من الفخار تحتوى على لفات من الرق. وقد أدت التنقيبات اللاحقة في الكهوف المجاورة إلى اكتشاف عدد كبير من المخطوطات التي تبين أنها تحتوى على مقاطع منسوخة من الأسفار المقدسة وعلى كتابات ممنوعة في ذلك الحين من ممثلي الديانة الرسمية، بالإضافة إلى نصوص مختلفة كـ «قواعد الجماعة» إلخ.

كانت هذه المخطوطات تخص المكتبة التي كانت تقع في المعبد القريب التابع لطائفة اليهود الاسينيين وذلك في الفترة الواقعة خلال سنوات 136-68 ق. م.[1] ويبدو أن الأحبار قد أخفوا كتبهم القيمة في الكهوف القريبة حين شعروا باقتراب الخطر الروماني، وعندما وصل الرومانيون وحولوا ذلك المعبد إلى محطة للجنود لم يتجرأ أحد على العودة للكتب.

ومنذ 1949 تابع علماء الآثار التنقيب في مجمع المعبد المذكور وتمكنوا من اكتشاف ورشة للكتابة، حيث عثروا على محبرتين واحدة من النحاس والأخرى من الفخار مع بقايا حبر ثم على لوح كتب عليه الأحبار كتبهم وغير ذلك.

وقد أثار اكتشاف مكتبة طائفة الاسينيين في قمران اهتماما كبيرا لدى المختصين في الأبحاث التوراتية لأن بعض النصوص المكتشفة كانت أقدم ما عثر عليه حتى الآن حول الأسفار المقدسة[2].

لقد أوضحت مكتبة قمران، وهو ما ينتج عن كل ما نعرفه عن الكتب والمكتبات لدى اليهود القدماء، إن القائمين عليها كانوا ينسخون ويحتفظون بالأسفار الدينية المقدسة فقط، بينما كانت بقية الكتابات نادرة لديهم. ويعتقد هنا أن أقدم قسم من الأسفار المقدسة قد برز في القرن 13 ق. م، بينما كتبت الأسفار الأخيرة في القرن الأول الميلادي. وقد كتب الجزء الأكبر من هذه الأسفار في اللغة العبرية بينما كتب الجزء الآخر في الآرامية واليونانية. وبفضل إصرار اليهود على كتابة أسفارهم المقدسة خلال كل ماضيهم العاصف فقد واجهت تلك الأسفار كل التقلبات لتصل إلى عصرنا هذا.

وفيما يتعلق باستنساخ الأسفار المقدسة فقد كان من الأهمية بمكان دور الجاليات اليهودية الكثيرة التي كانت منتشرة في كل العالم اليوناني-

---

(1) الاسينيون Essenes طائفة يهودية كانت تعيش حياة النساك، ويقال إن المسيحية الأولى قد تأثرت بهم وإن المسيح كان عضوا في هذه الفرقة الدينية. (المحرر).

(2) تعرف هذه الوثائق بلفائف البحر الميت Drad Sea Scrolls وقد أثار كشفها ضجة كبرى وحدثت مشكلات هائلة مع الهيئات الكنسية الرسمية بشأن نشرها رغم التحمس الشديد الذي أبداه العلماء لهذا النشر. وأخيرا أمكن التغلب على جزء من مقاومة الكنيسة الرسمية وبدأ نشر بعض الأجزاء من جامعة اوكسفورد مؤخرا، وما يزال الجدل حول هذا الموضوع مستمرا. (المحرر).

الروماني. ففي مصر بالذات، وتلبية لحاجة اليهود هناك، برزت مثلا الترجمة المعروفة للأسفار المقدسة بـ «الترجمة السبعينية» واستنادا إلى إحدى الروايات فقد دعيت هذه الترجمة بهذا الاسم لأن اثنين وسبعين يهوديا أنجزوا في الإسكندرية خلال اثنين وسبعين يوما هذه الترجمة من العبرية إلى اليونانية. وفي الحقيقة لقد تمت هذه الترجمة خلال القرنين الثالث والثاني ق. م.

أما فيما يتعلق بكتابة الأسفار المقدسة فقد استعمل اليهود الرق فقط، وحول هذا لدينا إشارات بارزة في الأسفار المقدسة ذاتها. وفيما يتعلق بالنصوص الأخرى، غير الدينية، فقد كانت تستعمل مواد أخرى كقطع الفخار وألواح الشمع والبردى وألواح النحاس وغير ذلك. وحتى نهاية العصر القديم كانت الكتب اليهودية تأخذ شكل اللفافات بينما أخذت أيضا منذ القرن الخامس الميلادي شكل الكراسات.

12- مصر

على الطرف الغربي لما يسمى بالهلال الخصيب، وفي الوادي الخصب لنهر النيل، تطورت منذ نهاية الألف الرابعة ق. م الحضارة المصرية العظيمة التي حظيت فيها الكلمة المكتوبة بمكانة خاصة. فقد كانت معرفة القراءة والكتابة تعني لكل مصري تأمين مركز ممتاز في المجتمع، ولذلك فقد نصح العجوز دوا أوف بحكمة ابنه بيبيا حين وجهه إلى المدرسة بأن يحب الكتاب كأمه «لأنه لا يوجد ما هو أثمن من الكتاب». وفي الواقع لقد كان الطريق مفتوحا أمام الكاتب الماهر إلى أعلى المناصب في الدولة. إلا أن تعلم الكتابة في مصر القديمة لم يكن بالأمر السهل الذي ينتهي منه المرء بسرعة.

فقد كانت الكتابات المعقدة التي كان يستعملها المصريون كالهيروغليفية (منذ الألف الرابعة ق. م) والهيراطيقية (منذ الألف الثالثة ق. م) الديموتيقية (منذ القرن السابع ق. م) تتطلب تدربا طويلا ومتأنيا وهو ما كان يصاحبه في كثير من الأحيان تأنيب الوالد والمعلم وحتى الضرب بالعصا. ولذلك فقد كان من حق أفضل التلاميذ فقط أن يأملوا في صعود سلم المناصب في الدولة أو في العمل الدبلوماسي بينما كان على الآخرين-الأقل قدرة والأقل خبرة-أن يقتنعوا بالعمل كموظفين في الإدارات.

ولكن حتى هذه الوظائف كانت تعني الكثير، حتى أن تلك الألقاب «البيروقراطية» تحولت إلى مثل أعلى للشباب المصري. ومن هنا فقد كان الآباء والآخرون الذين يهتمون بالكتاب الشباب يتحدثون بحماس عن معنى أن يكون المرء كاتبا: «إنك تسير بحرية في الطريق ولن تكون ثورا يقوده الآخرون. إنك في مقدمة الآخرين كلهم» ومن هنا فقد كان من المهم للفتى أن يتابع تعلمه وأن ينجح في المدرسة. ولذلك فقد كان التلاميذ والآباء يطلبون المساعدة غالبا من الإله توت، حامي الكتاب وراعي الآلهة، الذي كان حسب المعتقدات المصرية هو الذي اخترع الكتابة وعلمها للمصريين.

كان المصريون أيضا يقدرون الكتاب ذاته تقديرا يكاد يقترب من العبادة. وهكذا نقرأ مثلا في أحد النصوص رأيا عميقا حول قيمة الكلمة المكتوبة: «لقد مات الإنسان وتحولت جثته إلى مسحوق وأصبح كل معاصريه تحت التراب. إلا أن الكتاب هو الذي ينقل ذكره من فم إلى فم. إن الكتابة أنفع من البيت المبنى ومن الصومعة في الغرب ومن القلعة الحصينة ومن النصب في المعبد».

ويتوقع المرء في هذه الحالة أن المصريين، الذين مجدوا إلى هذا الحد الكتابة والكتاب، كان لهم إنتاج كبير من الكتب وشبكة جيدة التنظيم لتوزيع الكتب ومكتبات غنية.

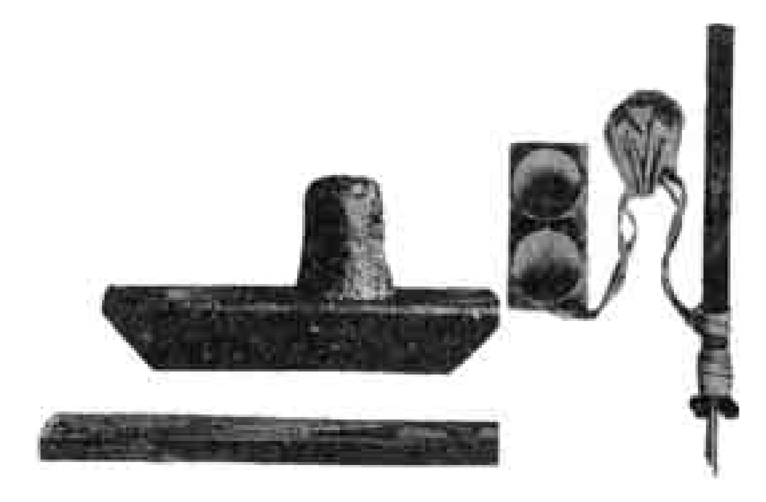
ولكن من كل هذا لا يجد المرء فعلا إلا القليل. لقد كانت الكلمة المكتوبة في مصر تحظى فعلا بالتقدير إلا أن العمل الثقافي لم يكن يثير الرغبة في الشرائح الواسعة للمجتمع بقدر ما كانت الرغبة تكمن في تأمين منصب اجتماعي يضمن الامتيازات عن طريق معرفة الكتابة والتفوق بها. وهكذا يستغرب المرء مثلا من أن المصريين كانوا لا يعبرون عن اهتمام كبير لكتابة تاريخهم، وحتى لكتابة المعارف الطبيعية. وفي الحقيقة أن هذه المعارف لم تكن مرتبطة بشكل ما بديانتهم أو بمعتقداتهم (كالفلك مثلا).

إن هذا ينطبق أيضا على الرياضيات التي توصلوا فيها إلى نتائج قيمة، ولكنهم أيضا لم يطوروها إلا بالقدر الذي كانوا يحتاجون إليه لحل الأمور العملية الحياتية.

وهكذا كان المصريون نادرا ما يكتبون مؤلفات في هذه المعارف، وقد كان السبب في هذا يكمن أيضا في أن المعرفة كانت تنتقل شفهيا من جيل

إلى آخر.

وقد انتقلت هكذا أيضا الأعمال الأدبية، التي بقيت تتردد على أفواه الناس مئات وآلاف السنين دون أن يلتفت إليها أحد الكتاب لتدوينها. ولذلك فإن النصوص المكتوبة كانت نادرا ما تتضمن أعمالا أدبية، وهي التي أخذ جمهور القراء في التعرف عليها حينئذ، بل كانت تتضمن الآثار الموجودة والمعروفة من الأدب الشعبي وهي التي بقيت حية دون أن تتأثر بكونها قد دونت أولا. أما الأعمال الإبداعية كقصائد الحب ومدح الحكام والآلهة والقصص المختلفة وما شابه ذلك فقد كانت مخصصة لدائرة ضيقة جدا من الناس المتعلمين، وهو بالتأكيد السبب في عدم نسخ هذه الأعمال في أعداد كبيرة أو في عدم طرحها للبيع في الأسواق.



أدوات للكتابة من عهد الدولة المصرية القديمة، وهي محفوظة اليوم في «المتحف المصري» - برلين.

أ- مواد الكتابة وإنتاج الكتاب

كان المصريون بكتابتهم الهيروغليفية الجميلة يكتبون غالبا على الحجارة المسطحة للمعابد وعلى المقابر وبقية المنشآت ثم على الخشب، بينما كانوا نادرا ما يكتبون على المواد الطرية. وكان أولئك الذين لا يعرفون القراءة- وهم كانوا دائما يشكلون الغالبية-يتمكنون من فهم ما تريد أن تقوله تلك

الكتابات بفضل الأشكال التصويرية (نقوش جدارية على مواد صلبة أو رسوم بألوان متعددة على مواد طرية) التي كانت تصاحب النصوص.

لقد كان المصريون نادرا ما يستعملون الألواح الخشبية للكتابة، وحتى إذا استعملوها فقد كانوا يتركونها لكتابة النصوص القصيرة. وقد استعمل الرق للكتابة أيضا، ولكن في حالات خاصة جدا كتدوين بعض وثائق الدولة التي لها أهمية خاصة وما شابه ذلك. وفيما يتعلق باستعمال الرق للكتابة فإن أقدم خبر عن ذلك يعود إلى الأسرة الرابعة (2500 ق. م)، ولكن أقدم نموذج للرق المستعمل للكتابة يعود إلى الأسرة الثانية عشرة (2000-1800 ق.م). وبعد ذلك بقي الرق يستعمل للكتابة من حين إلى آخر حتى أواخر عهد الدولة المصرية.

أما أكثر مادة استعملت للكتابة خلال استمرار الحضارة المصرية فقد كان ورق البردى. وهناك أدلة مؤكدة تثبت أن ورق البردى استعمل منذ عهد الأسرة الأولى في بداية الألف الثالثة ق. م، مع أن أقدم نموذج من ورق البردي يعود إلى زمن الفرعون نفريركر من الأسرة الخامسة.

وفيما بعد أصبح ورق البردى سلعة مهمة للتصدير في البلدان المجاورة كما في فينيقيا وسوريا منذ القرن إلحادي عشر ق. م، ثم في اليونان وروما حيث ساد كمادة إلى أن حل محله الرق أولا ثم الورق أخيرا خلال القرون الوسطى.

وفي موضع لاحق سنتحدث أكثر عن تقنية إنتاج ورق البردي، ولكن سنكتفي هنا بذكر أن استعمال الكتابة الهيراطيقية-وهي شكل مبسط من الهيروغليفية-يرتبط بشكل وثيق مع استعمال ورق البردى كمادة للكتابة.

وبفضل المناخ المصري الملائم للغاية فقد تم الحفاظ على عدد كبير من لفافات البردى، وخاصة في المقابر كما في بقايا المعابد وحتى في البيوت الخاصة. ولقد كان الكتاب المدون على ورق البردى في مصر يأخذ دائما شكل اللفافة، وقد بقي الكتاب على هذا الشكل حتى في العهود اللاحقة كاليوناني والروماني.

أما فيما يتعلق بالكتابة فقد استعمل المصريون أقلاما من نبتة تنمو في المستنقعات يتراوح طولها بين 16-23 سم. وقد كانت هذه الأقلام تقطع بشكل مائل في أحد أطرافها ثم يبرى رأسها إلى أن يسمح بالكتابة الدقيقة

جدا. وقد كانت هذه الأقلام تغمر في حبر أسود أو أحمر ثم يكتب بها على ورق البردى أو على المواد الأخرى. وقد كانت أمثال هذه الأقلام تحفظ في محفظة خاصة مصنوعة من القصب، أو في علبة مستطيلة من الخشب، وأحيانا في علب مصنوعة من العاج أو من المرمر. وفي هذه المحافظ أو العلب كانت توجد محبرتان، واحدة للحبر الأسود وواحدة للحبر الأحمر. وبالإضافة إلى هذا فقد كانت عدة الكاتب تشمل أيضا كيسا صغيرا من الجلد للماء المخصص لتمديد الحبر قبل استعماله، أو لمسح كلمة مكتوبة بالخطأ أو لمسح رسم مرسوم بشكل سيئ.

وتصور لنا الأعمال الفنية كيف كان الكتاب يقومون بعملهم. فقد كان الكتاب يركعون على القدم اليسرى ويستندون على القدم الأخرى بيدهم اليسرى التي تحمل اللفافة، وقد كانوا يجلسون القرفصاء كما يجلس الناس اليوم في الشرق. وحول هذا لدينا أشهر تمثال يبرز الكاتب في هذه الوضعية في متحف اللوفر بباريس.

وبالطبع فقد كان أكثر ما كتبه الكتاب ذو طابع إداري. وفي الواقع لقد كانت الدولة هي التي تنظم وتمول المدارس لتخريج الكتاب لأنها كانت تحتاج إليهم بالذات لممارسة الأعمال الوظيفية وما شابه في لك.

ومع ذلك فقد كانت تتوفر لهم أيضا الأوقات لنسخ النصوص الدينية والسحرية المختلفة والأدبية وغير ذلك من النصوص، وخاصة لنسخ ما يسمى (كتب الأموات). فقد كانت بعض الأعمال الأدبية، كالقصة المعروفة عن سينوحي أو قصة الفلاح البليغ وغيرها، تنسخ بناء على طلب الأفراد ولم تكن تنسخ لتباع في الأسواق.

ب- كتب الأموات

يبدو أن الكتب الوحيدة التي كانت تنسخ بكميات كبيرة وتطرح للبيع هي كتب الموتى. وقد كانت هذه عبارة عن مجموعات تتألف من نصوص مختلفة تتعلق بالدين والسحر وينتظر منها أن تؤمن للمدفون الراحة في حياة القبر، ولذلك فقد كانت توضع مع الأشياء الأخرى في قبر الإنسان المدفون. وهذه المجموعات كانت تتألف على الغالب من فصول غير مرتبطة بعضها ببعض وتعرضت بدورها إلى تغيرات عبر العصور. ففي عصر الإمبراطورية

القديمة كان يكتب على الجدران الداخلية للقبر أحد الفصول من كتب الموتى، بينما أخذت تلك الكتب تكتب على ورق البردى منذ عصر الإمبراطورية المتوسطة وخاصة خلال عصر الإمبراطورية الحديثة. وعلى الغالب كان الكتاب ينجزون عملهم بسرعة ودون تأني، ولذلك فإن أفضل النماذج فقط منسوخة بشكل سليم. ومن هذا نجد أن أحد الكتاب يفخر بإنجازه لكتاب من هذا النوع خلال عهد السلالة 18، وهي الفترة التي ظهرت فيها أجمل ما حفظ من كتب الموتى، ويذكر في نهاية النص أنه قد نسخ الكتاب منذ البداية وحتى النهاية وأنه «قد راجعه وقارنه وتأكد من كل إشارة فيه». إلا أن بقية الكتاب لم يكن في وسعهم أن يفخروا بعملهم كهذا الكاتب، ولكنه كان من الواضح أنه لم يكن هناك ما يبرر للطرفين-للكتاب أو للمشترين-أن يجهدوا أنفسهم بعمل لن يتمكن أي إنسان حي من قراءته ومراجعته.

أن أجمل النماذج من هذه الكتب هي تلك التي زينت برسوم ملونه تمثل مشاهد من حياة القبر للإنسان المدفون وما شابه ذلك. وكثيرا ما يقال هنا أن هذه الكتب تعتبر أقدم الكتب المصورة في العالم.

كانت هذه الكتب تكتب من قبل الكهنة، وقد كان هؤلاء يتركون في النسخ المعدة للبيع في الأسواق مكانا فارغا ليكتب فيه اسم الشخص المتوفى.

وفيما يتعلق بالتجارة في هذه الكتب فإننا لا نعرف الكثير بعد، إلا أن هذه الكتب كانت تباع بالفعل ولدينا معطيات من عهد الأسرة 18 توضح سعر كتابين من هذا النوع.

جـ- إعداد وحفظ الكتاب

إن المشاهد الكثيرة تساعدنا على معرفة كيف أن الكتب، التي كانت على هيئة لفافات من البردى، كانت تحفظ في صناديق خشبية أو في جرات فخارية. وقد تم العثور في المقابر على صناديق مزينة، وفي أحد القبور في طيبة اكتشف صندوق من هذا النوع يرجع إلى الأسرة 13. وفي هذا الصندوق كانت قد وضعت عدة لفافات من ورق البردى التي تحتوى على نصوص طبية وجغرافية بالإضافة إلى قصة سنوحي وبعض النصوص الأدبية الأخرى. وبالقرب من سقارة اكتشفت جرة تحتوى على نصين، الأول

قانوني والثاني طبي. ومن المعتقد هنا أنه في هذا النوع في تل العمارنة تم اكتشاف ذلك اللوح من البورسلان الذي يحتفظ به اليوم المتحف البريطاني في لندن.

ففي هذا اللوح نجد اسم الفرعون أمينوقيس الثالث واسم زوجته تييا بالإضافة إلى عنوان كتاب «كتاب حول التين والزيتون». ومن الواضح أن ذلك الكتاب كان ملكا للحاكم المذكور وزوجته. ويمكننا من هذا أن نستخلص أن هذين أيضا، مثل ذلك المدفون في طيبة، كانت لهما مكتبة خاصة وضعت لهما في الصندوق.

د- المكتبات في مصر الفرعونية

تبلغ نسبة كتب الموتى 95٪ من كل ما حفظه لنا الزمن من الكتب المدونة على ورق البردى، أي تلك الكتب التي كانت تنسخ كثيرا والتي لم تكن في الواقع مخصصة للقراءة. أما بقية الكتب التي كانت تتمتع بشهرة ما فقد كانت تنسخ للمثقفين الذين كانوا يشكلون دائرة ضيقة نسبيا.

أما من كان يملك مكتبة خاصة فقد كان يعتبر من النادرين، وإذا استندنا إلى ما نعرفه عن هؤلاء يمكن القول أن هذه المكتبات كانت تحتوى على قدر متواضع من الكتب.

وفي الواقع لقد كانت هناك أسباب وراء ندرة المكتبات وقلة ما فيها من كتب. الإنتاج المحدود للكتاب، وعدم تطور التجارة بالكتب، وانحصار الكتابة بالكهنة والطبقة البيروقراطية. وباستثناء ما كان في حوزة بعض الأفراد فقد كانت الكتب تحفظ في المعابد، أو في المدارس التابعة لتلك المعابد، ثم في قصور الحكام.

وبالاستناد إلى الوصف الذي خلفه لنا المؤرخ اليوناني ديدرو الصقلي، من القرن الأول ق. م، فقد أصبحنا نعرف عن وجود مكتبة الفرعون رمسيس الثاني (1292- 1225 ق. م) في مدينة طيبة. ومع ذلك فإن التنقيبات الأركيولوجية في المعبد الضخم لرمسيس لم تنجح بشكل قطعي في إثبات وجود بقايا هذه المكتبة. إلا أنه بالقرب من هذا المعبد تم اكتشاف قبرين للمسؤولين في المكتبة، لأب وابنه. وقد كان الأب يحمل لقب «مدير الكتب» بينما كان الابن يشغل منصب «رئيس قسم الكتب». وفي الواقع أن هذا

الاكتشاف يفيد كدليل غير مباشر في التأكيد على وجود ذلك الفرعون.

وقد كانت هناك مكتبة أخرى بالتأكيد في المعبد المعروف للإلهة أزيدا في جزيرة فيلاى، فقد تم هنا اكتشاف لوحة كتب عليها: «هذه صالة الكتب للمكرمة سيشات، إلهة التاريخ، التي تحفظ فيها وثائق ازيدا التي تهب الحياة». وقد إكتشفت في القاعة التي وجدت فيها هذه اللوحة رفوف داخل الجدران، حيث كان من الواضح أنها تستعمل لحفظ لفافات البردي.

ومن بين المكتبات التي لا يشك في وجودها بمصر القديمة تأتي تلك المكتبة التي اكتشفت في معبد الإله هوروس في موقع إدفا. ففي بقايا هذا المعبد هناك قاعة على رفوف داخل الجدران لحفظ لفافات البردى، بينما وجدت على أحد الجدران قائمة بالكتب المحفوظة (37 عنوانا). وفي الواقع أن هذا أقدم فهرس للكتب يعثر عليه في مصر، وهو يرجع إلى النصف الثاني للقرن الثالث ق. م.

إن هذه المكتبة تثبت كيف أن الكتاب، وحتى في تلك الفترة المتأخرة لمصر الفرعونية، كان نادرا للغاية وغير متوفر لدائرة واسعة من القراء. فبينما كانت هذه المكتبة تحتوى على 37 كتابا، وربما أكثر بقليل من هذا، نجد أنه في الوقت ذاته كان الحكام البطالسة في مصر، وبالتحديد في الإسكندرية التي كانت قد أسست حينئذ، قد بنوا مكتبة حوت خلال وقت قصير على مئات الألوف من الكتب. وهذا التباين الهائل يصور بشكل واضح الفرق بين الثقافة الفرعونية السكونية المحافظة وتلك الهلنستية الحيوية في مصر. فبينما كانت مكتبة الإسكندرية تقوم بدور ضخم في تطور المعرفة والثقافة لأنها كانت مفتوحة أمام الناس المثقفين لممارسة نشاطهم الثقافي، نجد أن مكتبة الإله هوروس كانت تستقبل فقط كهنة ذلك المعبد. وحتى هؤلاء كانوا لا يستفيدون من المكتبة كثيرا بسبب فقر محتويات الكتب التي كانت تحفظ فيها، والتي كانت على الأغلب تتعلق بالديانة والسحر وما شابه ذلك.

المراجع

حول تاريخ الكتاب والمكتبات في الشرق الأوسط لدينا مرآة جيدة لدى:

F.Milku-J. Schawe, Der alte Vorderorient,

وذلك في:

Handbuch der bibliothekswissenschaft, 2. Aufl., Wiesbaden 1955 Bd. III

حيث لدينا قائمة كبيرة بالمصادرة القديمة. وقد وسع ميلكا ودراسته هذه وإصدرها في كتاب مستقل بعنوان «تاريخ المكتبات في الشرق القديم»:

F. Milkau, Geschichte der biblioteken des Alten Orient, Lajpcig 1935.

انظر أيضا:

B.Teloni, Libri, documenti e biblioteche nell‘ antica Mesopotamia,Revista delle biblioteche 2 (1889), p134-150.

G.H.Bushnell, The World‘s Earliest Libraries, London1931.

E.Chiera, They Wrote on Clay, The Babylonian Tablets Speak Today, Chicago-London1975.

وحول السومريين وكتبهم يشكل خاص انظر:

S.N.Kramer, History Begins at Sumer, New York1959.

J.P.Peters, The Nippur Library, Journal of the American Oriental Society, 26 (1905), p.145-164.

حول مكتبة ايبلا ومركز الوثائق فيها:

P. Matthiae, La biblioteca reale di Ebla (2400-2250 A.C.), Rendiconti della Pontificia Accademia Romana di Archeologia, 48(1976), p.19-45.

P. Matthiae, Ebla un impero ritrovato, Torino1977.

ولدينا وصف مفصل للمكتبة لدى:

H.H.Wellish, Ebla: The World‘s Oldest Library, The Journal of Library History, 16(1981), Nr. 3, p.488-5090.

ولدينا وصف مفصل للمكتبات الخاصة في أوغاريت لدى:

V.Burr, Bibliotheken in Ugarit, Zeitschrif fur Bibliiothekswesen und Bibliographie, 14(1967), p154-167.

حول مكتبة أشور بانيبال كتب الكثير، ومن أهم الدراسات نكر هنا:

G.Smith, Babylonian and Assyrian Libraries, North British Review, 120(1870), p305-324.

B.Meissner Wie hat Assurbanibal seine Bibliothek zausmengebracht?

التي نشرت في مجموعة:

Aufsatze Fritz Mikau gewidmet, Lajpcij 1921, p. 257- 277.

وعن المكتبات اليهودية القديمة انظر:

L.Blau Studien zum althebraischen Buchwesen,1902.

A.H. Sayce, The Library of David and of Solomon, Journal of the R. Asiatic Society (1931), p783-790.

V.Burr, Marginalien zur Bibliothek von Qumran, Libri, 15(1965), p340-352.

C.Wendel, Der Thorasschrein im Altertum, Halle-Saal1950.

V.Burr, BibliothekarischeNotizen zum Alten Testament, Bon 1969; The Hebrew Book, An historical survey, ed. By R. Posner and Ta-shema, New York-Paris-Jerusalem1975.

ولدينا حول الكتاب في مصر الفرعونية دراسة شاملة:

J.Cerny, Paper and Books in Ancient Egypt, London1952.

وحول بعض القضايا المتعلقة بإنتاج الكتاب انظر:

A.Herrmann, Buchillustrationen auf agyptischen Bucherkasteh, Mitteilungen des Deutschen Archaologischen Instituts, Abt. Cairo, 15(1957), p112.

ولدينا في دراسة ميكا وشاو المذكورة (ص 4-17) صورة جيدة عن المكتبات في مصرز وعن المكتبات الأخرى انظر:

E.C.Richardson, Some Old Egyptian Librarians, New York1991.

Ch. L. Nichols. The Library of Rameses the Great, Boston 1909.

V. Wessetzky, Die agyptischevTempelbibliothek, Zeitschrift fur agyptische Sprache und Altertumskunde, 100(1973), p. 54-59.

2 الحضارات القديمة للشرق الأقصى

1 - الصين

بعد الحضارات الكبرى في الشرق الأوسط ظهرت في أودية أنهار يانسه-كيانغ وهوانغ-فو بالصين ثقافة كبرى تميزت بالمكانة الخاصة التي كانت للكتابة والكتاب.

أ- بداية الكتابة

يعتقد أن الصينيين بدأوا منذ الألف الثالثة ق. م يتوجهون للكتابة.

وحسب رواية متأخرة فإن الصينيين كانوا يستخدمون أولا للكتابة نظام العقد، ثم لجأوا لاحقا إلى الكتابة التصويرية التي فقدت صلتها بالأشياء التي ترمز إليها بفضل التزيينات الأسلوبية التي لحقت بها مما جعلها تتحول في منتصف الألف الثانية ق. م إلى نظام أيديوغرافي.

ومع الزمن تم تبسيط هذا النظام وتنظيمه، ولكن حتى الآن لم يتغير هذا النظام الكتابي بشكل جوهري بعد ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة من استخدامه.

ب- مواد الكتابة وشكل الكتاب

قبل أن يكتشف الصينيون الورق كانوا يستخدمون للكتابة شرائط طويلة مصنوعة من أعواد البامبو، ثم درع السلحفاة والعظام وألواح الخشب والأحجار وأواني النحاس إلخ، بينما لجأوا أخيرا إلى استخدام الحرير أيضا. وقد كتبت النصوص الطويلة على شرائط البامبو وعلى الحرير بينما كتبت النصوص القصيرة (المعادلات السحرية المختلفة، أسماء الناس إلخ) على مواد أخرى.

وكان البامبو يقسم إلى شرائط طويلة بحيث كان يمكن أن يكتب عليها عموديا سطرا أو سطرين أو عدة سطور. وفي رأس الشريط كان هناك ثقب بحيث كان يمكن أن تجمع عدة شرائط معا. وهذا الشكل للكتاب كان يبدو أيضا عندما تتم الكتابة على مواد أخرى كألواح العظام والخشب. كانت ألواح الخشب أعرض من شرائط البامبو ولذلك كان يمكن أن تكتب بها سطور عمودية أكثر.

أما الحرير فقد كانت له ميزة كبيرة على الأنواع الأخرى المذكورة لأنه كان لينا ومناسبا للكتابة مما كان يجعله يشبه كثيرا ورق البردى في مصر. ولكن بالمقارنة مع ورق البردى كانت له نقيصة واحدة، إذ أنه كان غاليا جدا. كانت الكتب المصنوعة من هذه المواد، باستثناء الحرير، ثقيلة جدا وغير ملائمة للاستعمال.

ولذلك لا يوجد داع لنذكر المشاكل التي كان يخلقها الكتاب لأنفسهم ولغيرهم، أي للذين يرغبون بقراءة كتبهم. وهكذا نقرأ في أحد النصوص رأيا يقرر هذه الحقيقة بشكل ساخر: «إن هوى هو كان كاتبا ممتلئا بالأفكار، ولذلك كانت كتبه يمكن أن تملأ خمس عربات». ومن الطبيعي ألا يكون العمل سهلا في مراكز الوثائق التابعة للدولة، سواء للعاملين في هذه المراكز أو لأولئك الذين يحتاجون إلى الاطلاع على الوثائق المحفوظة في هذه المراكز.

ويبدو هذا بوضوح حين قرر الإمبراطور تشين شي-هوان أن يطلع على مضمون وثائق الدولة في هذه المراكز إذ كان يضطر يوميا إلى أن يطلع على وثائق تزن 55 كغ. وهكذا فالحاجة كانت أم الاختراع، وكانت المسألة مسألة وقت فقط إلى أن يكتشف أحدهم مادة مناسبة أكثر للكتابة.

جـ- بداية إنتاج ورق البردى

في القرن الخامس الميلادي سجل لنا مؤرخ البلاط فان يه كيف أن الخصي تساني لون اكتشف سنة 105 م طريقة لإنتاج الورق. وحسب رأي هذا المؤرخ فإن الصينيين حتى ذلك الحين كانوا يكتبون على شرائط البامبو أو على الحرير. وفي تلك السنة المذكورة رفع تساي لون تقريرا إلى الإمبراطور عن اكتشافه لإنتاج الورق «نظرا لأن الحرير كان غاليا وشرائط البمبو ثقيلة مما كان يجعلهما غير مناسبين للكتابة». وكما يضيف المؤرخ فانن يه فإن الورق منذ ذلك الحين أصبح يستعمل في كل مكان.

إلا أن المؤرخين اليوم لديهم ما يجعلهم يعتقدون أن اكتشاف الوسيلة لإنتاج الورق لا يرتبط بفرد واحد بل بسلسلة من الاكتشافات والإضافات للأفراد الذين سبقوا تساي لون. وعلى كل حال إن هذا الرأي يدعمه الآن اكتشاف قطعة من الورق تعتبر أقدم قطعة ورق معروفة حتى الآن، وهي تسبق التقرب الذي كتبه تساي لون سنة 105 م.

وبالإضافة إلى هذا هناك مؤشرات توحي بأنه قبل تساي لون كان يستعمل نوع من الورق المصنوع من الحرير الخام. وبهذا يعتقد أن أسلوب إنتاج الورق قد اكتشف قبل ذلك، إلا أن فضل تساي لون يكمن في اكتشاف طريقة أفضل وأرخص لإنتاج الورق على نطاق واسع.

وقد سجل لنا المؤرخ فان يه أن تساي لون قد استخدم لإنتاج الورق لحاء الشجر والحبال القديمة والخرق البالية وشبكات الصيد القديمة. وقد عمد تساي لون إلى طحن هذه المواد الأولية وإضافة الماء من حين لآخر حتى توفرت له عجينة، ثم فرش هذه العجينة على شكل شريحة رقيقة فوق مصفاة. وحين جف الماء أخذ شريحة الورق ودقها لكي تجف تماما. وبهذا الأسلوب توصل تساي لون إن طبق رقيق ومتين من الورق.

إن تحليل النماذج التي بقيت من الورق من ذلك الوقت يثبت أنه في ذلك الزمن كان الورق يصنع فقط من المواد الأولية المذكورة، أي دون استخدام الصمغ. وخشية من انتشار الحبر في موضع الكتابة كان يتم طلاء الورق بالجبس. وفيما بعد أصبح يضاف للخلطة الصمغ، وهو نوع من الهلام المصنوع من الأشنة أو النشاء. وبهذا الشكل كان يتم الحصول على ورق من نوع ممتاز وسعر رخيص، ولذلك لا نستغرب أن يكون الورق قد انتشر

بسرعة إلى حد أنه في زمن فان يه، في القرن الخامس الميلادي، كان يستعمل على نطاق واسع.

لقد بقي الورق حتى منتصف القرن الثاني الميلادي ينتج في الصين أو في المناطق المجاورة التي تخضع لتأثيرها الثقافي بشكل مباشر. وهكذا فقد وصل الورق أولا إلى كوريا، ثم عن طريق كوريا توصل اليابانيون إلى معرفة إنتاج الورق حوالي سنة 610 م. وحتى ذلك الوقت كانت تقنية إنتاج الورق في الصين قد وصلت إلى قمتها حتى أن العرب والأوربيون لم يحتاجوا إلى أن يضيفوا شيئا جوهريا إلى هذه التقنية.

د- إنتاج الكتاب

كان الصينيون في عصورهم الكلاسيكية يعمدون إلى الإكثار من الكتب عن طريق النسخ. ونظرا لتعقيد الكتابة الصينية فإن النسخ كان عملا مرهقا بالنسبة للنساخ الصينيين وذلك بالمقارنة مع عمل زملائهم في حوض المتوسط. ولذلك فليس من المستغرب أن النساخ الصينيين كانوا يرتكبون أخطاء كبيرة مما كانوا يتسببون في مشاكل مشابهة لتلك التي كان يتورط بهما النساخ في اليونان أو في روما.

ومن هنا فقد كانت طبقة رجال الدين القوية تهتم دائما بهذه المشاكل، وبالتحديد في كيفية الحفاظ على الشكل الأصلي للنصوص الدينية المقدسة سواء أكانت كونفوشية أم بوذية.

وهكذا فقد دفع الحذر من النساخ الصينيين لكي يخترعوا طريقة جديدة نسخ الكتاب، وهي التي ستؤدي لاحقا إلى اختراع الطباعة في بلادهم. فقد صرفت الجهود والأموال إلى أن استطاع الحكام الصينيون في ذلك الوقت تأمين نقش النصوص الدينية المقدسة على قوالب خشبية، ثم كانت تترك هذه في أماكن عامة حتى يمكن أخذ نسخ منها على الورق. وهكذا كان بإمكان كل من يريد أن يأخذ نسخة طبق الأصل عن النصوص المقدسة أن يفعل ذلك. وفي حوليات أسرة هان (من 202 قبل الميلاد إلى 220 بعد الميلاد) توصف هذه الطريقة بشكل حي كما يتم الحديث عن السبب الذي دفع الحكام الصينيين إلى نقش النصوص الدينية على قوالب خشبية. فهذه الحوليات تؤكد أولا الرأي القائل بأن أعمال الحكماء قد تعرضت إلى

تغييرات وتشوهات، ولذلك كان من الضروري أن تنقش تلك الأعمال بصورتها الأصلية على الحجر لكي يتم تفادى أخطاء النساخ. وفي سنة 175 م توجه تساي يونغ وبعض رفاقه المثقفين بعريضة إلى الإمبراطور الصيني تتضمن اقتراحا بأن تراجع أعمال الحكماء الستة على أصولها وأن تنقش على الحجر. وفي ذلك الحين وافق الإمبراطور على هذا الاقتراح وترك لتساي يونغ أن ينجز هذا العمل. وحول هذا تضيف الحوليات أن تساي يونغ نقش بيده النص الصحيح على الحجر مقابل بوابة الأكاديمية القومية. وقد أصبح الأساتذة والطلاب ينظرون حينئذ إلى هذا النص باعتباره الأصل الصحيح. وبعد أن تم إنجاز النقش جاء الكثير من الناس ليروه ويأخذوا نسخة منه حتى أنه أصبح يتجمع هناك في كل يوم آلاف العربات، حتى أصبحت كل دروب وشوارع المدينة ممتلئة بالعربات.

لقد وضعت هذه النقوش من ذلك الحين في عاصمة الإمبراطورية، في لو-يانغ. وقد اشتغل حينئذ لإنجاز هذه النقوش الكثير من العلماء. فقد كان يجب مراقبة النصوص المقترحة للنقش ومقارنتها ومطابقتها مع الأصل. وكان تساي كونغ نفسه، وهو الذي كان معروفا كأحد أشهر الخطاطين من عصره، يقوم بإنجاز النماذج ويعطيها بعد ذلك للآخرين كي ينقشوها على الحجر. وبفضل هذه النقوش وبعض المصادر الأخرى أصبحنا نعرف الآن أسماء 25 من أولئك العلماء الذين كانوا يعملون في هذا المشروع الكبير.

وقد انتهى العمل أخيرا في هذه النقوش في سنة 183 م، إلا أن معظم هذه النقوش تحطمت بعد عدة سنوات فقط (190 م) خلال تمرد حدث في المدينة. وهكذا لم يبق لنا إلى اليوم أي نقش كامل من ذلك الوقت، ولكن لدينا مئات القطع التي من بينها واحدة اكتشفت سنة (1932) وهي تتضمن «تعليق كانغ-يانغ».

وقد تابع الحكام الصينيون لاحقا، سواء في العصر القديم أو الوسيط نقش الأعمال الكلاسيكية من الحجر للأسباب ذاتها، وحتى نقش بعض الأعمال التاريخية المختلفة. وهكذا فقد نقشت على الحجر خلال سنوات 240- 248 بعض الأعمال التاريخية. وقد نقشت هذه الأعمال حينئذ على مبني الأكاديمية القومية بالذات بطول يصل إلى 70 مترا.

أما النصوص البوذية فقد أخذت تنقش على الحجر منذ القرن الخامس

الميلادي. وقد كانت الأسباب الدافعة لذلك هي نفسها التي قادت إلى نقش أعمال كونفوشيوس أي الحرص على النصوص الأصلية سواء من قلة انتباه النساخ أو من تآكل مواد الكتابة. وقد أوضح أحد موظفي الأسرة الشمالية تشين في تقرير له أفضلية نقش النصوص المقدسة على الحجر بالمقارنة مع المواد الأخرى: «إن الحرير يتآكل وأعواد البامبو ليست دائمة والحديد- كما يبدو-ليس خالدا بينما يتمزق الجلد والورق بسهولة».

وفيما يتعلق بنسخ هذه النقوش، أي بأخذ نسخة على الورق من النصوص المنقوشة على الحجر، فقد كانت الطريقة سهلة للغاية. فقد كان الحجر يطلى بالحبر باستثناء الحروف المنقوشة أو البارزة على الحجر، ثم توضع مادة الكتابة (الورق أو أية مادة أخرى) عليه ويضغط عليها بإحكام ثم تنزع بحيث يظهر اللون الأسود على كل مساحتها باستثناء الحروف البارزة، أي أن النسخة كانت تبدو بحروف فاتحه اللون على أرضية سوداء.

وبهذه الطريقة كانت تنسخ النصوص الدينية المهمة، أما بقية النصوص فقد بقيت تنسخ باليد إلى أن اكتشف الصينيون طريقة أخرى، أسرع وأرخص، ألا وهي طبع النصوص بالقوالب الخشبية.

س- أداة الكتابة

في الأوقات القديمة كان يستعمل للكتابة على الغالب القلم المصنوع من عود البامبو حين كان الأمر يتعلق بالكتابة على مادة لينة. وفي سنة 215 ق. م اكتشف الزعيم العسكري مينغ تين الـ «بي» وهي فرشاة مصنوعة من وبر الجمال كانت تناسب جدا الكتابة على الحرير، ثم على الورق لاحقا. وهكذا فقد ألغت هذه الفرشاة استخدام قام البابو أو القلم المعدني. وقد كان لهذا التحول تأثيره الكبير على شكل الحروف الصينية. فقد كانت هذه في السابق تتميز بخطوط رفيعة في الزوايا بينهما أصبحت الآن مع استخدام هذه الفرشاة مستديرة. وقد ساعد هذا التحول النساخ على أن يحولوا الخط الصيني إلى فن حقيقي. وهكذا فقد ازدهرت حينئذ مهارة الخط التي أصبحت شائعة، والتي أصبحت إحدى السمات المميزة للخط الصيني ولخطوط الشعوب الأخرى التي تعتمد الخط الصيني، بل إحدى السمات المميزة لثقافة الصين والشرق الأقصى بشكل عام.

ش- ملاحقة الكتب

ساهم تطور الأدب والعلم، ثم بروز وانتشار تعاليم كونفوشيوس في ظهور مؤلفات مختلفة لم تكن تتفق دائما مع الأفكار والآراء الدينية للأوساط الحاكمة. وفي الواقع أن موقف السلطات لم يكن يختلف كثيرا عن موقف السلطات الحاكمة في بلدان أخرى من أمثال هذه الكتب، ولكن ما يثير الاستغراب هو الصرامة التي كان ينهجها الحكام الصينيون في تصفية حساباتهم مع الكتب غير المرغوبة أو الخطرة بالنسبة لهم.

وهكذا فقط حفظ لنا التاريخ عدة حالات عن الرقابة وملاحقة الكتب وحرقها في الصين خلال العصر الكلاسيكي. ومن أشهر حالات حرق الكتب وملاحقة الكتاب ما حصل سنة 213 ق. م حين أخذ الإمبراطور تشين شي-هوانغ-تي بنصيحة المستشار الأكبر لي سوا وأمر بحرق كل الكتب بما في ذلك مؤلفات كونفوشيوس ولم يستثن من ذلك إلا المؤلفات التي تتعلق بالطب والصيدلة والزراعة والنصوص التي تتضمن إشارات نبوية مختلفة. وبهذا العمل أراد الإمبراطور حينئذ أن يحد من تأثير الكتب المضرة على المجتمع الجديد الذي أراد أن يخلقه، المجتمع الذي يجب أن يتخلص من عبء الماضي ومن تأثير الأفكار المريضة على حد تفكيره. وقد اندفعت حينئذ جماهير كثيرة لحرق عدد كبير من الكتب التي كان الصينيون قد كتبوها حتى ذلك الحين، وهذا يعتبر أحد الأسباب التي كانت وراء عدم تعرفنا اليوم على المؤلفات التي كتبت في العصور القديمة للتاريخ الصيني.

ومن ناحية أخرى فقد كان الإمبراطور تشين شي-هوانغ-تي قد أمر بهذه المناسبة بحرق 470 كاتبا خلال يوم واحد وذلك لأنهم تجرأوا أن يكتبوا ضد الإمبراطور.

إلا أن الإمبراطور أصدر أمرا آخرا ساهم في حفظ ذكره في التاريخ العالمي للكتاب. فقد أمر الإمبراطور بحفظ نسخة واحدة من كل كتاب يحرق في المكتبة الإمبراطورية. ومن الصعب هنا الاعتقاد أن الإمبراطور كان له هدف نبيل من هذا التصرف وذلك بحفظ الأعمال الأدبية وغيرها للأجيال القادمة، بل أن تصرفه يكاد يعبر عن العقلية البوليسية بحفظ هذه النسخ من الكتب كأدلة للإدانة.

وعلى كل حال فقد ساهم هذا «الدافع البوليسي»، كما يروى لنا التاريخ

اللاحق، على إنقاذ الكثير من الكتب من الضياع التام. ولكن من الصعب أن نعرف مدى مساهمة هذا في عمل الحكام الصينيين اللاحقين لإعادة بعث المؤلفات التي كتبت في السابق وذلك بسبب الحريق الذي التهم القصر الإمبراطوري سنة 206 م، أثناء القتال في شوارع العاصمة الإمبراطورية «هسين-يانغ»، والذي أنهى بدوره حكم أسرة تشين. وبعبارة أخرى لقد أتى هذا الحريق على الكتب التي سلمت من الحرق الجماعي التي نظمها أتباع الإمبراطور سابقا.

لقد أساء هؤلاء الأتباع كثيرا إلى الكلمة المكتوبة في الصين لأن تصرفهم جاء بعد الازدهار الكبير للفلسفة والأدب الصيني في الحقبة المسماة ب «حقبة الفلاسفة المائة»، التي تبدأ من 500 ق. م. وفي الواقع أن هذه الحقبة العظيمة للثقافة الصينية تبدأ مع نشاط كونفوشيوس (551- 479 ق. م) وتستمر في الحقل الديني مع تلميذه وناشر أفكاره مانس (371- 289 ق. م). ففي هذه الحقبة وضع الفلاسفة بآرائهم المختلفة أسس الفلسفة الصينية، وفي هذه الحقبة أيضا وضعت أهم المؤلفات في الرياضيات والطب وبقية العلوم بالإضافة إلى الأدب. وقد ساهم تسامح الحكام في ذلك الوقت إزاء كافة التيارات الفلسفية والدينية والأدبية إلخ في خلق مجال مناسب جدا لتطور إنتاج الكتاب أيضا.

وبعد سقوط أسرة تشين (207 ق. م) جاء حكام أسرة هان ليشجعوا على نسخ الكتب وانتشارها في الشعب. وهكذا فقد كان من الواجب إعادة بعث الكتب التي ضاعت من قبل الأسرة السابقة وذلك عن طريق نسخ المؤلفات التي حفظت أو عن طريق تسجيلها من أفواه الحافظين لها. وفي سبيل الوصول إلى هذا الهدف كان المبعوثون الخصوصيون يبحثون في المكتبات الخاصة وفي مكتبات المعابد عن الكتب النادرة. وحين يجدون كتابا جديدا كانوا يستعيرون هذا الكتاب لقاء تعويض مالي كبير ثم يقومون بنسخ الكتاب وإيداع نسخة منه في المكتبة الإمبراطورية المركزية. وقد تكثفت هذه الجهود بشكل خاص خلال حكم الإمبراطور فو (140- 87 ق. م) ووزيره كونغ-سن هونغ. وبفضل هذا الاهتمام تم العثور على كتب مفقودة ونسخت ثانية لتحفظ للأجيال القادمة.

إلا أن سقوط أسرة هان في القرن الثالث للميلاد كان بداية للاضطرابات

الطويلة وللحروب الداخلية ثم الحروب مع البرابرة الذين تغلغلوا من الشمال. ومن الطبيعي ألا تساعد هذه الأوقات الصعبة على تطور الكتاب والثقافة بشكل عام، إلا أنه في هذه الحقبة المظلمة والمؤلمة من التاريخ الصيني بدأت تتوطد ديانة جديدة (البوذية)، التي ستبعث ثانية تطور الفن والأدب وأخيرا إنتاج الكتاب خلال حكم أسرة تانغ اللاحقة.

2- الهند

ظهرت الكتابة في شبه القارة الهندية في وقت مبكر. ففي الألف الثالثة ق. م تطورت الكتابة الهندية القديمة في المدن الكبرى ك موهينو دارو وهارابا إلخ في وادي نهر الهند.

وقد كانت هذه الكتابة تتألف من 250 إشارة مختلفة تكتب بها النصوص المختلفة على الحجر والخزف وألواح النحاس، إلا أن العلماء لم يتمكنوا حتى الآن من قراءة هذه النصوص.

وفي الواقع أن أقدم هذه النصوص بهذه الكتابة ترجع إلى النصف الثاني للألف الثالثة ق. م، واستمرت هذه الكتابة عدة قرون. وكما برزت هذه الكتابة الغامضة بشكل مفاجئ فقد اختفت بشكل مفاجئ دون أن تترك أي أثر على الكتابات اللاحقة في الهند.

أما أقدم الآثار التي وصلتنا بالحروف الهندية المعروفة فترجع إلى الألف الثالثة ق. م وهي المراسيم المشهورة التي أمر الملك آشوي (272- 236 ق. م) بنقشها على الحجر. ومع هذا فمن المعروف أن هذه الحروف قد استخدمت في وقت أقدم، وربما في القرن 8 قبل الميلاد. وفي الواقع لدينا في هذه النقوش في عهد الملك آشوي نوعان من الكتابة يشتهر الأول باسم خاروشيش والثاني باسم إبراهيمي. ومن هذا الأخير تطورت فيما بعد أنواع أخرى من الكتابة استخدمت لاحقا في عدة ولايات هندية.

ومن المثير أن الكلمة المكتوبة في الهند لم تكن تتمتع بذلك القدر من الاعتبار سواء حين كان يستعمل هذان النوعان من الكتابة، أو حتى حين ظهرت لاحقا أنواع أخرى من الكتابة. فبالمقارنة مع الكثير من حضارات العالم القديم، في أوربا وآسيا وأفريقيا الشمالية، نجد أن الطريقة الرئيسية لانتقال النصوص الدينية والأدبية والعلمية من جيل إلى آخر هي المشافهة.

وهكذا عن طريق المشافهة انتقلت إلينا الملاحم البطولية الضخمة مهابهاراتا وراماياناً والفيدات والأعمال الأخرى المشهورة للأدب والفلسفة الهندية القديمة، ثم المؤلفات التاريخية والبيوغرافية والكتب المقدسة لكثير من الديانات الهندية.. وهكذا فإن الخط البوذي تريبيتاكا قد دون لأول مرة في نهاية العصر القديم في سري لانكا، بينما دون الخط المقدس الآخر للطائفة الجائينية المعروف باسم سيدذانتا في القرن الخامس الميلادي فقط، مع أن هذه الطائفة كانت قد برزت قبل أكثر من ألف سنة. ويبدو أن السبب الرئيسي في عدم الاهتمام بتدوين النصوص المقدسة وغيرها يكمن في تركيب المجتمع الهندي، حيث أن الطبقة الفوقية (البراهمانا) كانت تعتبر من حقها فقط أن تعرف النصوص المقدسة وأن تتعرف على الإنجازات العلمية والفنية إلخ. وهكذا فقد كان أفراد هذه الطبقة يتجنبون أن يدونوا معارفهم خشية أن تنتشر في الطبقات الاجتماعية الأدنى. ولم يتغير الأمر إلا مع ظهور البوذية في القرن السادس ق. م التي صاحبتها فكرة الديمقراطية المتواضعة، أي نشر المعرفة التي تهدف إلى تجذير الدين في وسط الشعب. وهكذا لم يصل إلينا من العصر القديم إلا أقل القليل مما كان يكتب في الهند. وفي الواقع أن هذا يجب ألا يثير استغرابنا لأنه، بالإضافة إلى الأسباب السابقة، يرتبط أيضا بمواد الكتابة. فقد كان الهنود يستخدمون حينئذ لحاء أشجار النخيل، خاصة في جنوب شبة القارة الهندية، الذي لم يكن يصمد في وجه الزمن. أما شمال الهند فقد كانت تستخدم هناك للكتابة القشرة الرقيقة البيضاء لشجرة البتولا، إلا أن الكتب المدونة على هذا النوع أيضا لم تصمد طويلا في وجه الزمن. وعلى الرغم من أنه لا يعرف بالضبط متى بدأت الكتابة في الهند على هذين النوعين من مواد الكتابة إلا أنه لدينا مؤشرات توحي بأن بداية الكتابة على هذين النوعين ترجع إلى عدة قرون قبل الميلاد. وعلى كل حال فإن اكتشاف هذه المواد يعود إلى عصر متأخر. إن أقدم نص مكتوب على لحاء النخيل يعود إلى القرن الرابع الميلادي لم يعثر عليه في الهند، حيث كانت الظروف المناخية لا تناسب هذا النوع، بل عثر عليه في آسيا الوسطى. أما فيما يتعلق بقشور البتولا فإن أقدم القطع تعود إلى وقت أسبق، بينما تعود معظم النماذج إلى القرن الثاني عشر الميلادي وبعده.!

إننا لا نعرف الكثير أيضا عن المكتبات في الهند القديمة. ففي المصادر المدونة تذكر مجموعات من الكتب في المعابد العائدة لديانات مختلفة ثم في قصور الحكام، إلا أن كل هذه كانت عبارة عن مكتبات متواضعة سواء من حيث عدد الكتب فيها أو من حيث مواضيع هذه الكتب. وعلى كل حال لقد كان تأثير هذه المكتبات محدودا جدا سواء على تطوير المعرفة والأدب أو على المجتمع بشكل عام.

المراجع

حول الكتابة في الصين القديمة انظر:

P.Boodberg, Some Proleptical Remarks on the Evolution of Archaic Chinese, Harvard Journal of. Asiatic Studies, 2 (1937), P329-372:

A.von Rosthorn, Zur Geschichte der chinesischen schrift, Wiener Zeitschrift fur die Kunde des Morganlandes, 48 (1941), p121-142:

وحول انتاج ومصير الكتاب انظر:

E.Chavannes, Les livres chinois avant l invention du papier, Journal asiatique, ser. X, vol.5 (1905), p.1-75.

ولدينا معالجة مفضلة وجامعة لهذا الموضوع لدى:

Tsuen-Hsuin Tsien, Written on Bamboo and Silk, the Beginning of Chinese Books Inscription, The University of Chicago Press, Chicago 1962;

ومن الدراسات الكثيرة حول انتاج الورق في الصين يكفي ان نذكر بعضها:

A.Blum, On the Origin of Paper, New York,1934.

B.Laufer, Paper and Printing in China, Chicago,1931.

A.Blanchet, Essai sur l histoire du papier, Paris,1900.

3 العالم اليوناني - الروماني

١ - التطور التاريخي

أ- الكتابة والكتاب في الحضارة الكريتية الميسينية.

أسهمت الثقافة المينوياسية المتطورة في كريت ثم الثقافة الميسينية في اليونان في تطوير الكثير من عوامل الحضارة المدنية وبهذا تعتبران بداية الروح الأوربية في الفن والأدب والثقافة بشكل عام. وهكذا فإن هاتين الثقافتين تأتيان في الطليعة من حيث استخدام الكتابة في أوربا.

لقد ظهرت الكتابة في كريت في بداية الألف الثانية قبل الميلاد، وذلك في شكلها التصويري أولا. وفي فترة لاحقة ظهرت للوجود الكتابة الخطية الأولى (A)، ثم ظهرت الكتابة الخطية الثانية (B) في زمن ازدهار الحضارة الميسينية في النصف الثاني للألف الثانية في كريت ثم في اليونان. وبهذا النوع من الكتابة، وهو الوحيد الذي تمكن العلماء من حل رموزه، ودونت الكثير من الملاحظات على الرقم الطينية، تلك التي اكتشفت في ميسينيا وبيلوس (مدينة نسطور الأسطوري التي يذكرها هومير) وكنوسوس في كريت وغيرها. وفي هذه الأماكن اكتشفت آلاف الرقم الطينية التي تحتوي

نصوصها على معطيات اقتصادية فقط. وهكذا فقد دونت في هذه الرقم سجلات العمال الذين كانوا يعملون في القصر الملكي، وسجلات أنواع الحيوانات التي كان على الرعاة أن يسلموها للحاكم أو لزعيم القرية، ثم سجلات المنتوجات الزراعية التي يجب أن توهب للآلهة الخ. وهكذا لا نجد في هذه الرقم ما يشير إلى وجود نصوص أدبية أو تاريخية أو ما شابه ذلك.

وقد قاد التحليل الدقيق لهذه الرقم إلى اكتشاف مفارقة غريبة. فسجلات الحيوانات والمنسوجات الزراعية تعود كلها إلى سنة واحدة مما دفع العلماء إلى الاستنتاج بأن هذا النوع من التسجيل كان يتم كل سنة بحيث كانت السجلات القديمة تتلف بعد أن تفقد راهنيتها بالنسبة للسلطة. وبعبارة أخرى لا نجد في هذه المدن مراكز لحفظ الوثائق كما في مدن الشرق الأوسط.

وبالاستناد إلى هذه الحقيقة يمكن أن نستنتج أن الكتابة في الحضارة الكريتية-الميسينية كانت تستخدم فقط تلبية لحاجات السلطة. وربما تثير هذه الحقيقة الاستغراب لأن شيئا مثل هذا لا نجده في مصر أو في بلاد الرافدين وحتى في أقدم حضارة في تلك المنطقة-الحضارة السومرية. ففي هذه الحضارات، كما مر معنا، كانت الكتابة تستخدم في الدرجة الأولى للأغراض العملية، إلا أنها كانت تستخدم أيضا منذ أقدم العصور في تدوين القصص والنصوص الفلكية إلخ. وربما يكون الكريتيون الميسينيون وغيرهم في اليونان قد دونوا بعض النصوص الأدبية والعلمية على مادة أخرى للكتابة، على الرق مثلا، لم تستطع أن تصمد في وجه الزمن. ولكن لا يوجد بين أيدينا الآن ما يؤيد هذا الافتراض. ويبدو أن التحليل الأقرب إلى الصحة هو أنه في هذه الحضارات اليونانية القديمة، كما في تلك اللاحقة في العصر الكلاسيكي كانت المشافهة تعتبر أفضل طريق لنقل النصوص الأدبية والتاريخية من جيل إلى جيل.

وهكذا مثلا لا نجد في العالم الذي تصفه لنا ملاحم هومير، وهو بالضبط العالم الميسيني الذي أبدعت في عصره بعض هذه الملاحم، لا نجد ما يشير إلى تقليد تدوين النصوص الأدبية والتاريخية. ولذلك لا يجب أن نستغرب لعدم عثورنا في هذه الرقم الطينية على أي نص أدبي أو

تاريخي، بل على أية رسالة أو وصية.

إن المعطيات القليلة التي دونت في هذه الرقم لها بالطبع أهمية كبيرة في إعادة تصور العلاقات الاجتماعية والبنية الاقتصادية والكثير من جوانب الحياة اليومية. ولكن مع ذلك لا نجد جوابا واضحا من هذه الرقم على الكثير من الأسئلة التي تهمنا. وهكذا فنحن لا نعرف شيئا عن الكتبة، وعن المدارس التي كان يتعلم فيها الطلاب القراءة والكتابة، وعن الوضع الاجتماعي للمعلمين والكتبة، وعن إمكانية وجود مراكز رسمية للوثائق كما في الشرق الأوسط إلخ. إننا نعرف فقط الوسيلة التي كانت تحفظ بها هذه الرقم. فقد كانت هذه الرقم تحفظ في قوالب من الخشب أو الجبس، بينما كانت الكبيرة توضع في سلات، وعندما كانت تمتلئ هذه بالرقم كان يوضع فوقها سجل طيني يدون الرقم المحفوظة هناك.

وحسب كل الاحتمالات فإن عدد أولئك الذين كانوا يعرفون الكتابة كان محدودا جدا في إطار وسط ضيق من الموظفين والكتبة العاملين لدى الدولة، إذ أنه من الواضح أن الكتابة كانت تمارس فقط لأغراض بيروقراطية-إدارية. وربما هنا يكمن السبب في عدم استمرارية هذه الكتابة بعد انهيار الجهاز الإداري مع نهاية الحضارة الكريتية-الميسينية.

لقد بذل العلماء محاولات مضنية لفك ألغاز هذه الكتابة ولكن دون جدوى. وهكذا بقيت هذه لغزا من الألغاز إلى سنة 1952 حيث تمكن مهندس معماري شاب، ألا وهو ميشيل فنتريستي: من اكتشاف المفتاح الذي يساعد على قراءة هذه الكتابة التي كانت تستعمل منذ نهاية القرن 15 حتى القرن 12 ق. م في مدينة كنوسوس في كريت وفي المراكز الميسينية الأخرى من اليونان. وقد ساعد هذا المفتاح على تغيير معلوماتنا من الأساس حول التاريخ اليوناني القديم، إذ تم التأكد من أن النصوص المدونة في هذه الرقم إنما هي تمثل لهجة يونانية قديمة ولذلك فإن أصحاب النصوص كانوا ينتمون إلى الاثنوس اليوناني وليس إلى أي شعب آخر سابق كما كان يعتقد سابقا. وهكذا بفضل هذا الاكتشاف أصبحت بداية الكتابة والكتاب عند اليونانيين أقدم بعدة قرون مما كنا نعتقد سابقا.

ب- اليونانيون الايونيون في آسيا الصغرى

لا يوجد هناك استمرارية بين الكتابة الكريتية-الميسينية وبين الكتابة

اليونانية اللاحقة. فاليونانيون لم يرثوا حروفهم الجديدة من أسلافهم الكريتيين-الميسينيين بل من شعب آخر، من الفينيقيين. ولكن حتى الآن لا نعرف بالضبط متى أخذ اليونانيون حروفهم من الفينيقيين، لأننا نفتقد أية أدلة أثرية أو أية أدلة في اللغة اليونانية من العصور القديمة. إلا أنه يبدو أن هذا قد حصل في القرن التاسع أو العاشر ق. م. وكان هيرودوت قد سجل في تاريخه في القرن الخامس الرواية القائلة بأن قدموس الفينيقي هو الذي جلب الحروف الجديدة إلى اليونانيين. ومع أنه يقال بأن المؤشرات اللغوية تقود إلى أن عهد الأبجدية اليونانية كان في كريت إلا أن غالبية العلماء يعتقدون بأن اليونانيين في آسيا الصغرى هم الذين تعرفوا أولا على الأبجدية السامية بواسطة التجار الفينيقيين الذين كانوا كثيرا ما يزورون بسفنهم موانئ الشاطئ الغربي لآسيا الصغرى.

إلا أن الأمر لا يتعلق بالأبجدية فقط بل بالكثير من المزايا الثقافية الأخرى التي كانت تنتقل من الشرق إلى اليونان. فقد كان لليونانيين الايونيين مدنهم الغنية على الشاطئ العربي لآسيا الصغرى، حيث كانوا يتصلون هناك بالإنجازات المتقدمة لحضارات الشرق الأوسط. وهكذا فقد أخذ اليونانيون من الشعوب المختلفة التي كانت تعيش في الشرق المتوسط التي أقامت ثقافاتها تحت تأثير كبير لحضارات الهلال الخصيب، الإنجازات العلمية والأصول الميثولوجية وفن التصوير الميثولوجي بالإضافة إلى سلسلة كاملة من العناصر الثقافية التي أدرجوها في ثقافتهم.

وفي هذه المدن الايونية تطور إنتاج الكتاب وأسست هناك المكتبات على نمط المكتبات في الشرق الأوسط. إلا أن إنتاج الكتاب في ذلك الوقت كان لا يزال محدودا. ويعتقد هنا أن المؤرخين والجغرافيين والفلاسفة أخذوا منذ القرن السابع ق. م يكتبون المؤلفات في تلك المدن لإطلاع معاصريهم من ناحية على هذه المؤلفات ولحفظ هذه المؤلفات للأجيال القادمة. ولكن في ذلك الوقت لم يكن هناك بعد انتشار واسع للكتاب، بل إن الكتاب لم يكن يؤلف ليباع. فالمؤلف كان يحرص بنفسه على أن يصل كتابه إلى أيدي أصدقائه والقراء المهتمين. ويبدو من ذلك الحين أن الكلمة المكتوبة كانت تعتبر الناقلة والحافظة للمعرفة ولذلك نجد أن الكاتب هيراقليط قد وضع مؤلفه «حول الطبيعة» في المعبد لكي يحفظه للأجيال القادمة. وبالفعل

فإن أرسطو قد جاء بعد مائة وخمسين سنة، كما يخبرنا ديوجين، ليقرأ هذا الأثر.

ولكن مع ذلك ما زلنا لا نعرف الكثير عن الكتب والمكتبات لدى اليونانيين الايونيين. ويعتقد هذا بحق أنه في القرنين 7- 6 ق. كانت هناك مكتبة رسمية في ميليت بالتحديد مكتبة أو مركز للوثائق على ذلك النمط الشائع في الشرق الأوسط. وبفضل الكتب التي كانت موجودة في هذه المكتبة، سواء في اللغة اليونانية أو في لغات بقية الشعوب المتحضرة في ذلك الوقت، كان من الممكن للعلماء والفلاسفة في ذلك الوقت أن يمارسوا نشاطهم كالرياضي والفلكي المعروف تاليس والفيلسوف آنا كسيمين والفيلسوف والجغرافي أناكسيماندر والجغرافي هاكاتاي وغيرهم الكثير. إلا أن هذه المكتبة في مدينة ميليت، التي كانت أشهر مدينة أيونية، قد دمرت من قبل الفرس سنة 494 ق. م بالإضافة إلى مجموعات الكتب الأخرى في المدينة. وعلى كل حال لقد قامت هذه المكتبة دون شك بدور الجسر الذي انتقلت عليه معارف الشرق الأوسط إلى العالم اليوناني.

وبالاستناد إلى ما نعرفه عن المكتبات اليونانية اللاحقة في العصر الهلنستي يمكن القول أن تلك المكتبات قد أخذت وطبقت كل الإنجازات التي كان علم المكتبات قد توصل إليه خلال ألف سنة في بلاد الرافدين. وهكذا إن مقارنة المعطيات التي نعرفها عن تنظيم مكتبة آشور بانيبال في نينوى (طريقة كتابة عناوين الكتب، تحديد مصدر المحفوظة، تنظيم فهارس للمواد الموجودة في المكتبة، تنظيم المواد حسب الفروع العلمية إلخ) ومع مكتبة الإسكندرية يكشف لنا عن تشابه كبير إلى حد أنه يرى بوضوح هذا الارتباط بين علم المكتبات اليوناني وعلم المكتبات الآشوري-البابلي، كما يبدو من الواضح أن اليونانيين الأيونيين في آسيا الصغرى هم الذين نقلوا إنجازات هذا العلم إلى العالم اليوناني.

جـ-الكتاب في اليونان الكلاسيكية

ساهم تدمير الفرس لمدينة ميليت والمدن الأخرى لليونانيين الأيونين، وتطور أثينا كأكبر قوة سياسية واقتصادية للعالم الهلنستي، في انتقال مركز الحياة الثقافية من آسيا الصغرى إلى أثينا. ففي هذه المدينة أخذ يتجمع منذ القرن السادس ق. م وخاصة منذ عصر بيركليه ومن بعده،

الفنانون والأدباء والفلاسفة الكبار من كل أنحاء العالم اليوناني ليؤلفوا هناك تلك المؤلفات الخالدة.

وفي ذلك الحين تحولت أثينا إلى مركز لثقافة الكتاب، بينما أصبحت الكتابة شائعة بين المواطنين إلى حد أن القرارات المهمة والوثائق الرسمية كانت تنقش على الحجر أو تعتب على ورق البردي أو الرق وتعلق في الأماكن العامة. ويدل هذا التقليد بطبيعة إلى أن عدد أولئك الذين كانوا يعرفون القراءة كان كبيرا إلى ذلك الحد الذي أصبح فيه ممكنا التواصل بين سلطات الدولة والمواطنين عن طريق الكتابة.

وعلى عكس ما قد يتوقع المرء فإن إنتاج الكتاب في أثينا لم يكن كبيرا في عصر أكبر ازدهار ثقافي للمدينة. وهكذا فإن انتشار الكتابة والقراءة وتطور الحياة الثقافية في أثينا، وإلى حد ما في بقية المدن اليونانية، لم يكن كافيا للانتقال من التواصل من طريق المشافهة إلى التواصل عن طريق الكتابة، وبالتحديد في تعزيز مكانة الكتاب في المجتمع كأسلوب لنقل المعارف. فكل ما نعرفه من أخبار الكتاب اليونانيين في ذلك العصر، وهي ليست كافية أيضا، يدل على أن «الحضارة الحقيقية للكتاب» في العالم اليوناني بدأت فقط في القرن الثالث ق. م أي في عصر الهيلينية فحتى ذلك الحين كانت الأعمال الأدبية وحتى تلك العامية والفلسفية تنتقل في غالب الأحيان من جيل إلى جيل عن طريق المشافهة. والمغنون الشعبيون كانوا يتناقلون جيلا بعد جيل عن طريق المشافهة الأغاني الملحمية والقصص الميثيولوجية والروايات التاريخية، ويتنقلون من مكان إلى آخر حيث كانوا يفضلون على الغالب الإقامة قرب الحكام كمغنين للبلاط. وفي ذلك العصر كانت شائعة ملحمتا هومير «الإلياذة» و«الأوديسة»، التي كان هؤلاء المغنون ينشدونها بروايات مختلفة حيث كانوا كثيرا ما يضيفون إليها الأبيات من عندهم. وهكذا بقي الأمر إلى القرن 4 ق. م حين أمر حاكم أثينا المستبد بيزسترات بتدوين هاتين الملحمتين. ولم يكن الهدف من هذا الأمر-توسيع دائرة القراء لهاتين الملحمتين بل للحفاظ على النص الأصلي لكي ينشد في الاحتفالات العامة في أثينا. وبعبارة أخرى فقد بقيت غالبية الناس تتطلع إلى هاتين الملحمتين من طريق السماع وليس عن طريق القراءة.

وفي الواقع لقد كان هذا مصير النصوص الشعرية والمسرحية، بل حتى

الكتابات التاريخية كتواريخ هيرودوت مثلا. وهكذا فنحن نعرف الآن أن هيرودوت كان يقرأ كتابه على المستمعين المجتمعين في الأولمب. وبالطبع فإن هيرودوت قد كتب مؤلفه أولا ثم قرأه لاحقا على المستمعين، وكذلك كان يفعل الكتاب الآخرون في عصره إذ أنه كان من الطبيعي جدا أن يجتمع الناس المهتمين للاستماع إلى كتاب ما عوضا عن أن يقرأوه في المكتبات. وحتى أفلاطون نفسه (427-347 ق. م) كان يعطي الأفضلية للسماع أكثر من القراءة، مع أنه كان قد كتب الكثير، وكان على هذه الشاكلة أيضا الكثير من كتاب عصره الذين كانوا يتحدثون بازدراء عن أولئك الذين يقرأون كثيرا.

وعلى الرغم من كل هذا فإن صيرورة الانتقال التدريجي في المجتمع اليوناني من التواصل بالمشافهة إلى التواصل بالقراءة لم تتوقف أبدا. وهكذا فخلال القرن الخامس ق. م وخاصة خلال القرن الرابع ق. م أصبح الكتاب وسيلة أساسية لنقل المعارف. فخليفة هيرودوت في حقل التاريخ، المؤرخ توكيديد (460- 496 ق. م)، كتب مؤرخه المعروف حول حرب البيلوبينز لكي يسمع وسيعمد إلى هذا التقليد مزيد من الكتاب لاحقا وخاصة كتاب النثر. وهكذا سيؤدي التعاظم التدريجي لدور الكتاب في أثينا، في النصف الثاني للقرن الخامس، إلى ظهور النساخ المحترفين وباعة الكتب وتأسيس المكتبات الأولى.

وفي الواقع لا يمكن الحديث عن نشاط واسع للنساخ في أثينا، وفي اليونان بشكل عام، إلى العصر الهلنستي. وحتى ذلك الحين كان المؤلفون غالبا ينسخون مؤلفاتهم، أو يعهدون بذلك إلى عبيدهم، بينما غالبا كان يلجأ إلى التوصية لنسخ كتاب ما ذلك الذي يريد الاحتفاظ بنسخة منه في مكتبته الخاصة. وسيتحول هذا التقليد إلى سمة لكل العصر القديم، خاصة في الحالات التي يفتقد فيها سوق الكتب ما يطلبه الزبائن.

وهكذا نجد النساخ المحترفين في أثينا لأول مرة في عهد بيريكله. وفي ذلك العصر أيضا يرد ذكر بائعي الكتب لأول مرة حيث كانوا يملكون دكاكينهم في أكثر الأماكن حركة في المدينة، أي في الأغورا. ومع أننا لا نعرف الكثير عن هؤلاء النساخ وأولئك البائعين، إلا أن بعض المعطيات التي خلفها لنا كتاب ذلك العصر تسمح لنا بإعادة تصور تلك الدكاكين المقامة على عجل وتقييم أهميتها بالنسبة لنشر المعارف الأدبية والعلمية. وهكذا فإن أرستوفان

في كوميديته «العصافير» التي كتبها سنة 414 ق. م يذكر أن أهالي أثينا يخرجون عادة بعد الفطور إلى دكاكين الكتب للاطلاع على الكتب الجديدة ومناقشة ما فيها. وحسب ما يذكره الكتاب الآخرون فإن زبائن هذه الدكاكين كانوا من المثقفين وأنه كانت تنشد الأشعار بها أو بالقرب منها للفت انتباه المارة. وعادة كان يأتي إلى هذه الأمكنة من يمتلك الرغبة والقدرة على شراء كتاب، ومن يمتلك الرغبة فقط للاطلاع على ما ينتجه الشعراء من جديد وللاشتراك في الأحاديث التي كانت تدور هناك. ولدينا هنا نادرة متأخرة سجلها ديوجين تفيد أن زينون الكيتوني (حوالي 350- 264 ق. م) قد قرر أن يلتفت إلى الفلسفة بعد أن شارك أحد باعة الكتب في أثينا في قراءة نص لكينوفون.

في نهاية القرن الخامس ق. م أصبحت أثينا أهم مركز للكتاب في العالم اليوناني، إلا أن إنتاج الكتاب بقي أقل مما يمكن أن يتوقع المرء إذا أخذنا بعين الاعتبار أهمية هذه المدينة في ذلك الوقت. وبالإضافة إلى هذا فإن شبكة توزيع الكتاب لم تكن عملية إذ أن الكتاب كان يصل بصعوبة إلى المراكز الثقافية الأخرى. فالمؤلف كان هنا مسؤولا عن توزيع الكتاب كما كان مسؤولا عن نسخه، وبالتحديد كان المؤلف هو الذي يهتم بإرسال كتابه إلى أصدقائه. وتفيد المعطيات التي لدينا بأن كثيرا من الكتب قد وصلت إلى المدن الأخرى بعد أن قام أصحابها بزيارة أثينا، وشراء تلك الكتب هناك. فقد كثرت المصاعب التي كانت تعيق انتشار الكتاب بسرعة حتى أن خطيب أثينا المعروف أزوكرات (436- 338 ق. م) عبر عن أسفه في إحدى رسائله لأن قلة قليلة من سكان اسبارطة تملك خطبه. فقد كان على المهتمين فعلا بامتلاك كتاب ما أن يمتلكوا القدرة على ذلك وأن يقلدوا ما فعل الملك المقدوني أنتيغون غونات (ق 3 ق. م). فقد كان هذا الملك مهتما بالتعرف على تعاليم الفيلسوف الرواقي زينون، ولذلك فقد أرسل مبعوثين له إلى أثينا لكي يدونوا محاضراته ويرسلوها إليه في مقدونيا.

د- الكتاب في العصر الهلنستي

في نهاية القرن 4 ق. م وبداية القرن 3 ق. م ازداد باستمرار عدد الكتب المتداولة. فقد أخذ باعة الكتب الجوالون بعرض بضاعتهم التي كان يشتريها الأفراد الأغنياء ثم أخذت تشتريها بسرعة بعد ذلك المكتبات العامة.

وهكذا فقد تحولت رودرس وأنطاكية وبرغام وخاصة الإسكندرية إلى مراكز هامة لإنتاج الكتاب والاتجار به. وفي هذه المدن تطورت بسرعة المكتبات العامة الكبرى التي ستصبح أكبر زبون لشراء الكتب، وهكذا فقد شجعت على تطوير غير متوقع لإنتاج الكتاب.

ومن ناحية أخرى فان هذا الإنتاج المتزايد للكتاب سيساعد بدوره على التطور السريع لهذه المكتبات. وبالإضافة إلى هذه الصلة المتبادلة والمثمرة بين إنتاج الكتب وشبكة توزيع الكتاب، وهذا العدد الكبير للمكتبات العامة والخاصة، لا بد أن نضيف عاملا مهما كان له دوره في تشجيع إنتاج الكتاب في العالم اليوناني: بروز مراكز ثقافية قوية في كل أنحاء العالم اليوناني في عصر الإسكندر المقدوني وخلفائه. ففي ذلك العصر لم يعد كافيا للمرء أن يعيش في أثينا وأن يعرف كل ما هو مهم في المجال الأدبي أو العلمي كما كان الأمر في السابق. وبالتحديد فإن تعددية المراكز الثقافية اليونانية، الذي صاحب اتساع العالم الهلنستي بعد فتوحات الإسكندر المقدوني، قد أثمرت بشكل حاسم في تعزيز دور الكلمة المكتوبة كوسيلة ناقلة للمعارف العلمية وغيرها.

وقد كان من نتائج الانتقال النهائي إلى التواصل عن طريق الكتابة، عوضا عن التواصل عن طريق المشافهة، في العصر الهلنستي الاهتمام بالنصوص الأصلية الصحيحة للمؤلفات الأدبية وغيرها.

وهكذا سيجتمع الفلاسفة في أكاديمية ومكتبة الإسكندرية ويقارنون مختلف النسخ المجموعة من أبعاد العالم اليوناني لمؤلف ما لكي يعتمدوا نسخة واحدة تكون مصدرا للنسخ لفترة طويلة. وفي الواقع أن هذا العمل هو إحدى نتائج ذلك التحول من الانتقال الشفوي للنصوص الأدبية وغيرها، حيث كان كل فرد يضيف شيئا إلى النص الأصلي أو يحذف منه شيئا كما يريد، إلى عصر ثقافة الكتاب حيث أصبح الاحترام الصارم للنص الأصلي أحد سماته الأساسية.

هـ- الكتاب عند الاتروسكيين

أخذ الاتروسكيون، وهم الشعب الغامض الذي أنشأ في القسم الغربي من إيطاليا واحدة من أهم الحضارات في حوض البحر الأبيض المتوسط من القرن 8 إلى القرن 3 ق. م، أبجديتهم من اليونانيين ليكتبوا بها منذ

القرن 7 ق. م كتبهم ونقوشهم على اللوحات التذكارية فوق القبور وعلى الأواني.

وفي الواقع أننا لا نعرف الكثير عن كتب الأتروسكيين لأن «الفضل» في هذا يعود للرومانيين الذين حرصوا على تدمير المدن الأتروسكية بعد الاستيلاء عليها. ولكن بالاستناد إلى المعطيات التاريخية القليلة ومقاطع بعض كتبهم التي حفظت في مؤلفات الأدباء الرومانيين، بالإضافة إلى المعطيات الأثرية، يتضح لنا أن إنتاج الكتاب كان متطورا نسبيا لدى الأتروسكيين. ومعظم هذه الكتب هي ذات طابع ديني وسحري وأصبحنا نعرف منها على الأقل ثلاثة أنواع:

- كتاب الشعائر (كما كان يسميه الرومانيون) كان يضم الأسس المختلفة للنشاط الشعائري بمناسبة تأسيس المدن وتكريم المعابد وغيرها من المناسبات المشابهة في الحياة اليومية.

- كتاب البرق، وهو يضم تفسير مغزى الصاعقة والبرق.

- كتاب العرافة، كان يساعد رجال الدين الأتروسكيين على التنبؤ بالأمور بالاستناد إلى مراقبة الأعضاء الداخلية وخاصة كبد الحيوانات التي تقدم للتضحية.

وكما يبدو فإن كل هذه الكتب كانت تتصل بذلك العالم المعقد من الاعتقادات والخرافات والتنبؤات التي اشتهر بها الأتروسكيون في روما خلال العهد الجمهوري. ولكن لم يصل إلينا أي شيء يثبت ما ذكره الكتاب الرومانيون من أن الاتروسكيين كانت لهم أيضا كتب غير مقدسة.

ومع هذا لا يمكن للمرء أن يتجاهل ما ورد لدى بعض الكتاب الرومانيين، ومن بينهم تيت ليفي، عن المؤلفات الاتروسكية الأدبية التاريخية التي كانت لديهم والتي استفادوا منها. وهكذا يخبرنا فارون مثلا أن الكاتب الاتروسكي فولنيوس قد ألف عدة مسرحيات بينما يذكر الإمبراطور كلود، الذي كان يعرف جيدا تاريخ الأتروسكيين، «الكتاب الأتروسكيين» كمؤلفين لبعض الكتب التاريخية التي استفاد منها لكتابة مؤلفاته.

إن ظهور الكتاب على الأواني وعلى جدران القبور يثبت أن شكل الكتاب لدى الأتروسكيين لم يكن يختلف كثيرا عن شكله لدى اليونانيين أو لدى الشعوب الأخرى في حوض البحر الأبيض المتوسط.

فقد كان الكتاب غالبا يأخذ شكل اللفافة أو الدبتك(*) وقد كانت هذه الكتب توجد دائما بيد الموتى أو بيد الشياطين التي تعيش تحت الأرض أو بيد المخلوقات الجبارة وبهذا يتضح أنه كان لها مغزى رمزيا. وفي الواقع أن ظهور الكتاب بهذا الشكل يرتبط بالاعتقاد الشائع، الذي انتشر في روما لاحقا، إنه في جوف الأرض يوجد أرشيف ضخم يضم الكتابات التي تتعلق بمصائر كل الناس على سطح الأرض.

ويذكر لنا الكتاب الرومانيون أن الأتروسكيين كانوا يكتبون مؤلفاتهم على البز. ولكن حتى اليوم لا نعرف في العالم إلا نسخة واضحة من كتاب مكتوب على البز، إلا أن هذا لم يأتينا من اتروريا بل من مصر البعيدة. وهذا الكتاب، الذي يصل طوله إلى 75, 13 م، يرجع إلى القرن الثاني أو الأول ق. م وقد لف به جسد مومياء امرأة أتروسكية عاشت في مصر ويعتقد أنها كانت زوجة تاجر أو عسكري أتروسكي. وكما يبدو فإن هذا الأتروسكي قد اتخذ هنا في مصر العادة المحلية في بلسمة المتوفى. ولا يوجد هنا شك في أن هذا الكتاب المكتوب على البز، الذي يحتوي على أطول نص مكتوب في اللغة الأتروسكية إذ أنه يحتوي على 1500 كلمة منها 500 أساسية، قد صنع في أتروريا بالذات لأنه صنع من البز ولم يصنع من ورق البردي. ولحسن الحظ فقد حفظ هذا الكتاب بفضل المناخ المصري الجاف الذي حفظ الكثير من الكتب الأخرى. وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه المومياء مع هذا الكتاب الفريد تنقلا كثيرا قبل أن يستقرا أخيرا في متحف الآثار في زغرب، حيث لا يزالان إلى اليوم.

و- عصر الجمهورية الرومانية

اتصل الرومانيون في وقت مبكر مع الأتروسكيين، ومع اليونانيين القاطنين في إيطاليا الجنوبية، وتعلموا منهم الكتابة واحترام الكتاب. ويذهب بعض الباحثين هنا إلى أن الرومانيين قد أخذوا كتابتهم بشكل مباشر من الأتروسكيين، الشيء الذي لم يتأكد بعد. ويبدو أن الأقرب إلى الصحة الرأي القائل بأن الرومانيين أخذوا كتابتهم بشكل مباشر من المستوطنات

(*) الدبتك deptych اللوح المزدوج: لوحان من خشب أو معدن كان اليونانيون والرومانيون يصلون ما بينها بضرب من المفصلات ويكسون باطنها بالشمع ثم يكتبون عليها بقلم خاص (المترجم).

اليونانية التي كان اليونانيون قد أسسوها في إيطاليا الجنوبية. وعلى كل حال فقد كان اليونانيون هم الذين سيدفعون الرومانيين إلى عالم الأدب والفلسفة والعلوم. فمنذ نهاية القرن الثالث ق. م، خلال الحرب البونية، أخذت المؤثرات الثقافية اليونانية تفرض نفسها على العالم الروحي للقوة الرومانية الضاربة في حوض المتوسط. فمع توسع دولتهم أصبحت صلات الرومانيين مباشرة مع اليونانيين في إيطاليا ثم مع اليونانيين في إيطاليا الجنوبية ثم مع اليونانيين في بلادهم الأصلية. وهكذا لم يعد القادة العسكريون يعودون إلى روما بالعبيد والذهب وغنائم الحرب الأخرى بل بمكتبات كاملة نهبوها في المدن اليونانية المفتوحة. فقد حمل القائد لوتسيل أميل باول معه إلى روما مكتبة الحكام المقدونيين في عاصمتهم بلا بعد أن انتصر على المقدونيين وحطم دولتهم سنة 168 ق. م في موقعه بيدنا. أما القائد لوكول فإنه بعد أن انتصر على ملك بونت ميتريدات حمل إلى روما مكتبته الغنية. وهكذا تصرف أيضا القائد سول، الذي فتح أثينا سنة 84 ق. م، إذ أنه ضم إلى غنائمه بقايا مكتبة أرسطو التي ضمت مخطوطات تلميذه تيوفراست.

وطالما أن هؤلاء القادة العسكريين يقدرون فائدة حمل المكتبات إلى روما فإن هذا يدل على موقف جديد للرومانيين إزاء الكتاب، على المكانة التي أخذ الكتاب يحتلها في نظر هؤلاء القادة العسكريين وفي نظر الشريحة العليا من المجتمع الروماني. وفي الحقيقة لقد أخذ هؤلاء الكتب بأسلوب نرفضه اليوم ولكن علينا أن نقبل بأن ما فعله القادة العسكريون كان شيئا شائعا في العصور السابقة والعصور اللاحقة، ولذلك لا يمكن أن ندين هؤلاء القادة فقط على ما فعلوه.

وإلى جانب تغلغل الكتاب اليوناني في روما فقد نشأ هنا، وخاصة من القرن الثالث ق. م، تقليد الكتابة باللغة المحلية (اللاتينية) مما أدى إلى أن تنشأ في روما وفي بقية المدن الثنائية اليونانية-اللاتينية ازدواجية في الثقافة، ستترك أثرا عميقا في الحياة الثقافية خلال العصر القديم كله.

وفي الواقع أن هذه الازدواجية تبدو أيضا سواء في إنتاج الكتاب وتوزيعه أو في تركيب مجموعات الكتب سواء في المكتبات العامة أو الخاصة في روما وفي بقية المدن.

وفيما يتعلق بإنتاج الكتاب في اللغة اللاتينية في روما خلال القرن الثاني والأول قبل الميلاد فلا يوجد لدينا معطيات كافية إلى أن أخذ شيشرون يكتب عن ذلك في رسائله الكثيرة. وهكذا لا نعرف عن الفترة السابقة لشيشرون سوى أنه لم يكن يوجد إنتاج منظم للكتاب. فقد كان على المؤلفين، أو أصدقائهم، أن يهتموا بأنفسهم بنسخ الكتاب وتوزيعه وغالبا على شكل هدية للأصدقاء والمعارف وبالإضافة إلى هذا لم تكن توجد في روما مكتبات عامة يمكن أن تحفظ فيها الكتب أو يمكن أن يلجأ إليها القراء المهتمين للاطلاع على الكتب. وقد خطر ليوليوس قيصر فقط أن يؤسس مكتبة ضخمة على نمط مكتبة الإسكندرية، إلا أنه لم يستطع تنفيذ هذه الفكرة خلال حياته. وقد تمكن أخيرا صديقه أذنيه بوليون من تحقيق فكرته وتأسيس أول مكتبة عامة، ويدل تأسيس أول مكتبة عامة، في النصف الثاني للقرن الأول ق. م على أن متطلبات إنتاج الكتاب أصبحت كبيرة إلى الحد الذي برزت فيه أخيرا فكرة مكتبة عامة كبيرة.

وفي القرن الأول ق. م، أي في نهاية العصر الجمهوري، لم يعد الكتاب يلبي حاجة النخبة الروحية للمجتمع الروماني الراقي فقط بل أصبح زينة لبيوت وقصور الأغنياء ومظهرا من مظاهر التقليد. ولا شك أن التسابق على تقليد الآخرين يوضح في حد ذاته المكانة التي وصل إليها الكتاب آنذاك في المجتمع الروماني.

أما إنتاج الكتاب فقد تطور كثيرا في نهاية العصر الجمهوري كما تطورت أيضا شبكة توزيع الكتاب. وهكذا أصبحت كتب فارون وشيشرون وغيرهم من الكتاب والشعراء الرومانيين الكبار تنسخ وتباع في روما وفي بقية مدن الدولة الرومانية الواسعة. وفي ذلك الوقت برز حرص متزايد على تنقيح المخطوطات للوصول إلى النصوص الأصلية لقيم الطريق على إساءة النساخ إلى المؤلفات التي ينسخونها، إذ أن التشويه كان قد وصل في بعض المؤلفات إلى الحد الذي استحال معه الوصول إلى النص الأصلي.

ويقدم لنا شيشرون في رسائله الكثيرة صورة حية عن الوضع المتعلق بالكتاب في نهاية العصر الجمهوري. وبالاستناد إلى هذا نفهم علاقته بالناشر تيت بومبونيه، وعن مشاكله مع الناشرين غير الشرعيين، وعن طريقة جمع الكتب في مكتبته الخاصة. وفي الواقع أن الرسائل تساعدنا

على التعرف على الوضع من ناحية أخرى، إذ أنه كانت قد توفرت كل الشروط الضرورية لإنتاج ضخم للكتاب في العصر اللاحق-العصر الإمبراطوري.

ز- العصر الإمبراطوري

يبدأ العصر الذهبي للثقافة الرومانية مع الإمبراطور الأول أوغسطس. ففي هذا العصر تطور كثيرا الإنتاج الأدبي والعلمي، وأدى اهتمام الجمهور الكبير بمؤلفات الشعراء الكبار كفرجيل وهوراس واوفيد إلخ إلى دفع الناشرين لكي يطرحوا في السوق مؤلفاتهم، كما أنهم شجعوا باعة الكتب على أن يطوروا نشاطهم ليصبحوا الوسطاء بين الناشرين وبين القراء.

وحول كل هذا لدينا معطيات وافية لدى الكتاب الرومانيين أنفسهم. فهؤلاء الكتاب أنفسهم يتحدثون باستمرار عن الكتب وعن الناشرين، عن النساخ وباعة الكتب، عن ملاحقة الكتب المختلفة وملاحقة مؤلفيها، عن ثمن الكتاب وعن شكله وعن المادة التي يصنع منها، عن المكتبات وعن العاملين فيها، بالإضافة إلى الكثير من التفاصيل التي تساعدنا على تكوين صورة واضحة جدا لكل ما يتعلق بالكتاب. ونظرا لأننا سنتوسع في الحديث لاحقا عن بعض هذه المسائل فسنكتفي بتعداد أهم المعطيات فقط.

في هذا الإطار يدخل تشييد المباني الضخمة للمكتبات الجديدة في الإمبراطورية، الشيء الذي يدل على أهمية الكلمة المكتوبة في المجتمع الروماني. وهكذا فقد بنى أوغسطس نفسه مكتبتين عامتين في روما، أما الإمبراطور ترايان فقد بنى أكبر مكتبة في روما القديمة وذلك في مركز المدينة بالذات (الفوروم). ويمكن لنا أيضا أن نذكر كظاهرة مصاحبة للأهمية الكبيرة للكتاب بروز هواة جمع الكتب والمولعين بالكتب، الذين صورهم بعض الكتاب الساخرين كلوكيان وسنيكا على نحو رائع. ولا شك أن هؤلاء الهواة والمولعين بالكتب يستحقون ما كتبه عنهم هذان الكاتبان، إلا أننا لا نستطيع اليوم أن ننفي دورهم في تطور إنتاج الكتاب، نتيجة لطلباتهم وإقبالهم على شراء الكتب، وخاصة في رفع قيمة الكتاب في نظر الرومانيين.

وفي الحقيقة أن تضخم إنتاج الكتاب ودوره كوسيلة للتواصل جاء إلى حد كبير نتيجة لظهور عدد كبير من المراكز الحضرية في كل الإمبراطورية، واستمرار الازدهار الاقتصادي والثقافي للمدن التي كانت موجودة سابقا

في العالم اليوناني. وقد أصبحت الكلمة المكتوبة لا يمكن الاستعاضة عنها في دولة واسعة، هي الإمبراطورية الرومانية، وخاصة لوجود مراكز ثقافية قوية ومتباعدة في آن واحد كالإسكندرية في مصر وأثينا في اليونان وغيرها من المدن التي عرفت كيف تحفظ لنفسها مكانة في الإنتاج الأدبي والعلمي في عهد الازدهار الكبير لروما وللثقافة اللاتينية. وفي هذا الإطار فإن بروز أدب الرسائل المهم للغاية (شيشرون بلين إلخ) يدل أيضا على أهمية الكلمة المكتوبة في نقل المعارف عبر الدولة الرومانية الكبيرة.

إلا أن الأزمة الاقتصادية والسياسية في الإمبراطورية كانت قد بدأت تبرز منذ القرن الثاني الميلادي، وأخذت تتضح بسرعة في المجال الثقافي. وهكذا فقد غرب ببطء عصر الكتاب الكبار وبرز مكانهم المقلدون الذين عاشوا في ظل أسلافهم، يشرحون مؤلفاتهم ويعلقون عليها أو يجمعون أفكار الآخرين ويشرحونها. وعلى الرغم من هذا نجد أن الاهتمام بالكتاب لا يتراجع. فقد كان عدد المكتبات العامة في ازدياد متواصل كما إن الأفردا كانوا يتسابقون لكي ينفرد كل واحد بأكبر مجموعة أو أثمن مجموعة من الكتب في بيته. ومن ناحية أخرى فقد طرأ تحول مهم على شكل الكتاب ومادته من القرن الثاني إلى الرابع الميلادي. ونظرا لأفضليته على ورق البردي فقد أخذ الرق يستعمل بازدياد للكتابة، كما أن شكل الكتاب أخذ باستمرار يتحول من اللفافة إلى الكراس Codex. وقد كان لهذا التحول نتائج بعيدة المدى لأن الكراسات المصنوعة من الرقوق ستصمد في وجه الزمن خلال العصر القديم بكامله وستبقى صالحة للاستعمال في أوربا حتى زمن غوتنبرغ.

ويجب ألا ننسى أخيرا الدور المهم الذي مارسته في إنتاج الكتاب الأطراف اليونانية للدولة الرومانية. فعلى الرغم من الفقر النسبي لهذه الأطراف بالمقارنة مع المركز (روما) إلا أن المراكز الثقافية الكبيرة في الأطراف اليونانية قد بقيت تمارس دورها الكبير في إنتاج الكتاب، وخاصة في نسخ مؤلفات الكتاب اليونانيين الكلاسيكيين.

ح- الكتاب في القرون الأخيرة للعصر القديم

في نهاية العصر الروماني الإمبراطوري طرأت تغيرات كبيرة على إنتاج الكتاب، وبالتحديد على شكله وعلى مادته التي يكتب عليها. فمن ناحية

كانت النخبة المثقفة للبنية التقليدية الاجتماعية تحاول أن ترعى وأن تطور التراث الثقافي اليوناني-الروماني الوثني، ومن ناحية أخرى أدى توطيد المسيحية إلى إحداث تحولات ستغير بدورها الحياة بشكل جذري في الإمبراطورية الرومانية بما في ذلك إنتاج الكتاب. وهكذا سينعكس هذا التضاد بين هذين التيارين الأيديولوجيين على إنتاج الكتاب وشكله وعلى المادة التي يصنع منها: فقد كان التقليديون، حماة الثقافة الوثنية، يفضلون لفافات ورق البردي بينما كان أنصار الديانة الجديدة-المسيحية-يميلون إلى الكراسات المصنوعة من الرقوق. وهكذا فإن توطيد المسيحية وتحولها إلى دين رسمي للدولة سينعكس على مصير الكتاب وشكله في القرون الأخيرة للعصر القديم.

في القرون الأولى للإمبراطورية كان المسيحيون يحصرون إنتاجهم للكتابة الطقوسية والسجالية والمرافعة عن الدين. وقد كانت المسيحية حتى نهاية القرن الثالث متواضعة جدا لأن الإمكانيات المادية لاتباع الدين الجديد كانت متواضعة، ولأن نسخ الكتب كان يتم من قبل المؤمنين المتحمسين لتلبية حاجات المجتمع والكنائس والمدارس الدينية وليس من قبل نساخ محترفين. أما في القرنين الرابع والخامس، بعد أن تسلم المسيحيون السلطة في الإمبراطورية، فقد أصبحت كتبهم في غاية الأناقة وأصبحت لا تقارن من حيث أناقتها وأسعارها بما أنتج في العصر القديم. وفي ذلك الوقت أصبح نسخ وتزيين الكتب يتم في ورشات خاصة، بعضها مدني وغالبيتها دينية، وجدت في إطار المكتبات والأديرة المسيحية. ونعلم الآن أن ورشة من هذا النوع كانت في مكتبة قيسارية منذ تأسسها في القرن الثالث الميلادي، كما كانت هناك ورشة أخرى في المكتبات المسيحية الكبيرة في الإسكندرية والقدس والقسطنطينية. وبالإضافة إلى هذه كانت هناك ورش خاصة أخرى لا ترتبط بالكنيسة، حيث كان يتم نسخ المؤلفات الدينية واليونانية-الرومانية الكلاسيكية لتلبية طلبات النخبة المسيحية والأرستقراطية الرومانية القديمة. وفي الواقع لقد بقيت هذه الورش الخاصة تعمل حتى بعد أن تولى المسيحيون السلطة، ولكن كان عليها الآن أن تتكيف مع الوضع الجديد ومع الطلبات الجديدة ومع المادة الجديدة (الرقوق) والشكل الجديد للكتاب (الكراس). إلا أن الأرستقراطية المسيحية الجديدة لن تقتصر طلباتها

في هذه الورش على الكتب الدينية فقط بل وعلى مؤلفات الكتاب الوثنيين أيضا.

وعلى الرغم من هذا فقد كانت هذه الورش الخاصة تعد أيامها الأخيرة. فقد اختفت غالبيتها مع اختفاء الحضارة التي خلقتها والتي كانت بحاجة إليها. فقد كانت الشريحة المثقفة من الأرستقراطية الرومانية، التي حافظت بطلباتها على هذه الورش الخاصة حتى بداية العصر الوسيط، تضعف باستمرار من الناحية الاقتصادية والسياسية. أما في الناحية الأخرى، فقد كانت الورش المتكاثرة التابعة للأديرة قادرة على تغطية الطلبات المتناقصة للكتب. وبهذا الشكل أصبحت هذه الورش الممثلة النموذجية لثقافة الكتاب القروسطية، هي المنتج الوحيد للكتاب وبقيت على هذه الحالة ألف سنة، أي إلى نهاية العصر الوسيط.

أما المراكز الوثنية كأثينا والإسكندرية وروما إلخ فقد تابعت في الأيام الأخيرة للإمبراطورية ممارسة النشاط الأدبي والعلمي محاولة أن تحافظ بإصرار على القيم التقليدية لثقافة العصر القديم. وفي هذا الاتجاه وجدت هذه المراكز حلفاء لها في أوساط المثقفين المسيحيين، الذين حاولوا بدورهم أن ينقذوا ما يمكن إنقاذه من ثقافة العصر القديم. وهكذا أصبح إنقاذ تراث العصر القديم مهمة مشتركة للنخبة المثقفة والمسيحية، وكان لهذا التواصل أهمية كبرى في إنقاذ مؤلفات الكتاب الوثنيين القدماء ونسخها من ورق البردي الذي لا يصمد طويلا إلى الرقوق التي كانت تصمد جيدا في وجه الزمن. وفي هذا الاتجاه لدينا تفضيل مهم يتعلق بمبادرة الإمبراطور قسطنطين الثاني الذي أمر في منتصف القرن الرابع الميلادي بنقل مؤلفات الكتاب الكلاسيكية من لفافات البردي إلى كراسات الرقوق وذلك لأجل المكتبة الإمبراطورية التي كان قد أسسها حينئذ في القسطنطينية. وقد تركت حينئذ مهمة إنجاز هذا العمل الكبير إلى الورشة التي أسست في إطار المكتبة نفسها. أما في روما نفسها فقد قامت أخيرا الشريحة التي بقيت تتمتع ببعض النفوذ (من الشيوخ والخطباء وبقية أفراد الأرستقراطية المثقفة) بمحاولة يائسة خلال القرنين 4- 5 لبعث الثقافة الوثنية والحفاظ على إشعاعها. إلا أن عصر هؤلاء كان قد غرب إذ أن هذه الأرستقراطية بعد اعتناقها للمسيحية لن تستطيع أن تنقذ نفسها من المأزق الذي سقطت

فيه. وعلى كل حال فبفضل هؤلاء تمكنت الكثير من المؤلفات اليونانية والرومانية من الاستمرار في بعض الأيام الصعبة حتى نهاية الإمبراطورية وبداية العصر الوسيط.

وخلال الفوضى العامة التي شملت في نهاية العصر القديم الجزء الغربي من الإمبراطورية الرومانية سيضطر الكثير من المثقفين الرومانيين إلى الالتجاء مع كتبهم إلى القسطنطينية طلبا للحماية ضمن أسوارها. وهناك سيحاول الأباطرة بدورهم أن يؤمنوا للكتاب تطورا متواصلا. ففي القسطنطينية، وفي الإمبراطورية الرومانية الشرقية بشكل عام، سيتم هذا التواصل بين العالم القديم والعالم المسيحي بحيث سيعايش الكتاب هنا تطور الكبير الأخير في العصر القديم.

2-مواد الكتابة-أدوات الكتابة-شكل الكتابة

كان اليونانيون والرومانيون والشعوب الأخرى، التي خضعت لهم أو التي كانت تحت تأثيرهم، يكتبون خلال العصر القديم في غالب الأحيان على ورق البردي والرقوق وعلى مواد أخرى في بعض الأحيان. وهكذا فقد كانوا يستخدمون الحجر للكتابة على القبور والنصب التذكارية واللوحات التذكارية على الميادين العامة إلخ. وقد كانت النصوص المكتوبة على المعدن أيضا ذات طبيعة معينة وهو الشيء الذي يشمل النصوص المكتوبة على مواد أخرى كما سيمر معنا لاحقا.

وفي الواقع إن اختيار مادة للكتابة لم يكن ينبع فقط من طبيعة النص، بل من وجود أو غلاء المادة المناسبة للكتابة. إن هذا يشمل لحاء الشجر (في اللاتينية liber), الذي أطلق الرومانيون اسمه على الكتاب لاحقا (liber)، وبعض أنواع الأوراق (خاصة أوراق النخيل) والعاج والزجاج والطين المشوي الخ.

وفي الأوقات القديمة كان الرومانيون أيضا يكتبون بعض كتبهم على النسيج أي جيرانهم الأتروسكيين. ومع أنه لم يصلنا كتاب واحد من هذا النوع إلا أن وجود هذا النوع من الكتب يؤكده تيت ليفي الذي سجل لنا أنه كان يوجد كتاب تاريخي قديم للشعب الروماني مكتوب على النسيج في معبد الآلهة يونو سونيتا في روما. ومن ناحية أخرى يتحدث الكاتب بلين

في مؤلفه «التاريخ الطبيعي» (13، ص 88) عن كتب قديمة مكتوبة على النسيج.

وقد حظيت ألواح الشمع باستعمال أوسع، وقد استخدمت لكتابة النصوص القصيرة وحتى في بعض الأحيان لكتابة الرسائل للأصدقاء. وفي الواقع لقد كانت هذه تصنع من الخشب أو من العاج ثم تطلى بشريحة رقيقة من الشمع ثم يكتب عليها، أو بالأحرى ينقش، بقلم رفيع. وقد كانت تربط هذه الألواح بشريط بحيث يمكن أن تطوى. وقد أطلق الرومانيون على هذا اسم «الكراس» codex أو الألواح الشمعية tabellae ceratae. وإذا كان هذا «الكراس» يتألف من لوحين يسمى dyplices وإذا كان من ثلاثة ألواح كان يسمى triplices وهكذا. قد أطلق الرومانيون على الكراس الصغير اسم codicilli أو pugillares على اعتبار أنها يمكن أن تحمل بسهولة في اليد.

في الأيام الأخيرة للإمبراطورية الرومانية كانت أغلفة هذه الكتب تزين بمختلف الأشكال. أما في الداخل فقد كانت الكتابة تتم على وجه واحد من الألواح، وبالتحديد على الوجه المحفور الذي كان يملأ بشريحة رقيقة من الشمع. وحين كان يتم جمع لوحين أو أكثر كان اللوح المطلي بالشمع يوضع دائما في الجهة الداخلية لكي يتم حماية النص من أي حك غير متعمد. وحين كان يتطلب الأمر مسح الكتابة فقد كان يتم تسوية سطح الشمع بأداة مستوية، بحيث كان يمكن الكتابة ثانية على الشمع. ونظرا لسهولة الكتابة والمحي والحجم الصغير فقد كانت هذه الألواح عملية جدا وكان يمكن الذهاب بها إلى الاجتماع أو إلى السوق كما كان يمكن أن تدون عليها أية توصية.

كان اليونانيون يستعملون ألواح الشمع منذ أقدم الأوقات ثم أخذ الرومانيون يستعملونها أيضا. ومما يدل على هذا العدد الكبير من هذه الألواح التي اكتشفها علماء الآثار في المدن القديمة بالإضافة إلى الرسوم التزيينية لهذه الألواح من ذلك العصر.

وكان يكتب على هذه الألواح بقلم مصنوع من المعدن أو العاج وحتى من العظم. وكانت هذه الأقلام رفيعة من طرفها الأول وعريضة في طرفها الثاني لكي تستعمل في تسوية ألواح الشمع. وحسب هذا الوضع ظهر تعبير «قلب القلم» للدلالة على محي النص على حين أنه بالمعنى الاستعاري يعني

تصحيح النص.

ولتدوين النصوص القصيرة كان اليونانيون يلجأون إلى الكتابة على قطع الأواني الفخارية المحطمة، التي كانوا يسمونها «أوستراكون» ostrakon وعادة كان يكتب على سطحها الخارجي. ومن المعروف أن الأثينيون كانوا يكتبون على هذه القطع أسماء الذين يعاقبون بالنفي. وهكذا فقد أصبح القرار بالنفي يدعى أيضا باسم هذه القطع، أي ostrakism وقد اكتشفت حتى الآن أكثر من ألف قطعة من هذا النوع بأسماء المحكوم عليهم بالنفي من أثينا.

إلا أن هذه القطع الفخارية لم تكن مناسبة لكتابة نصوص طويلة بسبب مساحتها المحدودة، ولكنها كانت رخيصة أو حتى مجانية إذ أنها كانت تتوفر في كل بيت وفي كل شارع.ولهذا السبب فقد كانت القطع الفخارية مادة الفقراء. فالفيلسوف ديوجين يذكر لنا في خبر له أن الفيلسوف اليوناني كليانت كان فقيرا إلى حد أنه كان يدون محاضرات أساتذة زينون على قطع الفخار لأنه كان عاجزا عن شراء ورق البردي.



لوح طيني من بيلوس (اليونان) من منتصف القرن 15 ق. م. النص يوناني بدائي مدون في ما يسمى «الكتابة الخطية ب» متحف الآثار-أثينا.

ولم تكن هذه القطع الفخارية تستخدم في اليونان فقط بل أنها كانت تستخدم أكثر في مصر في شتى العصور، سواء في العصر الفرعوني أو

البطالمي وحتى في العصر الروماني وما بعده. وفي هذه القطع الفخارية نجد نصوصا متنوعة، إذ نجد الأشعار والقصص القصيرة والوصفات الطبية إلخ سواء في اللغة المصرية القديمة أو في بقية اللغات التي كانت تستعمل خلال العصر الهلنستي وخاصة اليونانية. أما في القرن 3 ق. م فقد أصبحت الكتابة على القطع الفخارية شائعة لتدوين الوثائق الرسمية للحسابات المختلفة والصلوات والرسائل وحتى الاتفاقيات التجارية. وكان الأطفال أيضا يستخدمون القطع الفخارية للتدرب على الكتابة في مدارسهم. وفي هذه القطع الفخارية التي كانت تستخدم في المدارس نجد بعض النصوص القصيرة لأشهر الكتاب اليونانيين القدامى (أوريبيد، هيزيود إلخ). وهكذا بفضل هذه القطع المكتشفة أصبح في الإمكان إعادة تركيب قصيدة للشاعرة سافو. وفي الواقع لقد كانت هذه المادة مناسبة بشكل خاص للتدرب على الكتابة في المدارس لأنه كان يمكن مسح الكتابة منها بسهولة ثم الكتابة عليها ثانية. ويعتقد بحق أن القطع الفخارية كانت على الغالب مادة الكتابة للشرائح الاجتماعية الفقيرة في مصر التي لم تكن قادرة على شراء ورق البردي الرخيص نسبيا في البلاد.

وقد تابع القبط في مصر الكتابة على القطع الفخارية واستمروا على ذلك حتى قدوم العرب. وقد كتب القبط على القطع الفخارية الأدعية المختلفة ومقاطع من الكتاب المقدس وبعض النصوص الشعائرية الخ. وقد اكتشف علماء الآثار في مصر آلاف القطع الفخارية التي تتضمن النصوص المختلفة وحتى بعض الرسوم التزيينية. وفي الواقع أن هذه القطع الفخارية تعتبر مصدرا أساسيا للتعرف على الحياة الاقتصادية والمعتقدات الشعبية والعادات والجوانب الأخرى من حياة الفقراء في مصر القديمة.

ومن بين المواد التي استخدمت للكتابة لدينا جلد الثعبان. ففي رواية سجلها الكاتب البيزنطي زانورا في القرن الثاني عشر الميلادي يرد أن الحريق الذي التهم في نهاية القرن الخامس ق. م المكتبة الإمبراطورية في القسطنطينية كان قد أتى على كتاب نادر يصور ملاحم هومير كان قد كتب بماء الذهب على جلد الثعبان.

وفي العصر القديم استخدمت أحيانا للكتابة شرائح الذهب والفضة، بينما استخدم الرصاص أكثر. وهكذا يذكر لنا باوزان أنه قد رأى في

هيليكون (اليونان) نسخة من كتاب هزيود «الأعمال والأيام» مكتوب على شرائح من الرصاص. أما بلين فيذكر لنا في كتابه «التاريخ الطبيعي» (18، ص 88) أيضا كتبا قديمة مكتوبة على شرائح الرصاص.

وقد أكد علماء الآثار هذه الأخبار بعد أن اكتشفوا عددا كبيرا من شرائح الرصاص تتضمن نصوصا مختلفة. وقد أوضحت هذه الاكتشافات أن شرائح الرصاص كانت نادرا ما تستعمل لتدوين النصوص الأدبية والأخرى المشابهة بل كانت غالبا ما تستعمل لتدوين الملاحظات الدينية والسحرية المختلفة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن استخدام لشرائح الرصاص بدأ في اليونان منذ القرن الخامس ق. م، وانتشر من هنا إلى بقية بلدان المتوسط. وإلى ذلك الوقت، القرن الخامس أو الرابع ق. م، ترجع شريحة الرصاص الأتروسكية البيضوية الشكل التي اكتشفت في إيطاليا الوسطى. ونلاحظ هنا أن الكتابة ملأت سطحي الشريحة وتتضمن نصا بحوالي 70 كلمة يشمل على ذكر بعض الآلهة والأضحيات التي كانت تقدم لها.

وفي الواقع لقد كان الرصاص ملائما جدا للكتابة إذ أنه كان لينا ولذلك كانت الحروف تكتب عليه بسهولة، كما كانت ليونته تساعد على طويه بأي شكل حسب الحاجة (على شكل لفافة مثلا). ومن ناحية أخرى فقد كان الرصاص متينا إلى حد يمنع محو الحروف بشكل غير متعمد. إلا أن كل هذه المزايا لم تكن هي التي حملت اليونانيين وغيرهم من شعوب المتوسط على استخدام هذا المعدن بقدر ما كان ذلك يتعلق بالمعتقدات التي كانت تؤمن بالمزايا السحرية الخاصة لهذا المعدن. فمنذ القديم كان المصريون يربطون الرصاص البارد المائل للون الرمادي بالأموات والعالم السفلي، وكانت هناك شعوب أخرى أيضا تؤمن بهذه الصلة. ولذلك فقد كان اليونانيون والأتروسكيون، وخاصة الرومانيون، يستخدمون ألواح الرصاص ليكتبوا عليها الإشارات السحرية لكي يستعينوا بقوى العالم السفلي للتأثير على شخص أو إلحاق الضرر بآخر، وقد كان الرومانيون يطلقون على هذا النوع من الألواح الرصاصية «tabellae defitonum» وكانت معظم هذه تصنع على شكل صفائح رقيقة بأبعاد صغيرة. وقد وجدت من هذه المئات في أنماط مختلفة من الإمبراطورية، وحتى في يوغسلافيا (سيساك، بتوي-تروغير الخ).

وبالإضافة إلى الرصاص فقد استخدم البرونز لكتابة نصوص معينة، وغالبا لكتابة الوثائق المهمة والقوانين والنصوص الدينية وما شابه ذلك. فعلى البرونز مثلا كانت قد كتبت «قوانين اللوائح الاثنى عشر» في منتصف القرن الخامس ق. م، التي دمرت سنة 387 م في الحريق الذي أشعله الغاليون.

وقد شاعت «الشهادات العسكرية» في العصر الروماني، وكانت هذه الشهادات تتألف من لوحين متساويين حيث يكتب في الداخل مرسوم الإمبراطور، وبناء على هذه الشهادة كان يمنح العسكري الذي انتهت خدمته الأراضي والامتيازات الأخرى وقد كانت هذه الألواح تحوي في أحد الطرفين ثقوبا ينفذ منها ثلاثة حلقات لتمسك بها. وفي الطرف الآخر كان هناك ثقب ينفذ منه شريط معدني لربط الشهادة. وقد كان هذا الشريط يختم في سبع مواضع، ولكي يعرف ما في الشهادة فقد كان النص ذاته ينقش أيضا على السطح الخارجي للوحين بحيث يمكن أن يرى أيضا. وقد تم اكتشاف الكثير من هذه الشهادات العسكرية حتى في يوغسلافيا (سولين، سرسكا متروفيتا، سيساك الخ).

أما ورق البردي فقد كان أهم مادة للكتابة تم استعمالها في العالم اليوناني-الروماني-وقد كان هذا الورق يؤخذ من نبتة تنمو في المستنقعات Cyperus papyrus، وخاصة في مصر على دلتا النيل. وحسب الوصف المفصل الذي تركه لنا بلين الكبير في كتابه «التاريخ الطبيعي» (18، ص 74- 82) فإن ورق البردي كان يصنع من ساق تلك النبتة التي توجد تحت الماء والتي يمكن أن يصل عرضها إلى عرض يد الإنسان. وبعد أن تزال كانت الساق تقسم إلى شرائح طولية تمتد إلى متر تقريبا ثم توضع الشريحة فوق الأخرى بشكل متصالب. وبعد ذلك كانت الشرائح تغمر بمياه النيل ثم تجفف تحت أشعة الشمس وتصقل بعد ذلك وتسوى أطرافها أخيرا بحيث لا يتعدى طول الصفحة 25-30 سم. وإذا كان الأمر يتعلق بنص طويل فقد كانت تلصق عدة صفحات من هذا النوع بحيث يتشكل شريط يتراوح طوله من 6 إلى 10 أمتار. وفي حالات نادرة كان الشريط الواحد يمتد إلى 40 مترا وأحيانا أكثر من ذلك.

وقد كان الشريط من هذا النوع يلف حول عود من الخشب أو من العاج

كان يدعى omfalos من قبل اليونانيين و umbilicus من قبل الرومانيين. أما اللفافة من ورق البردي فقد دعيت توموس Tomos أو Kylindros في اليونانية و volumen في اللاتينية.

كانت الكتابة على ورق البردي تتم على شكل أعمدة على طول الشريط، وتتصل ببعضها من اليسار إلى اليمين. وهكذا فإن القارئ يمسك طرف اللفافة بيد ويفتح بالأخرى النص من أوله إلى آخره. وقد كان كل عمود من هذه يسمى باغنيا pagina وقد أطلق هذا الاسم على الصفحة حين تحول شكل الكتاب من اللفافة إلى الكراس. وإذا لم تتسع لفافة واحدة لكل النص فقد كانت تستعمل لفافة ثانية وثالثة إلى أن تكمل كتابة النص. وعلى طرف اللفافة، وخاصة إذا كانت محفوظة في مكتبة ما، كانت توضع قطعة صغيرة من الجلد أو ورق البردي تتضمن عنوان النص. ولحماية هذه اللفافات فقد كانت تغطى أحيانا بغلاف جلدي خاص، بينما كانت توضع أحيانا في صناديق خاصة.

لقد استخدم ورق البردي للكتابة في وقت مبكر جدا. فأقدم النماذج المحفوظة في مصر تعود إلى نهاية الألف الرابعة ق. م، ولكن يعتقد أن بداية الكتابة على ورق البردي تعود إلى منتصف الألف الرابعة ق. م. وقد وصل ورق البردي إلى فينيقيا حوالي سنة 1100 ق. م، بينما نجده في آشور في القرن الثامن ق. م. وفي ذلك الوقت، وربما من القرن 9 ق. م، وصل ورق البردي إلى اليونانيين عن طريق الفينيقيين. وليس من المعروف بعد منذ متى بدا اليونانيون يدونون كتبهم على ورق البردي، ولكن يعتقد أنهم بدأوا في استعمال هذا الورق في القرن 6 أو نهاية القرن 7 ق. م، أي في الوقت الذي تخلص فيه اليونانيون من الوساطة الفينيقية وأصبحوا يتزودون بأنفسهم من هذا الورق من مصر.

ومن المحتمل جدا أن ورق البردي دخل إيطاليا عن طريق المستوطنات اليونانية. وقد أخذ الرومانيون اسم هذا الورق عن اليونانيين (charta)، ولا يستبعد أن يكون الرومانيون قد ذهبوا بأنفسهم إلى مصر ليتزودوا بورق البردي.

وقد أصبح ورق البردي يستعمل في روما على نطاق واسع خلال العهد الجمهوري والإمبراطوري، بينما انتشر استعماله في مناطق أوربا الأخرى

مع توسع الإمبراطورية الرومانية. ونظرا لتزايد الطلب على ورق البردي فقد أصبحت مصر أكبر منتج ومصدر لهذه المادة. وقد أصبح ورق البردي يستعمل للكتابة في البلدان التي وصل إليها تأثير الحضارة الرومانية إلى أن أخذ الرق يزاحمه في الفترة الأخيرة من عصر الإمبراطورية الرومانية قبل أن يحل محله تماما.

وقد وصل إلينا من العصر اليوناني-الروماني عدد كبير نسبيا من النصوص المكتوبة على ورق البردي، ومعظم هذه النصوص جاء من مصر التي ساعد مناخها الملائم جدا على حفظ هذه المادة القابلة للعطب بسرعة.

وقد حفظت كمية صغيرة من النصوص المكتوبة على ورق البردي في بلدان الشرق الأوسط حيث يتشابه المناخ فيها مع المناخ في مصر. أما في البلدان الأخرى للإمبراطورية الرومانية فقد كان العثور على نص من هذا النوع أمرا نادرا. ولدينا استثناء هنا يتعلق باكتشاف عدد من لفافات البردي في أحد بيوت مدينة هيركولانه Herkulane والتي غطاها بركان فيزوف القريب بحممه خلال ثورته سنة 79 م، مما أدى إلى حفظ لفافات البردي كما هي.

وحسب أحد الجغرافيين من القرن الرابع الميلادي أن ورق البردي ينتج في ذلك الحين في الإسكندرية وضواحيها فقط. وقد كانت الإسكندرية بالطبع هي الميناء الذي تأتي إليه السفن من بلدان حوض المتوسط للتزود بهذه المادة الثمينة. وفي الواقع لقد كان ازدهار الإسكندرية الاقتصادي منذ تأسيسها ينبع من التجارة بورق البردي، بينما كانت ضواحيها قد استفادت كثيرا من هذا قبل تأسيس هذه المدينة.

كان إنتاج ورق البردي في أيدي الأفراد سواء في عهد الفراعنة أم في العهود اللاحقة، ولكن بيع هذه السلعة المهمة كان دائما يتعرض لمراقبة يقظة من قبل السلطة المركزية. وفي الواقع لقد كان المنتجون والتجار، وخاصة في العصر الروماني، يلتزمون بتزويد السوق بشكل منظم بورق البردي لأن أي اختلال كبير بتوزيع هذه المادة كان يمكن أن يؤدي إلى اضطراب خطير في عمل الإدارة وفي الحياة العامة. ويكفي هنا للتدليل على مدى أهمية تزويد السوق بشكل منظم بالنسبة لروما أن نذكر ما حدث مرة في عهد الإمبراطور تيبر. ففي ذلك الحين حدث نقص في ورق البردي

مما دفع مجلس الشيوخ إلى تشكيل لجنة خاصة كلفت بتوزيع الكمية القليلة المتبقية في المستودعات من ورق البردي لأن الحياة العامة في روما، كما يروي لنا بلين، تعرضت للشلل تماما بسبب ذلك. ولكي لا يتكرر ذلك مرة أخرى في المستقبل فقد تم تحديد الكميات التي يجب أن يسلمها المنتجون والتجار المصريون إلى روما في كل سنة.

وقد كان ورق البردي يصل إلى روما بالسفن عن طريق ميناء أوستيا ثم ينقل من هناك إلى المدينة حيث يخزن في مستودعات خاصة كانت توجد على رابية أوبيا. ومن هذه المستودعات كان يتم تزويد تجار المفرق بورق البردي تحت رقابة السلطات الرسمية.

وإلى جانب ورق البردي فقد كان الرق من أهم مواد الكتابة في العصر القديم.

وفي الواقع لقد كانت حضارات الشرق الأوسط تستعمل الجلد العادي للكتابة قبل أن يتم التوصل إلى إنتاج الرق. وقد وجد أقدم نص مكتوب على الجلد في مصر، وهو يرجع إلى القرن الخامس عشر ق. م. أما فيما يتعلق ببلاد الرافدين فترجع أقدم النصوص المكتوبة على الجلد إلى القرن التاسع ق. م، ومن هذين المركزين الحضاريين انتشر استعمال الجلد ليصل إلى بلاد الفينيقيين والشعوب الأخرى في شرق البحر الأبيض المتوسط. وقد استعمل اليهود بشكل خاص الجلد، ثم الرق لاحقا، لكتابة أسفارهم المقدسة. ومن هيرودوت نعرف أن اليونانيين في آسيا الصغرى كانوا يستعملون الجلد للكتابة قبل أن يتحولوا إلى ورق البردي.

أما في العصر الهلنستي فقد تم التوصل، وفي مدينة برغام Pergam كما يرجح، إلى أسلوب جديد لمعالجة الجلود بحيث إن المادة الجديدة للكتابة-الرق-أصبحت تسمى في اللاتينية باسم المدينة pergamen(*1) ومع أن الكتاب القدامى لم يتركوا لنا وصفا مفصلا لأسلوب إنتاج الرق إلا أنه يمكننا بسهولة أن نتصور ذلك نظرا لأن أسلوب الإنتاج لم يتغير خلال عدة قرون، بل بقي كما هو حتى العصر الوسيط في أوربا. فعلى الغالب كانت تستخدم

(*1) ومن اللاتينية اشتقت اشللغات الأدبية الحديثة هذه التسمية، فهي في الألمانية pergament وفي الفرنسية perchmine وفي الإنجليزية parchment الخ.

(المترجم)

جلود الحيوانات الصغيرة، الغنم والماعز، وكانت تغطس أولا ثلاثة أيام في ماء الجير لكي يذوب عنها الشحم وبقايا اللحم. وبعد ذلك يزال الصوف عنها وتشد ثم تترك مدة من الزمن لكي تجف تماما. وفي النهاية كانت تؤخذ لتصقل من الطرفين وتقطع على شكل مربعات، وبهذا كان الجلد أخيرا يتحول إلى رق جاهز للاستخدام.

كانت الكتابة على الرق تتم دائما على الوجهين، وكانت الكتابة غالبا ما تمحى لعدم الحاجة إليها أو لكتابة نص آخر مكان النص الأول. وتسمى هذه الرقوق التي استعملت للكتابة أكثر من مرة palimpsestat وهي ذات قيمة كبيرة للمؤرخين لأنه غالبا ما يكون النص الأقدم أهم بكثير من النص الأحدث. وفي الواقع لقد أصبح الآن في الإمكان بواسطة الأشعة إعادة تسجيل النص الممحي وقراءته بسهولة.

وحسب إحدى الروايات، التي أوردها أولا فارون ثم بلين وبقية الكتاب الرومانيين، فان أسلوب تحويل الجلود إلى رقوق قد تم التوصل إليه في مدينة برغام. خلال حكم الملك أومنست الثاني في القرن الثاني ق. م، بعد أن أوقف الحكام المصريون تصدير ورق البردي إلى هذه المدينة نتيجة للمنافسة بين الطرفين. ويعتقد أن هذه الرواية لا تتضمن إلا بعض الحقيقة، أي أن التوصل إلى تطوير الأسلوب لتحويل الجلود إلى رقوق جاء نتيجة للطلبات المتزايدة للمكتبة الملكية التي أسست في ذلك الحين ونتيجة لصعوبة التزود بانتظام بورق البردي من مصر.

إن هذه الرواية، وبغض النظر عن أنها قد لا تنسجم تماما مع الحقيقة التاريخية، قد برزت في العصر اليوناني-الروماني للتعبير عن المنافسة بين هاتين المادتين المستعملتين للكتابة. فقد كانت مصر توفر للسوق ورق البردي الذي كان رخيصا نسبيا، إلا أن الرق كانت له أفضلية في عدة نواح. فقد كانت أفضلية الرق تكمن أولا في أنه يمكن أن ينتجه كل من يملك الحيوانات الصغيرة. ولكن من الناحية الأخرى كانت مصاريف إنتاج الرق أكبر بكثير بالمقارنة مع ورق البردي، كما أنه كان من الصعب تلبية حاجات السوق المتزايدة خاصة في عهد الإمبراطورية الرومانية. ومن هنا فقد كان ورق البردي يفرض نفسه كمادة للكتابة. ونظرا لأن الطلب كان أكبر بعدة أضعاف من العرض الذي يمكن أن يوفره الرق فقد كانت أفضلية هذه المادة لا تؤخذ

بعين الاعتبار، ولذلك بقي الرق عاجزا عن منافسة ورق البردي.

وقد استمر هذا الوضع حتى الفترة الأخيرة من الإمبراطورية الرومانية حين تناقص كثيرا عدد المستهلكين لورق البردي بحيث إن الرق أصبح في وسعه تلبية حاجة السوق. وهكذا فقد انتصر الرق أخيرا على منافسه القديم، ورق البردي.

إلا أن هذا ليس السبب الوحيد لإزاحة ورق البردي لصالح الرق. ففي هذا الاتجاه كان للمسيحية دورها أيضا إذ أنها كانت تفضل استعمال الرق كمادة للكتابة عوضا عن ورق البردي. وفي الواقع لقد كان المسيحيون، واليهود أيضا، لا ينظرون إلى الكتاب الذي يضم النصوص المقدسة كمادة قابلة للاستهلاك. فقد كانت للكتب المقدسة، الإنجيل لدى المسيحيين والتوراة لدى اليهود، أهمية تعادل أهمية أمكنة العبادة ولذلك فقد كان لا بد أن تكون مكتوبة في مادة متينة يمكن أن تصمد في وجه الزمن. وبعبارة أخرى لقد كان الأمر لدى المسيحيين واليهود يتعلق بموقف آخر من الكتاب يختلف عن موقف العالم الوثني اليوناني-الروماني. فاليونانيون والرومانيون كانوا ينظرون إلى الكتاب نظرة عادية غير مقدسة أي كشيء يمكن أن يستعمل ويمكن أن يطرح في أية زاوية إذا لم تعد إليه حاجة، وحتى يمكن أن يمزق.

ومع توطيد المسيحية كان دور الرق كمادة لكتابة يتعاظم، ثم أصبح مادة عادية للكتابة حين تولى المسيحيون الحكم في الإمبراطورية الرومانية المنهكة في ذلك الحين. ومع إزاحة الرق لورق البردي أخيرا ساد الشكل الجديد للكتاب (الكراس) عوضا عن الشكل القديم (اللفافة).

إلا أن المنافسة بين هذين الشكلين للكتاب لم تنته بسهولة كما انتهت المنافسة بين المادتين المعروفتين للكتابة-الرق وورق البردي. فقد كان اليونانيون، والرومانيون إلى عهد متأخر، وبقيمة الشعوب التي كانت تكتب على ورق البردي أو الجلد العادي، يعتبرون أن اللفافة هي الشكل الطبيعي الذي يناسب الكتاب أكثر. وقد تستغرب اليوم لموقف من هذا النوع لأن اللفافة لا يمكن أن تكون مناسبة كشكل للكتاب أكثر من الكراس، سواء فيما يتعلق بالكتابة والقراءة أو فيما يتعلق بالاستفادة من الرفوف. ويذهب بعض الباحثين إلى أن الكراس كشكل جديد للكتاب برز لدى الحيثيين منذ الألف الثانية ق. م، إلا أن هذا ليس مؤكدا. ويميل البعض بحق إلى أن فكرة

الكراس كشكل جديد للكتاب جاءت من تقليد الكتابة على عدة ألواح خشبية أو معدنية قابلة للطوي والربط. وقد كان الكراس يتألف من طوي قطعة رق على شكل مربع في منتصفها ثم كانت تربط عدة صفحات من هذا النوع إلى أن يتكامل الكراس. وكان الكراس عادة يحمى بغطاء من الرق أو الجلد السميك، أو من الخشب والمعدن، أو من أي مادة قوية أخرى.

إن بروز هذا الشكل الجديد للكتاب ليس بالضرورة نتيجة مباشرة لاستعمال الرق. فمن المعروف أن الرق، والجلد العادي أيضا، كان يستعمل قبل وقت طويل من ظهور الكراس، أي أن شكل الكتاب لم يتغير فقط لهذا السبب. فقد كانت لفافات الرق تستخدم منذ العصر البابلي والمصري، بينما لدينا من القرن الأول ق. م نماذج جميلة من هذه اللفافات من مدينة قمران قرب البحر الميت، حيث اكتشفت سنة 1947 مكتبة كاملة لإحدى الطوائف اليهودية تحتوي على عدد كبير من اللفافات. وأخيرا فإن الكتب في مكتبة برغام كانت على شكل لفافات ولم تكن على شكل كراسات.

كان الكراس كشكل جديد للكتاب له أفضلية كبيرة على الشكل القديم (اللفافة)، إلا أنه لم يتمكن أن يحل بسهولة محل اللفافة كما يمكن أن يعتقد المرء للوهلة الأولى. ففي روما برز الكراس كشكل جديد للكتاب في القرن الأول الميلادي إلا أن الشكل القديم (اللفافة) بقي سائدا حتى القرن الثالث الميلادي، بينما لم يتمكن الكراس من إزاحة اللفافة تماما إلا في القرن الرابع الميلادي. وفي الواقع إن الإصرار على استخدام اللفافة هذه الفترة الطويلة في الإمبراطورية الرومانية كان نتيجة للعادة والتقليد في الأوساط العليا للمجتمع الروماني أكثر ما يكون نتيجة للقناعة بأفضلية هذا الشكل للكتاب. فبالنسبة إلى الناس المتعلمين في روما لم يؤثر حينئذ الارتباط بين انتشار استعمال الرق كمادة للكتابة وبين انتشار الكراس كشكل جديد للكتاب، لأن الأرستقراطية الرومانية بقيت تفضل ورق البردي المستورد من مصر المتحضرة على الرق الذي كان يمكن لكل شخص أن يصنعه في بيته.

إلا أن أفضلية الكراس على اللفافة كان لا بد أن تظهر مع الزمن. فقد كان في الإمكان أن تدون الكتابة على وجهي الرق في الكراس وليس فقط على وجه واحد كما كان الأمر مع ورق البردي في اللفافة. وعلى وجه الرق كان يمكن أن تمحى جمل وحتى صفحات كاملة وأن تكتب من جديد بينما

كان هذا صعبا وحتى مستحيلا بالنسبة لورق البردي. وقد كان الكراس أسهل سواء للحمل في اليد أو للتوصل إلى مقطع ما في الكتاب. وقد كانت هذه الميزة شديدة الأهمية للكتب القانونية، وحتى غيرها من الكتب، حيث يرغب المرء أن يجد بسرعة ما يريده. وبالإضافة إلى هذا فقد كان ترتيب الكراسات في الرفوف أسهل بكثير من ترتيب اللفافات، لأنه كان يمكن وضع الكراس الواحد فوق الآخر أو الواحد جنب الآخر دون أن يخشى عليها من التقوس.

وهناك أيضا ميزة مهمة للكراس بالمقارنة مع اللفافة، ألا وهي إمكانية تزيين النص برسوم بشكل أسهل. فعلى ورق البردي كانت الرسوم ممكنة بالألوان المائية فقط لأنها كانت تبقى ثابتة في حالة لف ورق البردي. إلا أن شكل وحجم اللفافة لم تكن تمنح الفنان، أو الرسام، تلك الإمكانية التي يوفرها له الكراس. فعلى الصفحات الواسعة والمتينة للرق كان بوسع الفنان الرسام أن يستخدم تقنيات مختلفة ومواد مختلفة (استخدام شرائح الذهب على سبيل المثال). وبالإضافة إلى هذا فقد كان الفنان-الرسام يجد في الصفحة المربعة حرية أكبر لكي يخطط وينفذ ما يرى برسمه، بحيث يمكن أن يبدو الارتباط أكثر بين موضوع الرسم وبين النص في الصفحة ذاتها أو على الصفحة المقابلة.

وقد أدت كل هذه المزايا إلى ازدياد الاعتماد على الشكل الجديد للكتاب (الكراس) وعلى الرق كمادة للكتابة. وعلى الرغم من الانتصار الذي حققه الكراس على اللفافة إلا أن المثقفين ظلوا ينظرون بتقدير إلى لفافة البردي، ولذلك بقيت تستخدم إلى القرن السادس الميلادي. وإلى هذا القرن بالذات ترجع كلمات المدح التي أطلقها كاسيودور على لفافة البردي.

إن التحليل الوافي لمضمون الكراريس خلال وجود الدولة الرومانية يدل على أن استعمال الشكل الجديد للكتاب (الكراس) كان على الغالب لدى المسيحيين. وبعبارة أخرى إن تزايد الاعتماد على الشكل الجديد للكتاب، الذي يرتبط بدوره باستعمال الرق للكتابة، كان يتزايد مع تزايد تأثير المسيحية. ويعتقد هنا أن توجه المسيحيين لاستعمال الرق كان ينبع من وضعهم الاقتصادي، إذ أنهم في القرون الأولى للإمبراطورية الرومانية كانوا ينتمون إلى الشرائح الدنيا والفقيرة من المجتمع، ولذلك فقد كان من

الأرخص لهم إنتاج الرق في ورش بيتية من شراء ورق البردي. وبالإضافة إلى هذا هناك سبب آخر لميل المسيحيين إلى الرق، ألا وهو أن النصوص الأولى من الكتاب المقدس كانت مكتوبة في كراريس من الرق، ولذلك كانوا يعتقدون أن هذا الشكل (الكراس) وهذا النوع (الرق) يناسبان كتبهم المقدسة. وتبقى هنا حقيقة لا بد من ذكرها، ألا وهي أننا لا نعرف إلى اليوم أية نسخة للكتاب المقدس مكتوبة على لفافة بردي من العصر القديم.

ومع اشتهار الشكل الجديد (الكراس المصنوع من الرق) أصبح الكتاب يأخذ باستمرار ملامح فاخرة واستعراضية. وهكذا سيصبح تجليد الكتاب في نهاية العصر القديم وخلال العصر الوسيط من أهم الملامح الفاخرة للكراس، بينما ستصبح بسرعة المواد التي تزين بها الأغلفة مؤشرا لثروة المالك ولوضعه الاجتماعي. فمنذ نهاية العصر القديم أصبحت الأغلفة تصنع من شرائح الذهب والفضة، التي تزين بشكل فني فاخر، بينما كانت أحيانا تزين بالأحجار الكريمة أو شبه الكريمة. ومع إنتاج الكتاب منذ نهاية العصر القديم في الكنائس والأديرة المسيحية تطورت سلسلة كاملة من الحرف الفنية المرتبطة بتشكيل وتزيين الكتاب. وللتدليل على الأهمية الكبيرة التي أصبحت تعطى لتجليد الكتب بشكل فاخر نجد أن الإمبراطور قسطنطين (حوالي 280-337 م) يوصي الأسقف أوزوب في قيسارية على خمسين نسخة من الإنجيل لكنائس القسطنطينية مع الإصرار على أن تكون مجلدة بشكل فاخر.

ومن ناحية أخرى فقد كان الكتاب الوثنيون يتخلون ببطء عن لفافة البردي لصالح الشكل الجديد للكتاب (الكراس). وقد سجلت عدة حالات من هذا النوع في القرن الثاني الميلادي، إلا أن القرن الثالث الميلادي سيشهد صدور أعمال هومير وشيشرون وبقية الكتاب القدامى في كراريس من الرق، بالإضافة إلى صدور القوانين المختلفة والأعمال المشابهة التي كانت رائجة في ذلك الحين. أما في بعض الأوساط المثقفة في روما فقد كانت الفكرة القائلة بأن الكتاب ليس بالضرورة لفافة البردي تتغلغل ببطء حتى أن رجل القانون أولبيان يرى من الضروري في القرن الثالث الميلادي أن يشرح لمواطنيه بروح سجالية أن تعبير «الكتاب» لا يعني بالضرورة لفافة البردي بل كل نص مؤطر بغض النظر عن المادة المستعملة للكتابة.

وقد كان لنسخ الأعمال القديمة وكتابة الأعمال الجديدة في كراريس الرق خلال القرن 3- 5 الميلادي أهمية كبيرة لإنقاذ التراث الأدبي والعلمي للعصر القديم للأجيال القادمة. وحين أدركت روما أخيرا أفضلية الرق على ورق البردي بدأت عملية نسخ منظمة لنقل النصوص من ورق البردي إلى الرقوق.

ومن المعروف هنا ما حدث في مكتبة «أوريغنا وبامفيلا» في قيسارية حيث أخذ الأسقفان أكاتس وأوزوني في نقل الكتب من ورق البردي إلى الرقوق لأنه في ذلك الحين كان ورق البردي قد تعرض للتلف. وفي الواقع لقد سجلت لنا عدة حالات من هذا النوع.

وبفضل القاعدة الوثنية التي بقيت تؤثر في تكوين المثقفين المسيحيين فقد تم بإصرار نسخ كل مؤلفات الكتاب الوثنيين القدامى خلال الفترة الممتدة من نهاية العصر القديم إلى بداية العصر الوسيط، ولم تستثن هنا سوى نصوص أولئك الكتاب الذين كتبوا ضد المسيحية. ومن المرجح أننا لن نعرف أبدا كم من أعمال الكتاب الوثنيين قد فقدت للأبد لأن أصحابها لم يروا من الضروري أن ينسخوها ثانية على الرقوق. وهكذا فمن المعروف أنه قد فقدت أعمال لـ تاس، وديودور، وغيرهم من كتاب العصر القديم لأن أعمالهم لم تدون حينئذ على الرقوق مما حكم عليها بالضياع إلى الأبد. فورق البردي، باستثناء الحالات النادرة كما في مصر، لم يكن في وسعه أن يصمد في وجه الزمن كل هذه القرون لكي يصل إلينا سالما. وحتى كراريس الرقوق من نهاية العصر القديم لم يبق منها إلى اليوم إلا عدد صغير. وعلى كل حال فقد بقيت الأعمال المدونة على ورق البردي تستخدم فترة طويلة من الزمن بحيث كان يمكن أن تنسخ ثانية في العصر الوسيط لكي تنقذ من المصير الذي آلت إليه.

وفي نهاية هذا القسم من الكتابة في العالم اليوناني-الروماني بقي أن نشير أخيرا إلى أدوات الكتابة. ففي حديثنا عن ألواح الشمع كنا قد ذكرنا طبيعة الأقلام التي كانت تستخدم للكتابة. وفي الواقع أن اكتشاف كمية كبيرة من هذه الأقلام في بقايا المدن القديمة وفي المقار يوحي بالاستخدام الواسع لها. وفي العادة كانت هذه الأقلام بسيطة، ولكن اكتشفت أيضا أقلام مزينة وأخرى مذهبة.

أما على ورق البردي والرق فكانت تستعمل للكتابة أقلام مبرية من القصب (في اللاتينية calamus). وكانت هذه الأقلام تحفظ في علبة خاصة تسمى المقلمة (في اللاتينية theca calamria أو calamuium) لكي لا تتعرض للضرر.

وكانت تستعمل أيضا للكتابة ريش الطيور بالإضافة إلى الأقلام المعدنية (في اللاتينية penna)، التي كانت تصنع من البرونز وفي حالات نادرة من الفضة.

وكانت الكتابة على ورق البردي والرق تتم باستعمال الحبر الأسود أو الأحمر. وكان الحبر يحفظ في محابر خاصة تصنع من الفخار أو من البرونز. وقد كانت محابر البرونز تتميز بشكلها الأسطواني وبوجود غطاء لها، وغالبا ما كانت تزين برسوم مأخوذة من الميثولوجيا. وقد اكتشفت عدة محابر مزدوجة، أي واحدة للحبر الأسود وواحدة للحبر الأحمر. ولدينا من هذا النوع محبرة جميلة اكتشفت في سولين.

3-إنتاج وتوزيع الكتاب

لم يكن الكتاب اليونانيون والرومانيون على الدوام خلال عهود العصر القديم في مستوى واحد من الاهتمام بتدوين المعطيات التي تتعلق بإنتاج الكتاب وتوزيعه، عن شكله ومادته، أو عن التفاصيل الأخرى المتعلقة بالكتاب. كان الكتاب في اليونان الكلاسيكية نادرا ما يسمون هذه الأمور، بينما تجد أن خلفاءهم في العصر الهلنستي يقدمون بعض التفاصيل عن هذه الأمور. ومع هذا لم يخطر بذهن أحد الكتاب أن يخصص نصا مما يكتبه عن الكتاب، أو عن مكتبة من المكتبات-كمكتبة الإسكندرية أو مكتبة برغام-طالما أنهم كانوا يعرفون جيدا أهمية هذه المكتبات. ومن الواضح أن الكتاب في ذلك الوقت كانوا يعتبرون هذه الموضوعات غير مثيرة أو غير مهمة. أما الكتاب الرومانيون فقد كانوا يكتبون أكثر عن الكتب، عن ورق البردي والرق، عن بيع الكتب وعن بائعي الكتب، عن أسلوب توزيع الكتاب إلخ. وقد ألف مارك فارون، الذي كلفه يوليوس قيصر بتأسيس أول مكتبة عامة في روما، كتابا خاصا عن المكتبات (De bibliothecis) إلا أنه فقد للأسف ولم يصلنا. وباستثناء فارون، الذي تولى بهمة كبيرة المهمة التي كلفه بها يوليوس

قيصر، فإن بقية الكتاب اكتفوا غالبا بتقديم بعض المعطيات، التي تتعلق بهم بشكل ما، أو بذكر بعض الحقائق والحوادث التي لها علاقة بالكتب التي كانت تبدو لهم مثيرة وقيمة حتى تستحق أن يشار إليها. وبعبارة أخرى لا توجد لدينا نصوص تتضمن مناقشات منظمة بل مجرد معطيات متفرقة وغير مترابطة. إلا أننا اليوم، حين نجمع في موضع واحد كل هذه المعطيات المتفرقة في أعمال كثير من الكتاب، يمكن لنا أن نتصور ثانية مسيرة الكتاب من لحظة ولادته إلى لحظة وصوله ليد القارئ، وأن نتابع مصيره بعد ذلك.

وسنحاول هنا باختصار أن نتعرف على هذه الجوانب الأساسية من مسيرة الكتاب.

أ- القراءة العلنية

ذكرنا سابقا أن القراءة العلنية والإلقاء كانت من الأمور المحببة إلى اليونانيين في العصر القديم. وفي العهد الهلنستي ترسخ أكثر مع تزايد مكانة الكلمة المكتوبة حتى أن مناسبات القراءة العلنية ستتزايد كثيرا في مكتبة الإسكندرية.

لقد انتقل هذا التقليد إلى روما، حسب ل. سنيكا، بفضل بوليون، ذلك المثقف الذي تولى مهمة تأسيس أول مكتبة عامة في روما. وهكذا في النصف الثاني للقرن الأول ق. م، أي في الوقت الذي كانت فيه غالبية السكان في روما عاجزة عن امتلاك كتاب، نجد أن هاتين المبادرتين الخلاقتين لـ بوليون-المكتبة العامة والقراءة العلنية-كانت لهما أهمية ثورية حقيقية بالنسبة إلى مد الصلات بين الكتاب ومستمعيهم، وبالتحديد قراؤهم.

وقد أصبحت القراءة العلنية لاحقا، في عهد الإمبراطور أوغسطس بشكل خاص، منتشرة جدا حتى أنها بالنسبة للكثير من الرومانيين كانت بالتأكيد الوسيلة الوحيدة للتعرف على بعض الأعمال الأدبية، بل هي الوسيلة التي تحكم بشكل مباشر على مصير كتاب ما من خلال تأييده أو نبذه.

وفي الواقع لقد كان من الشائع أن يقوم الكاتب نفسه، أو من يكلفه بذلك عوضا عنه، بقراءة كتابه أمام أصدقائه في بيوتهم الخاصة أو في بيوت هواة الكتاب وأصحاب النفوذ. وفي كل بيت من بيوت الأغنياء كان هناك لهذه المناسبات أشخاص متدربون على الإلقاء الجيد (lectores أو

recitatores) يقومون بقراءة الأعمال الأدبية وغيرها على الضيوف. ويذكر لنا مثلا بلين أنه خلال العشاء الذي أقامه على شرف ضيوفه قام هؤلاء المتدربون على الإلقاء بقراءة الأشعار والخطب والنصوص التاريخية. ومن المعروف أن الشاعر فيرجيل قد قام بإلقاء مقاطع من ملحمة «الإنيادة» أمام الإمبراطور أغسطس وأصدقائه. وقد كان لهذا النوع من الإلقاء أهمية كبيرة في نشر المعلومات الأولى عن كتاب جديد، أدبي أو علمي، لأن بيوت الأغنياء كانت كثيرا ما تجمع العلماء والشعراء والفلاسفة.



لوحة تخيلية تمثل أحد أقسام مكتبة الاسكندرية.

وخلال هذه اللقاءات أو السهرات المختلفة كانت تسرد أخبار المؤلفات الجديدة وتناقش النصوص المسموعة. ومن المؤكد أنه بالنسبة إلى الغالبية فقد كانت هذه هي الفرصة الوحيدة لسماع أشعار الشعراء الكبار، والوسيلة

الوحيدة للتعرف على ما يجرى في الحقل الأدبي والعلمي.

لقد كانت عادة الإلقاء شائعة جدا في الأمكنة العامة أيضا. فالكاتب الذي يود أن يعرف جمهوره على آخر ما كتبه كان يمكنه أن يخرج بنفسه وأن يلقي قصائده على الجمهور، أو كان يمكن أن يترك ذلك لمحترفي الإلقاء. وفي عهد الإمبراطورية الرومانية، كما يقول بلين، ارتفع عدد الشعراء الذين يلقون أشعارهم في الأمكنة العامة إلى حد أنه لم يكن يمر يوم دون أن يقرأ أحدهم أشعاره في مكان عام. ونظرا لأن عدد الشعراء السيئين في العالم كان دائما يفوق عدد الشعراء الجيدين فقد كان محترفو الإلقاء يثيرون انزعاج الجمهور أكثر مما يثيرون ارتياحه. ولهذا فقد وجد الجمهور علاجا شافيا لهذا إذ أنه كان يقاطع تلك المناسبات التي يعرف مسبقا أنها تقدم شعرا سيئا أو نثرا باهتا. وقد ترك لنا بلين تصويرا رائعا لهذا الجو السائد في هذه المناسبات في رسالة له، حيث يتشوق للماضي المجيد حين كان الأباطرة أنفسهم يشابهون في هذه المناسبات. «أما الآن فقد أصبح من الواجب دعوة أسوأ المشردين للحضور في الوقت المناسب، ومع ذلك لا يأتون وإذا جاؤوا فهم يشتكون من إضاعة الوقت «ومن الطبيعي أن هؤلاء حتى عندما يأتون فهم لا ينصتون باهتمام: «غالبية المدعوين يقفون في الخارج ويقضون وقتهم في الحديث. ومن حين إلى آخر يتساءلون عما إذا وصل الذي يقوم بالإلقاء، أو عما إذا قرأ المقدمة أو عما إذا انتهى من قراءة معظم الكتاب. وحينئذ فقط يدخلون ولكنهم لا يجلسون بأدب. وحتى في



محبرة من سيكوليا بطول 4,9 سم (متحف الآثار في سبليت).

الداخل لا يبقون طويلا بل يخرجون قبل الانتهاء، البعض يخرج متسللا بنوع من الحرج والبعض الآخر قبل الآخرين».

كانت ردة الفعل في هذه المناسبات تقرر نجاح أو فشل الكتاب وتدفع المؤلف والناشر إلى تقرير مصير الكتاب (نشر الكتاب وعدد النسخ). فقد كانت الكتب التي تحظى بنجاح في القراءات العلنية تبشر بنجاح آخر لدى القراء اللاحقين مما كان يدفع الناشرين إلى نشر أمثال هذه الكتب دون الشعور بالمخاطرة. ومن هنا فقد كانت القراءة العلنية تمارس دورا مهما في حياة الكتاب، إذ أنها يمكن أن تسجل نجاحا رائعا للكتاب كما يمكن أن تسجل نهاية كل طموحات المؤلف.

ب- الكتاب والناشرون

كان الكتاب الأغنياء يحتفظون في بيوتهم بنساخ محترفين ولذلك فقد كانوا يقومون بنسخ كتبهم وتوزيعها على الأصدقاء أو بيعها في السوق. ومع مرور الزمن برز للقيام بهذا العمل وسطاء-ناشرون أخذوا يتولون كل ما يتعلق بإصدار الكتاب والترويج له وتوزيعه، وقد كان هؤلاء يغطون دائما مصاريف إصدار الكتاب بالإضافة إلى تأمين ربح من الكتب التي كانوا يصدرونها ويبيعونها.

كان المؤلف نفسه يمكن أن يقوم بدور الناشر حين كان الطلب على الكتاب لا يزال محدودا، وحين كان يمكنه بمساعدة عبيده أو عبيد أصدقائه أن ينسخ عددا من النسخ لكتابه. ولكن حين زاد الطلب على الكتاب لم يعد في الإمكان تلبية الطلبات المتزايدة بهذا الأسلوب، مما حتم بروز الناشرين الذين يتولون مهمة إصدار الكتاب وتوزيعه. وهكذا ليس من المصادفة أن يرتبط ظهور الناشرين في روما مع تزايد الطلب على الكتاب في نهاية العهد الإمبراطوري. فقد أدى توسع الإمبراطورية الرومانية والحاجة إلى وصول الكتاب إلى المدن البعيدة لهذه الإمبراطورية إلى أن يتولى أحدهم إنجاز الأعمال التي لم يعد المؤلف قادرا على إنجازها وحده. ومن هنا فقد أصبح الناشر يمارس بشكل متزايد دور الحلقة التي تربط ما بين المؤلف من ناحية والسوق من ناحية أخرى.

كان الناشرون ينظمون بأنفسهم ورش النسخ. وفي اليونان كما في روما لاحقا فقد كان معظم النساخ من اليونانيين. وقد كان هؤلاء خطاطون

متدربون بشكل خاص أقبلوا على تعلم مهنتهم منذ طفولتهم. ونظرا للسرعة في النسخ أو الإملاء، التي كانت محددة بشكل صارم، فقد كانت تبرز أخطاء كثيرة تثير نقمة الكتاب والقراء. وقد لجأ الناشرون إلى استخدام المصححين لتلافي بعض الأخطاء. ولكن بالاستناد إلى تذمر الكتاب القدماء من هؤلاء المصححين يبدو أن الناشرين لم يقوموا بعملهم كما يجب. ولهذا السبب فقد تمتع بعض الناشرين، الذين كانوا يصدرون كتبهم دون أخطاء أو بأخطاء بسيطة، بتقدير كبير مع أن عددهم على الأرجح كان قليلا جدا. وهكذا نجد أن شيشرون نفسه يحتج على الأخطاء الكثيرة التي يجدها في كتبه ولذلك يكتب بغضب: «لا أعرف لمن أتوجه بالاحتجاج فيما يتعلق بالكتب اللاتينية إذ أنها تنسخ وتباع بشكل مشوه».

أما في القرن الأول الميلادي فنجد أن الجغرافي اليوناني المعروف سترابون يذكر، بعد أن يصل إلى روما أن الناشرين سواء في روما أو الإسكندرية يحتفظون بنساخ غير أكفاء ولا يحرصون أبدا على دقة النسخ. ومن الواضح أن الوضع في هذا الاتجاه لم يتغير حتى في القرون اللاحقة، بحيث أن ايرنون من القرن الثاني الميلادي يثير أيضا مسألة قلة الضمير عند النساخ، ويضيف في نهاية أحد مؤلفاته ملاحظة موجهة إلى هؤلاء النساخ: «باسم المسيح.. أرجوك يا ناسخ هذا الكتاب أن تقارن المخطوطة المنسوخة بحرص وأن تطابقها مع الأصل الذي نسخت عنه».

ولأجل هذا فقد كان الناشرون الحريصون على دقة النسخ يتمتعون بالاحترام. ومن هؤلاء حاز تيت بومبون آتيك، وهو أول ناشر روماني نعرفه باسمه، على تقدير خاص. وقد حاز آتيك على لقبه هذا نظرا لإقامته الطويلة في أثينا، حيث نال ثقافة واسعة ساعدته على أن ينجز عمله كناشر بأفضل وجه. وقد استفاد من ثروته الكبيرة في تأسيس مكتبة خاصة له، كان يستفيد منها صديقه شيشرون. وقد كانت له في مجلة كورينال في روما ورشة للنسخ منظمة بشكل ممتاز ومزودة بالنساخ والمصححين المختارين. وفي الواقع لقد كسب أتيك شهرته من إصداره لكتب كثيرة من تأليف شيشرون وغيره من الكتاب اليونانيين والرومانيين ومن رسائله التي كان يرسلها إلى شيشرون يمكن لنا أن نتصور العلاقة بين كاتب معروف كشيشرون وبين ناشر كتبه. وهكذا يتضح أن شيشرون كان

يترك لناشر كتبه أن يتولى إصدار الكتاب، وبالتحديد الترويج له وبيعه. ففي أحد رسائله إلى أتيك يكتب شيشرون قائلا: «لقد بعت بشكل ممتاز خطبتي في الدفاع عن ليغار وسأترك لك في المستقبل مهمة ترويج وتسويق كتبي القادمة».

وحسب التقليد المتعارف عليه حينئذ فقد كان أتيك يحرص على أن يترجم مع المؤلف المخطوطة، وأن يقدم الكتاب قبل أو بعد صدوره للقراءة العلنية، وأن يهدي بعض النسخ من الكتاب إلى أصحاب التأثير والنفوذ. وقد كان آتيك ينجز عمله بإتقان حتى أنه أصبح أول وأكبر ناشر روماني وأفضل نموذج للناشرين في روما لاحقا.

ومن هؤلاء الناشرين الذين برزوا لاحقا اشتهر بشكل خاص الأخوة سوس اللذين اشتهرا بإصدار أشعار هوراس، ثم الناشر تريفون الذي أصدر في نهاية القرن الأول الميلادي أشعار مارسيال الهجائية. وقد لاحق هذا الناشر بإلحاح الكاتب مارك فابيو كوينتيليان لكي ينجز كتابه «تعليم الخطابة» إلى أن أتمه أخيرا وسلمه له.

وفي هذا الكتاب ترك المؤلف رسالته إلى الناشر حيث يعترف أو كان يعتقد أن الكتاب لم ينضج تماما للنشر ثم يضيف أخيرا: «إذا كان الطلب على الكتاب كبيرا إلى هذا الحد كما تؤكد أنت فليس لنا إلا أن نرفع الأشرعة ونتمنى للسفينة أفضل رغباتنا. ولكن بإخلاصك ونشاطك سيصل الكتاب إلى أيدي القراء بأقل قدر من الأخطاء».

وهكذا يتضح هنا بعض التفاصيل عن العلاقة التي كانت تربط بين الكاتب والناشر: الناشر يحض الكاتب على تسليمه للكتاب، والكاتب يهمه أن يصدر كتابه على أفضل وجه.

وقد كان يحدث أحيانا أن يصدر كتاب ما دون رغبة أو معرفة المؤلف. وقد حدث هذا مثلا ليشرون. فقد كتب رسالته إلى الناشر آتيك يشتكي فيها من أن إحدى خطبه قد وصلت إلى أيدي القراء دون علمه.

وقد تكررت هذه الحالة مع كثير من الكتاب الذين يكشفون لنا في احتجاجاتهم عن وجود عدد كبير من المنتفعين والمستغلين الناشرين غير الشرعيين، الذين كانوا يستغلون الطلب الكبير على أعمال الكتاب المعروفين فيعمدون إلى نسخ هذه الأعمال بسرعة وبشكل سيئ ثم طرحها في الأسواق.

وفي الواقع لم يكن الكتاب يحتجون على هذا لشعورهم بالغنى، إذ أنهم كانوا نادرا ما يأخذون تعويضات مادية من الناشرين، بل كانوا يتضايقون لمستوى النسخ السيئ بالذات.

جـ- الحد الأعلى لعدد النسخ

من الصعب علينا أن نكون صورة واضحة، بالاستناد إلى الأخبار المتفرقة وغير المترابطة التي نجدها في مؤلفات الكتاب القدامى، عن الحد الأعلى لعدد النسخ عن كتاب ما، وربما من الأصعب بالاستناد إلى هذه المعطيات أن نعرف عدد النسخ التي صدرت لكتاب ما خلال وقت محددة.

وقد رأينا سابقا كيف أنه في عملية النسخ كان يشارك النساخ المحترفون والأفراد وحتى الناشرين غير الشرعيين، مما يجعل من الصعب تكوين صورة تقريبية عن عدد النسخ التي قدمت للسوق خلال وقت محدد. وقد كان الناشرون بأنفسهم يحرصون على معرفة الوضع في السوق قبل أن يقرروا إصدار كتاب ما نظرا لارتفاع سعر المواد وارتفاع أجرة اليد العاملة، ولذلك كانوا يصدرون من الكتاب عددا من النسخ التي حاولوا التأكد مسبقا من بيعها خلال وقت قصير نسبيا. وخلال العصر الهلنستي والقرون الأولى للإمبراطورية الرومانية، حين كانت شبكة توزيع الكتاب منظمة بشكل جيد وكان الطلب على الكتاب كبيرا نسبيا، كان يمكن للناشر أن يعتمد في حساباته على بيع عدة مئات من النسخ لكتاب مؤلف معروف. ويعتقد هنا أن كتب أمثال هؤلاء المؤلفين كانت تصدر في حوالي 500 نسخة، بينما كانت تصدر كتب أشهر المؤلفين في حوالي ألف نسخة.

ونجد لدى بلين معلومة تذكر هذا العدد بالذات، أي ألف نسخة. وقد كان الأمر هنا يتعلق بأحد الأغنياء الرومانيين الذي كتب بنفسه سيرة ابنه المتوفى ثم أصدرها على نفقته ووزعها على شخصيات مختلفة في روما وبقية أرجاء الإمبراطورية. وفي الواقع أن بلين ينتقد هذا التصرف للأب لأنه يعتقد أن ليس من المناسب أن يطبع كتاب من هذا النوع في هذا العدد الكبير من النسخ.

ومن بيع الكتاب كان الناشر يقرر هل سيستمر في إصدار نسخ إضافية من الكتاب أم لا، أي أن الإصدار الأول يمكن أن يزداد إذا كان هناك في السوق طلب على الكتاب.

د- باعة الكتب وتوزيع الكتاب

حين ينتهي النساخون من عملهم، وحين يجلد الكتاب ويجهز للبيع، يحرص الناشر حينئذ على أن يصل كتابه إلى أيدي القراء. وكان الناشر يوزع قسما من النسخ كهدايا ويرسل القسم الأكبر إلى البيع. وكان الناشر يقوم أحيانا ببيع الكتاب بنفسه، إلا أنه غالبا ما كان يترك ذلك إلى باعة الكتاب. وفي الحقيقة فقد كان هناك نوع من التداخل بين عمل الناشرين وعمل باعة الكتب خلال العصر القديم كله.

وقد مر معنا على كل حال كيف أنه منذ القرن الخامس ق. م برز في أثينا باعة الكتب الذين أقاموا دكاكينهم في ساحة المدينة (الأغورا). وفي الواقع لقد كان دور هؤلاء في ذلك الوقت أكبر بكثير من دورهم في الأوقات اللاحقة لأنه في ذلك الوقت لم تكن هناك أماكن أخرى يمكن الحصول منها على كتاب أو التزود بمعلومات عن كتاب ما. ومع ذلك لم يكن عدد باعة الكتب كبيرا في اليونان الكلاسيكية، بينما من الصعب أن نتحدث عن وجود شبكة منظمة لتوزيع الكتاب حتى القرن الرابع ق. م ففي ذلك الحين برز باعة الكتب في بقية المراكز الثقافية كرودوس وغيرها. وفي ذلك الوقت أيضا برز في المدن اليونانية باعة الكتب المتجولين، الذين كانوا يحملون بضاعتهم إلى عدد متزايد من المشترين. وقد تضخم أخيرا دور باعة الكتب كوسطاء بين الناشرين-الناسخين وبين المشترين في العصر الهلنستي نظرا لتوسع سوق الكتاب في الكثير من المراكز الثقافية التي تطورت بعد موت الإسكندر المقدوني. وقد زاد كثيرا الطلب على الكتاب نتيجة لتأسيس المكتبات الكبرى في الإسكندرية وبرغام وإنطاكية وغيرها من مدن العصر الهلنستي، ثم نتيجة لازدياد الاهتمام بالكلمة المكتوبة في كل العالم اليوناني. وقد أصبحت الإسكندرية بالذات في العصر الهلنستي أكبر سوق للكتاب. وقد كان هذا في الواقع نتيجة لطموح البطالمة في أن يجعلوا منها المركز الثقافي للعالم اليوناني، ونظرا لوجودها في دلتا النيل حيث كان ينمو البردي مما كان يجعل في الإمكان أن تتزود ورش النسخ في أي وقت بكميات غير محدودة من ورق البردي، الشيء الذي لم يكن متوفرا في أي مركز آخر في حوض البحر الأبيض المتوسط. وقد بقيت الإسكندرية أكبر منتج وسوق للكتاب حتى بعد أن أصبحت في إطار الإمبراطورية الرومانية، حيث ستنافس

بنجاح روما مدة من الوقت.

أما فيما يتعلق بروما فليست لدينا معطيات وافية عن أصحاب المكتبات حتى نهاية العصر الجمهوري، حين تردنا أول الأخبار عن باعة الكتب وعن دكاكينهم في روما. وقد كان يطلق على هؤلاء في اليونانية bibliopola بينما أطلق عليهم الرومانيون اسم Librarii وقد كان بومبون آتيك أول من نعرفه من أولئك الذين كانوا يتعاملون ببيع الكتاب، بالإضافة إلى نشاطه في النشر.

وفي الواقع لقد استمر هذا التداخل بين نشر الكتب وبيع الكتب إلى وقت لاحق. ولكن في روما نفسها كان هناك الكثير من باعة الكتب المحترفين الذين كانوا يقيمون دكاكينهم (taberna libraria) في أكثر المناطق ازدحاما في المدينة.

وقد ذكر الكتاب الرومانيون وجود باعة الكتب في عدة أماكن من المدينة كما في الساحة الرومانية ثم في ساحة قيصر وساحة فسبازيان القريبتين وغيرها. وكما في أثينا فقد كان المثقفون يجتمعون أيضا في روما حول هذه الدكاكين للاهتمام بالكتب الجديدة، وللتحدث عن الأمور الجديدة في سوق الكتب، والاستماع إلى إلقاء الشعراء وغيرهم من الكتاب الذين كانوا يروجون بهذا الشكل كتبهم الجديدة. وقد كان باعة الكتاب يجعلون واجهة دكاكينهم باتجاه الشارع، أي كبقية الدكاكين. ولكي يلفتوا انتباه المارة فقد كان باعة الكتب يعلقون إعلانات تتضمن قوائم الكتب المتوفرة للبيع، كما كانوا يعرضون على طاولة أمام الدكان الكتب بحيث يراها المارة المشترون المحتملون. ولم يكن باعة الكتب يقصرون في ملاحقة الزبائن عن جيرانهم باعة الفواكه والقماش إلخ.

وقد توسعت شبكة بيع الكتب مع توسع الدولة الرومانية بحيث أنه في نهاية العصر الجمهوري أصبح يمكن شراء مؤلفات الكتاب المعروفين في أقصى المقاطعات النائية. والى جانب المراكز الثقافية اليونانية القديمة في حوض البحر الأبيض المتوسط فقد برزت مراكز جديدة في بلاد الغال وبلاد الاليريين Iliria[(2*)] وغيرها، حيث ساهمت هذه في تنشيط عمل

(2*) الأليريون: هم سكان البلقان القدامى وأجداد الألبانيين الحاليين.

(المترجم).

الناشرين وباعة الكتب-سواء في روما أو في المناطق: ذاتها-نتيجة لطلبياتها من الكتب. ونظرا لهذا فقد أصبح في الإمكان شراء الكتب في اللغة اليونانية واللاتينية في كل أرجاء الدولة الرومانية. هكذا، على سبيل المثال، نجد أن بلين يتعجب في رسالة إلى صديقه غمين كيف أن كتبه تباع حتى في مدينة لودغونوم (ليون الحالية) في بلاد الغال: «لم أصدق أنه توجد دكاكين لبيع الكتب في لودغونوم، وسررت أكثر حين عرفت في رسالتك أن كتبي تباع هناك أيضا. ويسرني أن كتبي لها شعبية هناك في روما». أما الكتاب الآخرون فلا يستغربون أبدا لكون كتبهم تباع في أقصى المناطق بل أنهم يعتبرون هذه حقيقة مفهومة في حد ذاتها، ولا يخفون أحيانا افتخارهم بهذا. وهكذا نجد مثلا أن أوفيد الغاضب والمهان بسبب قرار الإمبراطور أوغسطس بنفيه إلى مدينة توما البعيدة على البحر الأسود، يؤكد بافتخار لروما وللقيصر بأن شعره على الرغم من ذلك سيسمع صداه في كل العالم من الشرق إلى الغرب.

ويتفاخر أيضا هوراس ومارسيال وغيرهم بأن كتبهم تقرأ في كل أرجاء الإمبراطورية. وفي الواقع أن هذا ليس مجرد تفاخر فارغ بل أنه تعبير عن الوضع السائد فيما يتعلق بشبكة توزيع الكتاب. ففي عهد الإمبراطورية الرومانية كانت هذه الشبكة منظمة إلى حد أن الكتاب، كأية سلعة أخرى،. كان ينتقل بسرعة ويصل إلى كل أرجاء الإمبراطورية الواسعة.

وقد بقيت في شبكة توزيع الكتاب تقوم بعملها على نحو رائع إلى أن أخذت الهجمات البربرية والمصاعب السياسية الأخرى تهز الحياة الاقتصادية والثقافية للإمبراطورية، والى أن أخذت الطرق-شرايين الإمبراطورية الرومانية-تصبح غير سالكة أو غير آمنة.

وفي الواقع لقد انعكست الأزمة التي غطت الإمبراطورية، وخاصة منذ القرن الثالث الميلادي، على عمل شبكة توزيع الكتاب أيضا.

وعلى الرغم من ذلك فقد بقي الكتاب يشق طريقه إلى القراء حتى في تلك الأيام الصعبة في أواخر عهد الإمبراطورية الرومانية. وكمثال على ذلك نذكر هنا كتابات القديس يورينيم وغيره من الكتاب المسيحيين، التي تمكنت بفضل الدعاة المتحمسين للمسيحية أن تصل إلى القراء في أقصى الأماكن.

هـ- ثمن الكتاب

حاول الباحثون في أيامنا أن يجيبوا على السؤال فيما إذا كانت الكتب رخيصة أم غالية في العصر اليوناني والروماني، إلا أن أجابتهم لم تكن شافية.

وفي الواقع لقد ذكر لنا كتاب العصر الوسيط في أماكن متفرقة ثمن هذا أو ذلك الكتاب، وتحدثوا بمفاهيم ذلك العصر عن كون الكتب رخيصة أو غالية، إلا أن كل هذه المعطيات لا تكفينا لتكوين صورة واضحة عن ثمن الكتاب حتى في ذلك العصر الذي تعود إليه هذه المعطيات. وتبدأ الصعوبات هنا بمحاولة تحديد ثمن مواد الكتابة، أي ورق البردي والرق. وفيما يتعلق بثمن ورق البردي فلدينا معطيات لا بأس بها منذ القرن الخامس ق. م، إلا أننا لا نعرف فيما إذا كان هذا الثمن مناسبا للقدرة الشرائية لشرائح معينة من السكان.

أما بالنسبة للرق فالصعوبة تكون أكبر لدى تكوين صورة واضحة عن ثمنه لأنه كان يصنع في البيوت ولأنه في بعض أطراف العالم اليوناني- الروماني كان يباع بثمن أرخص من ورق البردي المستورد.

إلا أن هذا كان يتغير من وقت إلى وقت ومن عصر إلى عصر، أي أن ثمن الرق كان يرتبط بالزمان والمكان.

وبشكل عام يعتقد أن الكتاب لم يكن غاليا كثيرا لا في العصر اليوناني ولا في العصر الروماني. وفي الواقع فقد كان من يشتري الكتاب عادة هم أولئك الذين لا يملكون الكثير من المال مما كان يحتم على باعة الكتب أن يأخذوا هذا بعين الاعتبار. ومن ناحية أخرى لم يكن للكتاب ثمن محدد بل كان يباع ككل سلعة أخرى بالاستناد إلى قوانين العرض والطلب. لهذا لا توضح لنا الكثير تلك المعلومة التي ذكرها مارسيال عن أن كتابة «كسنيا» كان يباع بأربعة سسترسات(*3) بينما كان يباع كتاب آخر له بخمسة دنانير. وهناك ملاحظات أخرى أكثر فائدة، أدلى بها بعض الكتاب، وتتعلق بالثمن المرتفع للمؤلفات القديمة للكتاب المعروفين، وهو الثمن الذي يعتبر مرتفعا حسب القناعة العامة في ذلك الوقت. ومن المعروف أن كتب بعض الناشرين،

(*3) السترس Sestercius عملة رومانية قديمة

(المترجم).

كبومبون أتيك وغيره، كانت تثمن عاليا.

وعلى الرغم من هذا، وبالاستناد إلى كل ما نعرفه، يمكن القول إنه في العصر القديم كان غير الأغنياء قادرين على شراء الكتاب، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بكتاب متواضع دون تجليد فاخر ودون تزيين أو أي شيء آخر يرفع من ثمن الكتاب. وبعبارة أخرى لم يكن ثمن الكتاب في العصر القديم غاليا إلى حد أن يتحول إلى عقبة أمام انتشار الكلمة المكتوبة.

4-الكتب غير المرغوبة والتخلص منها

أ- الكتب غير المرغوبة في اليونان

بعد أن أخذ التفكير الحر يتطور في اليونان، وبعد أن أخذ الفلاسفة والكتاب الآخرون يتناولون الموضوعات الاجتماعية والفلسفية من جوانب مختلفة، وبعد أن انفصل الفكر عن خدمة العقيدة والسلطة (كما جرى في مصر وبلاد الرافدين) كان من المتوقع أن يدخل الكتاب وكتبهم في صراع مع سلطات الدولة. وفي الواقع لقد برز هذا الصراع أولا في أثينا، أي في المدينة-الدولة الأكثر ديمقراطية في العالم اليوناني.

وقد سجل لنا القرن الخامس ق. م أول حادثة مصادرة كتاب وإحراقه. فقد ذكر لنا دوجين لاحقا في القرن الثالث الميلادي، وهذا ما يدفع البعض إلى الشك بحقيقة الأمر، أن كتابات الفيلسوف بروتاغورا (حوالي 481- 411 ق. م قد أحرقت بشكل علني في ساحة أثينا (الأغورا) سنة 411 ق. م، بينما تعرض المؤلف نفسه إلى المحاكمة وحكم عليه بالنفي. وقد حدث هذا حينئذ لأن بروتاغورا قد شك في وجود الآلهة في كتابه «عن الآلهة». وكان بروتاغورا قد بدأ مؤلفه بالجملة المشهورة التي أثارت غضب مواطنيه: «بالنسبة للآلهة لا أستطيع أن أقطع بوجودهم أو عدم وجودهم..» ومع أن بروتاغورا قد عبر عن مجرد شك في وجود الآلهة، أي دون أن يؤكد هذا الشك بشكل قاطع، إلا أن هذا كان كافيا بالنسبة لسكان أثينا لكي يصفوا الحساب معه ومع كتابه بشكل عنيف.

وفي الواقع أن هذه الحادثة تبدو مثيرة لعدة أسباب. فمع هذه الحادثة تبدأ سلسلة طويلة من حوادث مصادرة وإحراق الكتب، تلك التي ستصبح جزءا لا يتجزأ من تاريخ الكتاب منذ أقدم الأزمان وحتى هذه الأيام. ويلاحظ

هنا أن هذه الحادثة وقعت في لحظة أزمة، وبالتحديد خلال حرب البيلوبنيز، وسيثبت التاريخ لاحقا أن إحراق الكتب وملاحقة الكتاب يتم غالبا في أوقات الأزمات حين تصبح السلطات حساسة جدا من الأفكار «المعادية» للدولة. وبغض النظر عن أن السلطات الرسمية أو الدينية يمكن أن تخلق وضعا متأزما لتبرير حساسيتها إزاء الأفكار «الخطرة» على الدولة، لا يمكن أن ننفي وجود الصلة المتبادلة بين الأزمات الاجتماعية-سواء كانت حقيقية أم مفتعلة-وبين إحراق الكتب وملاحقة الكتاب.

وهناك تفصيل مهم آخر يجعل من هذه الحادثة كإحراق كتاب بروتاغورا، عبرة لمن يريد أن يعتبر. فعلى الرغم من إحراق كافة نسخ هذا الكتاب التي وجدت حينئذ في أثينا إلا أن هذا الكتاب بقي يقرأ في العهود اللاحقة.

وربما يعود هذا إلى أن سلطة أثينا لم تكن تشمل المدن اليونانية الأخرى، حيث كانت توجد نسخ من هذا الكتاب أو أن الكتاب بقي ينسخ هناك، أو ربما قام أحدهم في أثينا بالذات بإخفاء الكتاب والحفاظ عليه نظرا للمصير المفاجئ الذي تعرض له المؤلف. وعلى كل حال سيثبت لنا التاريخ مدى ميل الناس الغريزي للاحتفاظ بالكتب الممنوعة بالذات.

ومن ناحية أخرى كان يحدث أحيانا أن يحتفظ أولئك الذين يحرقون الكتاب بنسخ منه على سبيل «التوثيق».

ومع كل هذا لا بد من القول أن ما حدث لكتاب بروتاغورا كان شيئا نادرا في اليونان، بل شيئا استثنائيا. ففي ذروة ازدهارهم الثقافي كان اليونانيون ليبراليين للغاية إزاء أفكار فلاسفتهم وأدبائهم، وهذا هو أحد الأسباب في أن الثقافة اليونانية أثمرت أنظمة فلسفية مختلفة وإنجازات خصبة في الأدب والعلم. فالأفكار التي كان يخرج بها الفلاسفة والكتاب اليونانيون، وحتى حين كانت تهدد بالفعل القيم السائدة في المجتمع، لم تكن تلاحق كما قد يتوقع المرء باستثناء بعض الحالات النادرة. ومن بين هذه لدينا حالة فيلسوف أثينا المعروف سقراط، الذي أتهم بأنه «لا يعتقد في الآلهة التي تؤمن الدولة بها ويفسد الشباب»، مما اضطره أخيرا إلى شرب السم.

وعلى الرغم من هذا التسامح فقد ولدت لأول مرة في اليونان بالذات الفكرة القائلة بالحاجة إلى ممارسة الدولة للرقابة. وفي الواقع لم تكن

وراء هذه الفكرة أيديولوجي متزمت أو مسؤول براغماتيكي بل أحد الفلاسفة. ففي كتابه «الدولة» يبلور الفيلسوف الكبير أفلاطون هذه الفكرة ويدعو إلى تطهير بعض أعمال الشعراء في تلك المواضع التي لا تساعد على نمو الشباب الأصحاء في الأجسام والأذهان، أو التي تثير لدى مواطني دولته المثالية بعض الأفكار التي تتعارض مع المبادئ الأخلاقية لهذه الدولة. ومن بين هذه الأعمال التي يجب أن تطهر، حسب رأي أفلاطون، نجد ملاحم هومير والمسرحيات اليونانية.

ب- ملاحقة الكتاب في الدولة الرومانية

لم يكن الوضع في روما كما في أثينا إذ أن الكتاب كانوا يعاملون هنا بعنف أشد. فقد كان يحكم بالإعدام أو بالنفي على كل كاتب يتجرأ على السخرية من ممثلي السلطة أو على التشكيك بالمبادئ الأساسية الاجتماعية-الأخلاقية التي تقوم عليها الدولة الرومانية.

وهكذا فقد كان من المستحيل في عهد الإمبراطورية التوقيع باسم صريح على الأعمال التي تتضمن الهجاء السياسي، خاصة إذا كان العمل يتعرض للإمبراطور أو إلى أفراد أسرته، إذ أن مجرد التلميح للسلطة الإمبراطورية كان يقود مؤلفه إلى الموت أو النفي في أحسن حال. وقد كان من الطبيعي أن يحدث هذا في الدولة التي تتمركز فيها كل السلطة في يد شخص الإمبراطور، والتي يقوم فيها الانتهازيون والمهرجون بالتأكيد على عصمة الإمبراطور من الخطأ، وعلى إقناعه بأنه لم يعد من الأشخاص بل من الأرباب حتى أنهم يبنون له المعابد وهو على قيد الحياة. ولم يمض وقت طويل حتى أخذ الأباطرة أنفسهم يؤمنون بهذه الأمور ويتصرفون كأنهم أرباب على وجه الأرض.

إن مصير الخطيب المعروف تيتوس لابينوس في عهد الإمبراطور أوغسطس أفضل مثال لعاقبة التعرض بالنقد لهؤلاء الأرباب أو للتشكيك في قناعات هؤلاء الأرباب ومعاونيهم. فقد كان لابينوس من أنصار بومبي ولم يكن يخفي اتجاهه السياسي في خطبه وكتاباته. إلا أن المسكين لم يدرك أن عهد الجمهورية قد انقضى، حيث كان الخطباء يعبرون بحرية عن أفكارهم السياسية ولذلك فقد انقض عليه كالصاعقة قرار مجلس الشيوخ بحرق كتبه بشكل علني في روما. ونظرا لأنه لجأ للانتحار بعد هذا

القرار فقد أصبح لابينوس أول روماني يدفع رأسه ثمنا لما كتبه.

كان الرومانيون غير معتادين بعد على مثل هذه الأمور ولذلك اتسمت ردة فعلهم بالغضب. أما الكاتب سنيكا فقد كتب عن هذا وتنبأ بنوع من التشفي بأن ذلك الذي رفع قرار الاتهام ضد لابينوس، وهو أحد الرومانيين المجهولين بالنسبة لنا، سيتعرض إلى نفس المصير وهو الشيء الذي حصل له فعلا.

وكان الإمبراطور أوغسطس نفسه يحب الأدب ويحترم الفن كثيرا، ويرغب بمصاحبة الكتاب والاستماع إلى أعمالهم ومناقشتهم، إلا أنه أنهى عهد التسامح في الدولة الرومانية ببعض قراراته التي تتعلق بمفهومه عما هو جيد، وما هو سيء لهذه الدولة. وهكذا فقد كان مصير لابنيوس، ثم مصير الخطيب كاسيوس سيفر الذي أحرقت كتبه وحكم عليه بالنفي وغيره من الكتاب، يصور لنا مدى التغيرات التي طرأت على تفكير الأباطرة فيما يتعلق بالمجال المسموح للكتاب لكي لا يمسوا استقرار الدولة.

وكان الإمبراطور أوغسطس أيضا أول من حارب أدب الإثارة الجنسية لأنه كان يرى في هذا الأدب أحد أسباب الانحدار الخلقي في المجتمع الروماني. ولا بد من الاعتراف بأنه كانت لديه ما يكفي من الأسباب لحساسيته من الانحدار الخلقي في قمة المجتمع الروماني، حيث إنه لم يسلم من هذا حتى أقرب أفراد أسرته. وهكذا في كفاحه ضد الانحدار الأخلاقي أمر الإمبراطور أوغسطس بسحب أدب الإثارة الجنسية من المكتبات العامة. وبعبارة أخرى، إن الإمبراطور أوغسطس لم يأمر بمنع قراءة هذا الأدب لأنه ذكيا بما فيه الكفاية ليعرف أنه لا يمكن أن يطبق أمر من هذا النوع.

وعلى كل حال فإن هذا القرار مهم في مسار تاريخ الكتاب إذ أنه على ما نعرفه أول قرار ينص على سحب كتب من المكتبات العامة نظرا لأن سلطات الدولة تعتبرها خطرة على السلامة الروحية لمواطنيها.

إلا أن الإمبراطور أوغسطس لم يكتف بملاحقة الكتب فقط بل تحول أيضا إلى ملاحقة الكتاب. وهكذا لم يوفر أوغسطس حتى أوفيد العظيم، الذي حكم عليه بأقسى ما يمكن، بالنفي إلى مدينة توما البعيدة، لكي لا يفكر بعد ذلك بتأليف كتب تفسد الشبيبة الرومانية. ولا بد هنا من الاعتراف

أن أوغسطس حقق ما كان يريده إذ أن أوفيد تخلى عن كتابة أدب الإثارة الجنسية وتحول إلى كتابة مؤلفات شعرية تنبض بالألم على فقدانه للحياة الهنيئة في روما. وفقد لفت النظر إليه مؤلف آخر من مؤلفي أدب الإثارة الجنسية، ألا وهو كورنيل غال أحد كبار موظفي الدولة في مصر وأحد أشهر شعراء الحب في ذلك الوقت، وقد أضطر هو الآخر للانتحار عندما صدر الأمر بتقديمه للمحاكمة.

ولكن هذه الحملة ضد أدب الإثارة الجنسية كانت عاجزة عن استئصال ما هو موجود من هذا الأدب أو منع الكتاب من كتابة أدب من هذا النوع. وحتى في نهاية الإمبراطورية الرومانية، حين بدأ المسيحيون حملتهم ضد هذا الأدب بحماس كبير، كان هناك الكثير ممن ينسخون ويقرأون هذا النوع من الأدب بشكل خفي.

وبهذا فقد أثبت هذا النوع من الأدب مقاومة كبيرة ومستمرة للمنع والملاحقة، بحيث أن هذا الطابع الجنسي المثير لأعمال أوفيد وبترون وغيرهم هو الذي جعل هذه الأعمال تنجو من كل قرارات المنع وتصل إلى أيدينا أخيرا.

وفي الحقيقة أن هذا النوع من الأدب لم يضايق كثيرا الأباطرة اللاحقين، إلا أن هؤلاء كانوا مستعدين لملاحقة الكتاب وكتبهم بحماس كبير فيما لو تجرأ هؤلاء على مس الدولة أو الإمبراطور أو الدين. وقد كان يكفي مجرد الشك بأن كتابا ما يتضمن مفاهيم سياسية غير مرغوبة لكي يقدم مؤلفه للمحاكمة. وقد حدث هذا للكاتب كرموس كوردا الذي مدح في أحد كتبه قتلة يوليوس قيصر باعتبارهم «آخر الرومانيين» ومع أن كوردا دافع. عن كتابه أمام مجلس الشيوخ إلا أن المجلس حكم على الكتاب بالحرق العلني. وقد بقيت نسخة واحدة من الكتاب لدى ابنة المؤلف مما ساعد هذا لاحقا، في عهد الإمبراطور كاليغولا، على أن يصدر الكتاب ثانية.

وكان الإمبراطور كاليغولا (12-41 م) قد بدأ حكمه بروح ليبرالية إذ أنه سمح بقراءة مؤلفات الكتاب التي أدينت سابقا. إلا أنه في وقت لاحق، خاصة بعد أن أخذت تبدو عليه مظاهر الجنون، اتخذ قرارات تتعلق بسحب الكتب من المكتبات العامة وحتى تماثيل فيرجيل وتيت ليفي، بل إنه كان يفكر في التخلص من أعمال هومير.

إلا أن الحكم على كتاب ما بالحرق أو على مؤلف ما بالنفي كان يؤدي أحيانا إلى نتيجة عكسية. فحالة فابريتسي فيينتون تكشف لنا عن مغزى كبير، ويفوقها في ذلك التعليق الذي كتبه تاسيت عن هذه الحالة. فقد كان فيينتون، على ما يرويه لنا تاسييت، قد مس في كتابه رجال الدين ورجال مجلس الشيوخ مما دفع الإمبراطور نيرون إلى نفيه من إيطاليا وإلى حرق كتبه بشكل علني. وفي هذه الحالة تصرف نيرون كحاكم عادي يملك من القوة ما تجعله يفعل ما يعتقده مفيدا للحفاظ على هيبة رجال الدين ورجال مجلس الشيوخ. إلا أن نيرون لم يتصرف هنا كحاكم ذكي لأنه كان يجب أن يعرف أن أي تصرف من هذا النوع لا يستطيع أن يمنع الناس من قراءة المؤلفات التي تدان، بل إنه على العكس يثير رغبة الناس لقراءة هذه المؤلفات. وما قد خفي على هذا الحاكم المتكبر كان واضحا للكاتب تاسييت، الذي أورد في تاريخه تعليقا ممتازا: «حين يصدر أمرا بإحراق كتاب فإن هذا الكتاب يصبح مرغوبا ومطلوبا خلال فترة منعه، بينما لسقط في النسيان بعد أن يسمح بقراءته» ومن الحالات اللاحقة، وهي كثيرة على حال، لا بد أن نذكر واحدة منها نظرا للتفاصيل المثيرة التي ترتبط بها.

فقد ألف الكاتبان يونيوس أرولنوس روستيكوس وهيرينوس سينيكيو عدة كتب دفعت الإمبراطور دوميسيان (51-96 م) إلى أن يطردهما من روما وأن يأمر بحرق كتبها بشكل علني في ساحة المدينة (الفوروم). وقد أثارت هذه الحالة الكاتب تاسيت إلى أن يكتب بغضب: «يعتقدون أنهم بهذه النار سيقضون على صوت الشعب في روما وعلى حرية مجلس الشيوخ وعلى ضمير الجنس الإنساني». وكما يحدث كثيرا في التاريخ فقد وجد في هذه الحالة أيضا من يريد أن يكسب من شقاء الآخرين. وهكذا أراد أحد أصحاب النفوس المريضة، أكوليوس رغولوس أن يتقرب إلى الإمبراطور دوميسيسان فشن هجوما لا يرحم ضد هذين الكاتبين. ومع أن مقاله الهجومي لم يحفظ إلا أنه ليس من الصعب، أن يتصور المرء مضمونه أو لهجته لأن هذا المضمون وهذه اللهجة، وحتى الكلمات ذاتها غالبا، ستستخدم دائما من قبل ضعاف النفوس للإساءة إلى معارضي أسيادهم.

وفي الفترة الأخيرة من حياة الإمبراطورية عايش الكتاب لحظات صعبة بالفعل. ففي زمن الأزمة العامة للإمبراطورية الرومانية، ، حيث خرجت

إلى السطح التناقضات الاجتماعية والأيدلوجية بكل قوتها، أصبح إحراق الكتب، والمكتبات مظهرا عاديا من مظاهر الحرب الدينية والسياسية. ففي البداية كانت السلطة تحرق كتب المسيحيين، وعندما تسلم المسيحيون السلطة أحرقوا الكتب الوثنية وخاصة كتب العقائد الهرطقية، التي غطت في ذلك الحين أرجاء الإمبراطورية الرومانية.

ففي سنة 303 م أصدر الإمبراطور ديوكلسيان مرسومه الشهير ضد المسيحيين حيث أمر بإحراق كتبهم. وتؤكد الكثير من الأدلة أن هذا الأمر قد نفذ في كل أرجاء الإمبراطورية ولكنه لم ينفذ دون مقارنة. فقد كان بعض الأساقفة يفضلون الذهاب إلى الموت على الاستسلام لهذا المرسوم والسماح بإحراق كتبهم المقدسة. وهكذا مثلا تصرف الأسقف فيليكس بمدينة تيبيوكا في نوميديا وغيره أيضا. ولدينا أسطورة تقول أن الأسقف فوتدانوس، من نوميديا أيضا، قد حظي بحظ أفضل. فقد سلم هذا الأسقف الكتب المقدسة إلى ممثل السلطة لكي يحرقها وحين أراد هذا إلقائها في النار هطل المطر من السماء الصافية ليطفأ النار ولينقذ الكتب المقدسة.

وقد تصرف الكثير من الأساقفة على نحو ما فعل فوندانوس، أي أنهم سلموا الكتب إلى ممثلي السلطة، ولكن نظرا إلى أن المطر لم يهطل دائما لإطفاء النار فقد تحولت الكثير من كتبهم إلى رماد.

إلا أن الأدوار تغيرت بسرعة. فقد أخذ الأباطرة الذين اعتنقوا المسيحية في إصدار المراسيم بإحراق الكتب الخطرة. وفي هذه الحالة لم تعد الكتب المسيحية مطلوبة للحرق بل الكتب الهرطقية وأحيانا الكتب الوثنية.

وكان المسيحيون في القرون الأولى للإمبراطورية الرومانية، حين كان عليهم أن ينقذوا كتبهم وأحيانا رؤوسهم، يواجهون الكتاب الهرطقي والوثني بالكلمة فقط، أي بالمقالات السجالية. فقد كانوا يوجهون هجومهم ضد أولئك الذين يعتبرونهم أكثر خطرا من الناحية الأيديولوجية، أي الذين لم يكونوا في موقع المعارضة للسلطة والهرطقة. وفي الواقع لم يكن الهراطقة، أعضاء الطوائف الدينية التي كان يعتبرها المسيحيون هرطقية، بمنأى عن ملاحقة السلطة. وهكذا فإن الإمبراطور ديوكلسيان كان قد أصدر سنة 297 مرسوما ضد المانويين نص على إحراق كتبهم وحتى إحراق زعيمهم الروحي. وقد زادت الأزمة الاجتماعية من حدة العلاقات بين الأديان المختلفة

ثم ملاحقات هذه الأديان بالسلطة من ناحية أخرى. وهكذا فإن الخط المتشدد للمسيحيين إزاء الهراطقة بعد عهد الإمبراطور قسطنطين، أي بعد أن تسلموا السلطة، كان مجرد استمرار لسياسة الدولة إزاء الأيديولوجيات الأخرى غير المرغوبة، التي كانت تزيد من ضعف الدولة الرومانية. ففي القرنين الرابع والخامس الميلادين أصدر الأباطرة عددا كبيرا من المراسيم ضد هذا المذهب الديني أو ذاك التي تنص على حرق كتب هذه المذاهب الدينية. وقد ركز المسيحيون حربهم، التي أصبحت تتم الآن بواسطة أجهزة الدولة، ضد الكتب التي كانت تعارض التعاليم الرسمية المسيحية (الأرثوذكسية)، بينما لم تعد كتب المؤلفين الوثنيين اليونانيين والرومانيين تتعرض لمثل هذه الملاحقة العنيفة.

وفي الواقع فقد طالب بعض الكتاب المسيحيين منذ القرن الثالث الميلادي بالتخلص من بعض مؤلفات التراث اليوناني-الروماني.

وقد كان الكاتب المعروف إيسوب، على سبيل المثال، يعتقد بضرورة التخلص من كل الكتب التي تتضمن موضوعات ميثولوجية. إلا أن هذا الاقتراح، كغيره من الاقتراحات، لم ينفذ أو على الأقل لم يطبق فورا لأن المسيحيين، بعد أن تسلموا السلطة، كان لديهم ما هو أهم من محاربة الكتب الوثنية، التي لم تكن تمس العقيدة المسيحية باستثناء بعض الحالات. وبالإضافة إلى هذا فقد كان المسيحيون المثقفون في ذلك الوقت لا يزالون تحت تأثير الأدب الوثني إلى حد أنهم كانوا يدافعون عنه، ويحفظونه من الفناء. وبفضل هذا الموقف للمفكرين المسيحيين في نهاية العصر القديم وبداية العصر الوسيط فقد بقيت الكتب الوثنية تنسخ في ورش النسخ المسيحية إلى جانب الكتب المسيحية، مما أبقى على هذا الكتب حتى يومنا هذا.

إلا أن الأمر كان يختلف مع كتب الهراطقة وكتب المؤلفين الوثنيين الذين كانوا يتعرضون للمسيحية بشكل مباشر. ومن هؤلاء كان الفيلسوف فورفوريوس من صور (234 حوالي 304) الذي أثار كتابه «ضد المسيحيين» غضب المسيحيين. ونظرا لانتقاداته العنيفة وأدلته المحرجة ضد الكتاب المقدس، وخاصة ضد القديس بولس، فقد وجد فورفوريوس نفسه في مرمى سهام الكتاب المسيحيين. إلا أن بروفير لم يلحقه شئ، كما لم يلحق

كتابه أي شئ، طالما كان المسيحيون يردون على أدلته بأدلة مضادة. ولحسن حظ فورفوريوس فقد توفي قبل أن يتمكن المسيحيون من الوصول للسلطة وتصفية الحساب معه بشكل آخر. وكان الإمبراطور قسطنطين أولا قد أصدر مرسوما يقضي بحرق كتاباته، إلا أن كتابه ضد المسيحيين بقي يثير المتاعب لأن بعض الكتاب كانوا في مقالاتهم السجالية يستشهدون بأدلته ضد المسيحيين، بينما توجب على المسيحيين أن يردوا على هذه بأدلة أخرى حتى أن القديس يرونيم نفسه اضطر للمشاركة في هذه السجلات. وقد بقي الأمر هكذا بين أخذ ورد إلى أن أصدر الإمبراطور تيودوس الثاني (408- 450 م) مرسوما خاصة في سنة 448 يقضي بخرق كل نسخ الكتاب الذي ألفه فورفوريوس. وفي هذه الحالة نفذ هذا المرسوم بشكل جذري حتى أنه لم يصلنا من هذه الكتب إلا بعض المقاطع.

ولكن كان هناك الكثير من الكتاب الذين لم يحظوا بهذا «الشرف»، أي أن يصل أمرهم إلى الإمبراطور نفسه.

فقد كانت السلطات المحلية والأساقفة، وحتى المؤمنين، يقومون دون رحمة ودون انتظار مرسوم إمبراطوري بإحراق كتب المانويين والأريوسيين والنسطوريين وغيرهم. وهكذا فقد أصبح حرق الكتب أمام الكنائس أسلوبا عاديا لتصفية الحساب مع هذه المذاهب الدينية. وبالطبع فلم يكن يقتصر الأمر على حرق الكتب، بل شمل أيضا تدمير المعابد والتماثيل والمدارس وحتى رجال التعليم في المدارس ورجال الدين في المعابد. أما في تلك المناطق التي دان يمسك فيها أعداء المسيحيين بالسلطة السياسية فقد كان يحدث العكس، أي أن كتب المسيحيين هي التي كانت تتعرض للحرق. وهكذا فإن ملك الفاندال في أفريقيا الشمالية، الملك هونريخ (477-484) الذي كان يعتنق المذهب الأريوسي، أصدر مرسوما يقضي بحرق كتب المسيحيين.

وفي ذلك العهد الذي كان يتميز بالتناقضات الحادة الدينية والسياسية تبدو ظاهرة جديدة تتمثل في حرق مكتبات بكاملها. ففي العهود السابقة كانت تحرق كتب معينة كنوع من الإدانة للمؤلف وكتحذير للآخرين وكرمز للقضاء على شيء معين تحتويه تلك الكتب. ولكن فيما بعد جاء عهد آخر أصبحت فيه مكتبات بكاملها رمزا لهذا الشيء. وهكذا فإن الإمبراطور يوقيان (363-364 م)، الذي تولى عرش الإمبراطورية الرومانية الشرقية من

يوليان، أصدر أمرا بحرق مكتبة بكاملها في إنطاكية تحتوي على كتب وثنية كان قد أسسها سلفه. إلا أن أشهر حالة لحرق مكتبة بكاملها كانت قد حدثت في الإسكندرية.

ففي سنة 391 اندفع جمهور من المسيحيين المتعصبين بقيادة بطريرك الإسكندرية تيرفيل وأحرقوا «السيرابيوم»[(*4)] حيث كانت هذه المكتبة تمثل للبطريرك تيوفيل رمز الوثنية ولذلك أراد من حرقها أن يقضي على آخر بقايا الثقافة الوثنية اليونانية-الرومانية في مصر. ومن المثير أن الإمبراطور تيودوس الأول (379- 395 م) كان قد أرسل سنة 387 مبعوثه كينغيوس لكي يدمر هذه المكتبة. إلا أن هذا المبعوث اضطر لأسباب مفاجئة أن يلغي سفره، مما أبقى على مكتبة الإسكندرية فترة قصيرة أخرى من الوقت.

إن حالات حرق الكتب وملاحقة المؤلف في العصر القديم يمكن أن تخلق انطباعا لدى المرء بأن السلطة الرومانية، مثلها مثل السلطة الوثنية والمسيحية، كانت تحرق دون رحمة كل الكتب التي لا تتفق مضامينها مع مواقفها ولأن كل محاولة ليبراليه كانت تنتهي فوق أكوام الحطب. إلا أن هذا الانطباع، مع كل ما تعرض له الكتاب في العصر الوسيط، ليس صحيحا خاصة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار ما تعرض له الكتاب في العصور اللاحقة.

وفي الواقع لا بد من التنويه إلى أن السلطة الرومانية في العهد الإمبراطوري كانت لا ترى ضرورة لحرق الكتب إذا كانت تتعارض مع المفاهيم السياسية والدينية للطبقة الحاكمة، بل كانت تعمد إلى حرقها فقط فيما إذا تناولت تلك الكتب شخصية الإمبراطور، أو الممثلين الآخرين للسلطة، أو المؤسسات الأساسية للمجتمع. وبعبارة أخرى ففي عصر الجمهورية وعصر الإمبراطورية حتى تسلم قسطنطين للسلطة، (أي حين أصبحت المسيحية دينا رسميا)، كانت هذه السلطة متسامحة نسبيا مع الكتب الليبرالية حتى أنه يمكن القول إنها بالتأكيد كانت أكثر تسامحا من العهود اللاحقة. وحتى في العهود اللاحقة للإمبراطور قسطنطين، حين كان المتعصبون من مسيحيين وغير مسيحيين يدمرون مكتبات بكاملها، كان لا يزال هناك نوع من التسامح الذي مكن من إنقاذ أهم مؤلفات العصر القديم. وفي الحقيقة

(*4) حول هذا انظر ما سيضيفه المؤلف لاحقا خلال الفصل الثالث

(المترجم).

لا يجب أن ننسى هنا أنه في نهاية العصر القديم بالضبط، حين كان المسيحيون يمسكون بيدهم مصير الكتاب، بدأت عملية النسخ الشاملة لنقل النصوص من لفافات البردي، التي كانت تتعرض للفناء بسبب الرطوبة ومرور الزمن، إلى كراريس الرق التي كانت تصمد أكثر في وجه الزمن.

وهكذا فقد أنجزت معظم هذه العملية في ورش النسخ التي كان يملكها المسيحيون. وفي الواقع لقد كانت هذه فرصة للمسيحيين لكي يتخلصوا من الكتب، التي تتعارض محتوياتها مع المسيحية، دون الحاجة إلى محاكمات علنية أو لحرق الكتب في المساحات. وعلى كل حال فقد كان المسيحيون المثقفون في أواخر عصر الإمبراطورية يقدرون مؤلفات أهم الكتاب الوثنيين أكثر من تقديرهم لمؤلفاتهم التي كانوا يكتبونها، بحيث ساهم هذا الموقف الإيجابي في إنقاذ وإيصال قسم كبير من الكتاب الوثني اليوناني-الروماني إلى الأجيال اللاحقة.

إلا أن الحرب التي كانت تشنها السلطة ضد الكتب غير المرغوبة لم تكن ناجحة على الدوام. فقد كانت شبكة توزيع الكتاب متطورة جدا بحيث أن الكتب كانت تصل إلى أقصى أرجاء الإمبراطورية، وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بكتب مؤلف معروف، ولذلك كان من المستحيل التخلص من كافة نسخ أي كتاب. ومن هنا حتى لو أراد المؤلف نفسه التخلص من كتابه فإنه لن يتمكن من ذلك إذا كان قد عهد بكتابه إلى أحد الناشرين. ولدينا حالة من هذا النوع فيما رواه لنا القديس يورنيم في رسالة له حول محاولته لسحب أحد كتبه الذي لم يرض الأوساط الكنائسية الأرثوذكسية. فقد حاول فور صدور الكتاب للبيع أن يسحب كتابه بمساعدة صديقه بوماكيوس، إلا أنه فشل في ذلك مع أنه جمع كل ما وجده من نسخ لدى البائعين والمشترين.

وقد ساعد اتساع الإمبراطورية الرومانية وتنظيم شبكة توزيع الكتاب، بالإضافة إلى الميل الطبيعي للإنسان لكي يحفظ ويقرأ بسرعة م هو ممنوع، على أن تنجو الكثير من الكتب المشوهة والملاحقة وغير المرغوبة في نظر السلطة بفضل رعايتها في المكتبات الخاصة والعامة، مما ساعدها على أن تخلد وتصل أخيرا إلى أيدي المتنورين والطابعين الأوائل في بداية العصر الحديث.

كانت الكتب المؤلفة، سواء في الأزمنة الوثنية أو المسيحية، ترمى عادة

إلى النار في الساحات العامة. ولم يكن هذا يحدث لسهولة ابتلاع النار للكتب فقط، بل لأسباب أخرى.

فقد كان لهذا التصرف في الدرجة الأولى معنى تطهيري وسحري-تقديسي أيضا. فقد كان الكتاب هكذا يتحول إلى دخان أي كما يراد أيضا للأفكار المعادية الكافرة والهرطقية الواردة فيه. وقد كان أيضا لحرق الكتب في الساحات العامة معنى آخر، إلا وهو تطهير المجتمع من الأفكار الخطرة وإنذار الأفراد الذين يعتنقون أو يتبعون هذه الأفكار. وفي بعض الأحيان كان يتم أيضا رمي الرماد في البحر أو النهر أو في الهواء وهو أيضا يحمل في طياته مغزى سحريا للدلالة على التخلص النهائي مما جاء في الكتب المحروقة.

وقد كان حرق الكتب يتم في أكثر الأماكن ازدحاما بالمارة، في الساحات العامة في الأزمنة الوثنية وأمام الكنائس في الأزمنة المسيحية، وذلك بحضور جمهور المتفرجين المتحمسين.

إلا أن سجل الأخطار التي كانت تهدد الكتاب في العصر القديم لم يقتصر على هذا فقد كان أكبر خطر يتمثل في الحروب التي كانت تأتي على مكتبات بكاملها.

ونظرا لأن الحروب الأهلية والحروب بين الدول والشعوب كانت تندلع باستمرار فيمكن القول إن أكبر عدد من الكتب في العصر القديم قد قضي عليه بسبب الحروب المدمرة.

وبشكل خاص يمكن أن نذكر ثلاث حالات تراجيدية. وتتعلق الحالة الأولى بتدمير المكتبة ومركز الوثائق في ميلت خلال الاحتلال الفارسي سنة 494 م. وقد برزت أهمية هذه المكتبة بشكل خاص نظرا خاص لتطور الفلسفة اليونانية المبكرة والعلوم نظرا لأن الجزء الغربي من آسيا الصغرى، وخاصة ميلت، كان الجسر الذي تعبر عليه من الشرق إلى الغرب الإنجازات العلمية البابلية-الآشورية والتقنيات الفنية لتؤثر بشكل جوهري في تكوين الثقافة اليونانية. أما الحالة الثانية فتتعلق بمكتبة الإسكندرية، وهي حالة أكثر تراجيدية من الأولى. وكما ذكرنا سابقا فقد دمرت هذه المكتبة أولا خلال العملية العسكرية لجيش يوليوس قيصر في الإسكندرية، بينما دمرت تماما من قبل المسيحيين سنة 391 م. أما الحالة الثالثة فتتعلق بتدمير

المكتبة الإمبراطورية في القسطنطينية خلال الصراع على السلطة سنة 475 م، وهي التي كانت تعد أكبر مكتبة في العالم بمجلداتها التي وصلت إلى 120 ألف مجلد. وكان القائمون على المكتبة قد جمعوا من خلال تنظيم معين كل الأدبيات المسيحية والوثنية، التي كانت لا تزال موجودة حينئذ. ومن المؤكد أن الحريق الذي قضى تماما على هذه المكتبة منع بعض المؤلفات للكتاب القدامى أن تصل إلى أيدينا اليوم.

أما أكبر كارثة لحقت بالمكتبات في أواخر أيام الإمبراطورية فقد كانت الهجمات العنيفة المتواصلة للبرابرة على حدود الدولة الرومانية إلى أن تمكنوا أخيرا من تحطيم جزء كبير من الإمبراطورية الرومانية السابقة. ولحسن الحظ لم يستطع البرابرة تدمير كل شيء، كما أنهم لم يستطيعوا الوصول أبدا إلى بعض أرجاء الإمبراطورية الرومانية السابقة، مما سمح لكثير من الكتب والمكتبات أن تنجو من هذه الكارثة.

وقد سجل لنا لاحقا (القرن 12) الكاتب البيزنطي ى. زونارا تفصيلا مثيرا عن وضع الكتاب الصعب خلال موجة التدمير البربرية. فقد جمع البرابرة، حين احتلوا أثينا في عهد الإمبراطور كلاود الثاني، كل الكتب في المدينة لكي يحرقوها. إلا أن هذا لم يحدث لأن أحد البرابرة أقنع أصدقائه المحاربين بأنه من الأسهل عليهم حكم اليونان فيما لو تركوا اليونانيين ينشغلون مع كتبهم. ومع أنه من الصعب تصديق هذه الرواية إلا أنها، إذا وقعت بالفعل، تدل على أن البرابرة لم يكونوا متوحشين إلى هذا الحد لكي لا يفهموا خطورة الكتب بالنسبة إليهم كمحتلين.

وقد وجد بينهم واحد على الأقل يعرف قيمة الكلمة المكتوبة بحيث استطاع بحيلة بسيطة أن يقنع أفراد عشيرته أن يصرفوا النظر عن هدفهم.

5- المؤلفات المرجعية

في العصر الهلنستي وجد العلماء والأدباء والعاملون في المكتبات وهواة جمع الكتب، الذين يهتم كل واحد منهم لدوافعه الخاصة بالجديد في سوق الكتاب، إزاء مشكلات صعبة: كيف لهم أن يعرفوا ماذا يوجد في السوق من كتب وماذا يكتب الكتاب من موضوعات إلخ. وقد كانت هذه المشكلة قائمة في العالم اليوناني وخاصة بالنسبة لأولئك الذين لا يعيشون في المراكز-

الثقافية الكبيرة، إلا أنها أصبحت أكثر تعقيدا في العصر الهلنستي.

كان هناك سببان رئيسيان وراء تعقيد هذه المشكلة. فقد برزت أولا مراكز ثقافية كبيرة في العالم اليوناني بعد إنهيار إمبراطورية الإسكندر المقدوني، حتى أن بعضها كالإسكندرية وبرغام وإنطاكية أصبحت تنافس أثينا بالذات. وبعد ظهور المركز الثقافي والسياسي الجديد في المتوسط (روما) لم يعد يكفي المرء أن يذهب إلى ساحة المدينة أثينا (الأغورا) أو روما (الغوروم) لكي يعرف ماذا جد من جديد في سوق الكتاب.

أما السبب الآخر فيكس في الازدياد الكبير في إنتاج الكتاب، سواء في تلك المراكز التقليدية أو في المراكز الجديدة، بحيث أصبح من الصعب الحصول على معلومات سواء حول الكتب الجديدة الصادرة أو حول المؤلفين وحول قيمة المؤلفات إلخ.

وهكذا وجد المثقفون وكل المهتمين الآخرين بالكتاب أنفسهم في الورطة التي ستبرز ثانية في أوربا في زمن غوتنبرغ، أي في معرفة ما يصدر من كتب جديدة وفي كيفية الوصول إلى هذه الكتب. وقد أدى هذا التعطش للمعلومات إلى ظهور نوع جديد من الكتب-المؤلفات المرجعية التي تضم مؤلفات ببليوغرافية مختلفة وقواميس أعلام إلخ.

وعلى حد معلوماتنا فإن أول من فكر بتأليف كتاب من هذا النوع كان الكاتب كاليماخ مدير مكتبة الإسكندرية. فقد استفاد من المجموعات الفنية للكتب في المكتبة ليؤلف كتابه «بيناكس» في 120 مجلدا، الذي يعتقد بأنه كان يستخدم كفهرس للمكتبة، وبغض النظر عن أن المؤلف أراد منه أن يكون فهرسا أم لا أو أنه استخدم كفهرس للمكتبة، فمن الواضح أن المؤلف لم يرد منه أن يكون مجرد فهرس كالفهارس التي نراها اليوم في المكتبات، أي مجرد وسيلة للوصول إلى الكتاب المطلوب في المكتبة. فكل ما نعرفه عن هذه الكتاب يقودنا إلى أنه كان موجها إلى دائرة واسعة من المهتمين، وإن المؤلف كان يريد منه أن يكون مصدرا بيو-ببليوغرافيا عن كل الكتب التي ألفت، وعن كل الكتاب الذين ألفوا حتى ذلك الوقت.

وهكذا فإن كاليماخ لم يكتف في مؤلفه بذكر الكتاب بل كان يقدم معلومات عن الكاتب أيضا. ومن ناحية أخرى لم يكتف كاليماخ بتقديم المعطيات الأساسية عن الكتب بل كان يضيف ملاحظاته النقدية أيضا.

ولذلك فإن هذا المؤلف يكاد يكون مرجعا بيو-ببليوغرافيا لكل الأدبيات اليونانية أكثر من كونه فهرسا لإحدى المكتبات.

وعلى هذا النحو قام النحوي كراتس، مدير مكتبة برغام، بتأليف فهرس للمكتبة في القرن الثاني ق. م، كما وضع فهرسا آخر لمكتبة في رودوس حوالي 100 ق. م.

وفي الوقت ذاته (حوالي 100 ق. م) ظهرت على حد معلوماتنا أول المؤلفات المجملة عن الكتب بشكل عام وليس عن الكتب الموجودة في مكتبة واحدة فقط. وقد كتبت هذه المؤلفات حينئذ لتفيد أكبر عدد من المهتمين بسوق الكتاب في ذلك الوقت. وقد كتب النحوي أرتمون من كاسندرا مؤلفا من هذا النوع، إلا أنه لم يصلنا حتى اليوم. وقد كان أهم من هذا بكثير ما ألفه النحوي والمؤرخ هيرونيوس بيلون من بيبلوس، الذي أنجز سجلا دقيقا في 12 مجلدا تحتوي على مؤلفات أهم معاصريه من الكتاب. ومع أن هذا المؤلف لم يصلنا أيضا إلا أن المعطيات الواردة في مؤلفات الكتاب الآخرين تفيد بأن بيلون قد وزع المؤلفين والمؤلفات في مجموعات حسب الاختصاصات وأن المؤلف أراد من عمله أن يكون دليلا ببليوغرافيا في سوق الكتاب حينئذ. وقد كان هذا الهدف دافعا لكاتب آخر هو تيليغوس من برغام، أن ينجز مؤلفا آخرا في ثلاثة مجلدات يحوي على قائمة نقدية تتضمن المؤلفين مع مؤلفاتهم. وقد أنجز تيليغوس أيضا مؤلفا بيوغرافيا عن حياة كتاب المسرحيات. وفي وقت لاحق، في نهاية القرن الثاني الميلادي كتب داموفيل من بيتينيا كتابه «صديق الكتاب» ليوجه هواة جمع الكتب إلى ما يجب أن يشتروه وما يجب أن يفعلوه لكي يملكوا مكتبات جيدة خاصة بهم.

إن ظهور المراجع البيو ببليوغرافية بهذا الشكل يدل في حد ذاته على أن الأسلوب الشفوي لتناقل المعلومات حول الكتاب فقد فعاليته السابقة إلى الأبد، وعلى أنه أصبح لا يستغني عن هذه المراجع لنشر المعلومات الببليوغرافية في عالم يتزايد تمركزه. وهكذا مع توطد دور روما كأهم مركز ثقافي وعلمي زادت الحاجة إلى المعلومات في المراكز الثقافية القديمة في شرق المتوسط، ولذلك فقد برزت في هذه المراكز بالذات أعداد متزايدة من هذه المراجع الببليوغرافية.

أما في روما، حيث لم يكن الإنتاج الببليوغرافي كما في شرق المتوسط،

فقد تطور بشكل خاص تأليف قواميس الأعلام التي تتضمن بطبيعة الحال معطيات ببليوغرافية كثيرة. وفي هذا الحقل كان أهم إنجاز كتاب «سير الرجال البارزين» لمؤلفه س. ت سيفتون (حوالي 70- 140 م)، والذي بقي قدوة للآخرين منذ العصر القديم وحتى عصرنا هذا. وقد عمد سفيتون إلى جمع معطيات بيوغرافية لشخصيات من اختصاصات مختلفة، ولذلك فقد قسم كتابه إلى مجموعات حسب الاختصاصات وكان الهدف الرئيسي من عمله هو أن يضع كل شخص في موضعه المناسب في تاريخ اختصاصه وذلك بالاستناد إلى ما لديه من معطيات تتعلق بحياته ومؤلفاته. وهكذا فقد جعل سفيتون مؤلفات الكتاب والمؤرخين والخطباء جزءا لا يتجزأ من سير حياتهم مما يجعل هذا الكتاب مصدرا مهما جدا للمعلومات الببليوغرافية.

ومن أهم المؤلفات اللاحقة التي حملت عنوان سفيتون نفسه كان ذلك الذي ألفه القديس يورنيم (340- 420 م) والذي أورد فيه سير حياة لـ 135 من الأدباء المسيحيين بالإضافة إلى بعض الكتاب الوثنيين، وفي هذا الكتاب أيضا حشد المؤلف المعطيات الببليوغرافية في سير حياة الذين ترجم لهم.

وفي أواخر أيام الإمبراطورية، حين لم يعد إنتاج الكتاب كبيرا ومتنوعا كالسابق وحين لم يعد سوق الكتاب موحدا ومنظما بشكل جيد كما في القرون السابقة، أصبحت الحاجة أقل للمؤلفات المرجعية ولذلك لم تعد تظهر مؤلفات جديدة. وعلى كل حال فقد كتبت لاحقا بعض المؤلفات البيوغرافية ولكنها كانت محصورة على الغالب بتقديم المعطيات عن أعلام الديانة الجديدة-المسيحية، أي أنها كانت نادرا ما تقدم معطيات بيوغرافية عن الكتاب الآخرين.

وخلال العصر القديم كله كان أهم المؤلفات المرجعية ذلك الذي ألفه بلين الكبير بعنوان «التاريخ الطبيعي» وهو عمل موسوعي في 35 مجلدا اشتمل على 40 ألف مادة وقد بقي هذا العمل خلال العصر القديم وحتى العصر الوسيط أيضا المصدر الأساسي للمعلومات عن كل حقول المعارف الطبيعية والاجتماعية وعن الفنون والأدب إلخ.

إن أهمية المؤلفات البيوغرافية والببليوغرافية وغيرها من المؤلفات المرجعية في نشر المعلومات في العالم اليوناني-الروماني كانت كبيرة جدا.

فقد كانت هذه المؤلفات، بالإضافة إلى المكتبات، أهم مصدر للمعلومات التي تساعد الإنسان في ذلك الزمان على معرفة ماذا كان يكتب في حقول العلم والأدب.

أما في العصر الهلنستي والروماني اللاحق، حيث وصل إنتاج الكتاب إلى مستويات عالية جدا، فقد أصبحت المؤلفات المرجعية لا غنى عنها لكل من يهتم بالكتاب من المؤرخ وحتى اللغوي ومن أمين المكتبة إلى هاوي جمع الكتب.

6-المكتبات في العالم اليوناني-الروماني

أ- المكتبات في اليونان الكلاسيكية

إذا استثنينا مكتبة ميليت التي دمرها الفرس نجد أنه لم يكن يوجد في اليونان، ولا في أثينا، مكتبة عامة كبيرة حتى زمن أرسطو (384- 322 ق. م) وفي الحقيقة كان بعض الحكام المتعلمين قد توصلوا إلى جمع بعض الكتب في قصورهم، إلا أن ما نعلمه عن هذه المكتبات ضئيل جدا وغير مؤكد دائما مما يشير في حد ذاته إلى أن تلك المكتبات لم تلعب دورا كبيرا في المراكز التي كانت توجد فيها.

ومن هذه مثلا لدينا مكتبة قيل إنه كان قد أسسها في أثينا بيزيسترات (605- 527 ق. م) ولكن معلوماتنا عنها تأتي بعد سبعة قرون من الكاتب أول غل (القرن الثاني الميلادي). وحسب هذا الكاتب فإن هذا الحاكم المستبد في أثينا، الذي كان مع ذلك يحب كثيرا الفن والأدب، قد أسس أول مكتبة عامة في المدينة. إلا أن هذه المكتبة انتهت كغنيمة حرب أخذها لاحقا الإمبراطور الفارسي كسركسو الأول ويعتقد أن هذا التأكيد حول نقل هذه المكتبة إلى بلاد الفرس ثم إعادتها ثانية إلى اليونان قد برز في العصر الهلنستي لأهداف دعائية، لأن الفرس لم يأخذوا أبدا هذه المكتبة إلى بلادهم. ومن الممكن أن يكون بيزسترات قد جمع في قصره مجموعة من الكتب، أي ليس كما تصور أول غل، حيث كان يمكن فقط للمثقفين أن يستفيدوا من هذه الكتب بعد إذن خاص منه ويبدو أنه كانت هناك مكتبات مشابهة لدى بعض الحكام في ذلك الوقت، ومن هؤلاء نذكر بوليكرات من ساموس الذي كان كبيزسترات يحب أن يجمع حوله المثقفون والشعراء

والموسيقيون. وفي العهود اللاحقة نجد أن معظم المعطيات تتعلق بالمكتبات الخاصة لهواة الكتب والمثقفين الذين قاموا بجمع الكتب لحاجاتهم الشخصية. وهكذا لدينا من هذه المعطيات أن الأرهوند الأثيني أوكليد دخل التاريخ سنة 403- 402 ق. م لأنه أدخل إلى أثينا الأبجدية الأيونية من مدينة ميليت ولأنه أسس مكتبة خاصة أيضا. ويذكر أيضا من أصحاب المكتبات الخاصة الفيلسوف أفلاطون والكاتب المسرحي أوريبيد والخطيب ديموسطين وغيرهم. إلا أن أشهر مكتبة هي تلك التي أسسها أرسطو، إذ كانت أكبر وأشهر مكتبة في اليونان حينئذ، ولذلك نعرف عنها أكثر مما نعرف عن أية مكتبة أخرى باستثناء تلك التي أسست لاحقا في العصر الهلنستي. ونظرا لأنه اهتم بقضايا كثيرة وكتب أمورا كثيرة فقد كان على أرسطو أن يجمع الكتب من كل حقول المعرفة الإنسانية. ويعتقد هنا أن الإسكندر المقدوني كان يرسل له الكثير من الكتب خلال فتوحاته العسكرية في آسيا الصغرى والشرق الأوسط لاحقا، بالإضافة إلى الكثير من المواد الأخرى التي كان يمكن أن يحتاج إليها في أبحاثه العلمية-الطبيعية. وإلى جانب هذا فقد ساعده تلاميذه الكثيرون أيضا في جمع الكتب. وقد كانت مكتبة أرسطو أول مكتبة في اليونان تجمع فيها الكتب حسب نظام معين. وفي الواقع فقد كانت هذه المكتبة منظمة بشكل ممتاز وكان يمكن أن يستفيد منها عدد كبير من الناس بحيث يمكن القول بشكل ما إنها كانت أول مكتبة عامة في اليونان. وقد كانت هذه المكتبة تخدم بالدرجة الأولى أرسطو ثم تلاميذ مدرسته الفلسفية. ومع أن سترابون غير محق فيما ذكره بأن أرسطو كان أول من جمع الكتب في اليونان، إلا أن هذا في حد ذاته يدل على المكانة التي وصلت إليها مكتبة أرسطو في نظر اليونانيين المثقفين.

وبعد موت أرسطو ورث هذه المكتبة، بكل ما فيها من مخطوطات كثيرة لأرسطو، تلميذه تيوفراست وانتقلت هكذا إلى مدينة سكبسيدا ثم عادت ثانية إلى أثينا حوالي سنة 100 ق. م. أما عن مصير هذه المكتبة فيما بعد فلا نعرف شيئا موثوقا. وهكذا يقال مثلا أن بطليموس قد اشتراها ليضمها إلى مكتبة الإسكندرية. ولكن من كل هذا يبقى من المؤكد أن القائد العسكري الروماني كورنيل سولا قد حمل معه هذه المكتبة، أو جزءا منها على الأقل إلى روما كغنيمة حرب.

ب- المكتبات في العصر الهلنستي

تحتل مكتبة الإسكندرية المعروفة التي أسسها البطالمة في مصر مكانة خاصة بين مكتبات العصر الهلنستي، بل في كل العالم اليوناني-الروماني. ويعتبر اليوناني ديمتري من فاليرون (حوالي 350- 285 ق. م) المبادر الروحي والمنظم العملي لهذه المكتبة. وكان ديمتري، رجل الدولة والكاتب وتلميذ تيوفراست الرواقي وممثل النخبة المثقفة في أثينا، قد وجد في الإسكندرية ما كان يفتقده في أثينا. حكام أقوياء وأغنياء ومتعلمين ومندفعين لكي يجعلوا من الإسكندرية مركز مصر الجديدة ومركز الحياة الروحية لكل العالم الهلنستي. وكان البطالمة قد جعلوا الإسكندرية تحتل المكانة التي كانت لأثينا في القرون السابقة، أي المدينة التي أسسها الإسكندر المقدوني سنة 331 ق. م بعد أن فتح بلاد المصريين القدماء بسهولة، في المكان الذي تتداخل فيه حدود أعظم حضارات العالم القديم (الحضارة اليونانية والحضارة المصرية وحضارة بلاد الرافدين). وكان البطالمة قد أسسوا أكاديمية في الإسكندرية، على نمط المدرسة الرواقية لأرسطو، بهدف أن يجعلوا منها جامعة لكل العالم الهليني. وقد جمع البطالمة هنا حينئذ المئات من أشهر كتاب العصر، من شعراء وفلكيين ولغويين ومؤرخين وعلماء من كل الاختصاصات. ولم يجد كل هؤلاء في الأكاديمية المغريات المادية، التي كان يجود بها البطالمة من خزينة الدولة بل وجدوا المناخ الخلاق الذي كان يدفعهم إلى العمل ويوفر لهم الشروط المثالية لأعظم الإنجازات الثقافية.

وكان بطليموس سوتير الأول (366- 283 ق. م)، وخاصة وريثة بطليموس فيلادف الثاني (285- 246 ق. م)، قد أخذا بنصائح ديمترى وأسسا لأجل الأكاديمية في مركز المدينة بالحي اليوناني «بروكيون» قصرا عظيما من الرخام الأبيض المزين بالتماثيل والرسوم، وإلى جانبه بناء فخما للمكتبة التي خصصت لخدمة العاملين في الأكاديمية في نشاطهم العملي والفني.

وللأسف لم يصل إلينا شيء من هذه المكتبة ولكن بالاستناد إلى وصف الكثير من كتاب العصر القديم نعرف أن هذه المكتبة كانت تتوزع على عشر قاعات ضخمة مليئة بالرفوف التي تحمل لفافات الكتب. وقد كان يذهب إلى هذه القاعات العلماء، حيث يستخدمون الكتب بحرية ويتناقشون في القضايا التي كانوا يختلفون حولها. وبالإضافة إلى العلماء فقد كان في

هذه المكتبة الكثير من النساخ والمصححين والمنقحين إلى جانب أمناء المكتبة الذين كانوا يشرفون على نسخ المؤلفات، وعلى وضع الفهارس الخاصة بالمؤلفات وعلى وضع المؤلفات في الرفوف الخاصة.

كان للبطالمة هدف واضح عندما قرروا تأسيس مثل هذه المكتبة الكبيرة في مدينتهم. فقد أرادوا، بتأثير المفاهيم الجامعة والكوسموبوليتية للإسكندر المقدوني، أن يجمعوا في هذه المكتبة كل التراث العلمي والأدبي الذي كان قد أبدعه حتى ذلك الوقت اليونانيون وكل الشعوب الأخرى، التي أصبحت بعد فتوحات الإسكندر تحت التأثير الروحي للثقافة الهلينية. ولأجل هذا كانت الكتب تشترى بأي ثمن حسب خطة منظمة وتجمع بأشكال شتى كل المخطوطات الموجودة في ذلك الوقت. وبشكل خاص فقد وصلت إلى هذه المكتبة كتب كثيرة من أثينا ورودوس، حيث كانت دكاكين الكتب غنية بما تحويه. وبالإضافة إلى هذا فقد تم شراء الكثير من الكتب في مدن يونانية أخرى من آسيا الصغرى في الشرق وإلى ماساليا (مارسليا اليوم) في الغرب. أما الكتب التي لم يكن في الإمكان شراؤها فقد كانت تنسخ في المكتبة.

إلا أن أساليب تجميع الكتب لم تكن دائما سليمة. وهكذا نعرف مثلا أن الموظفين الحكوميين كانوا يفتشون السفن الراسية في ميناء الإسكندرية ويأخذون كل ما يجدوه من كتب. وكانت هذه الكتب تؤخذ إلى المكتبة حيث تنسخ بسرعة بحيث يبقى الأصل في المكتبة وتسلم النسخة الجديدة لصاحب الكتاب. ونجد أيضا لدى كتاب العصر القديم بعض المؤلفات عن كيفية إغناء البطالمة لمكتبتهم. ومن هذا ما يذكر عن شراء مكتبة أرسطو الشهيرة، التي كانت تحوى مخطوطات أصلية بخط أرسطو وتلميذه تيوفراست.

وإلى جانب المكتبة الأم التي كانت في جوار الأكاديمية فقد أسس البطالمة مكتبة أخرى (الابنة) في معبد الإله (سيرابيس) أو بالقرب منه، وذلك في الحي المصري من المدينة «راكوتيس» وفي هذه المكتبة، التي أصبحت تدعى «سيرابيون»، كانت تحفظ النسخ المتكررة من المؤلفات التي كانت توجد في المكتبة الأم «البروكيوم» ولذلك يعتقد بحق أن المكتبة الابنة (السيرابيون) كانت مجرد جزء من المكتبة الأم (البروكيوم).

ونجد لدى كتاب العصر القديم معطيات متنوعة حول عدد الكتب

(اللفافات) في هذه المكتبة. وهكذا يذكر مثلا يوهانس تزتزس أنه في النصف الثاني للقرن الثالث ق. م كانت المكتبة الرئيسية (البروكيوم) تحوى 490 ألف كتاب (لفافة)، بينما المكتبة الفرعية (السيرابيون) تحوى 800 ,42 ألف كتاب (لفافة). أما أول غل (القرن الثاني الميلادي) والمؤرخ أميان مارسليني (القرن الرابع الميلادي) فيذهبان إلى أن مكتبة الإسكندرية كانت تحوى في عهد البطالمة على 700 ألف كتاب (لفافة). وقد كان هنا بالطبع الكثير من النسخ المتكررة والكثير من الروايات المتعددة للعمل الواحد تلك التي كانت تفيد العلماء لإنجاز نسخات محققة للمؤلفات القديمة.

وفي الواقع لقد كان إصدار النسخات المحققة من أهم الأعمال التي قام بها المحققون في مكتبة الإسكندرية. وهكذا نجد أن مدير المكتبة نفسه زينودوت من أفس (حوالي 320- 260 ق. م) قد أصدر نسخة محققة من ملحمتي هومير «الإلياذة» و«الأوديسة» كما أصدر نسخة محققة من ملحمة هذيود «ولادة الآلهة» ومن أشعار بيندار إلخ. وقد كان هناك حلقة كاملة من العلماء تعمل في إصدار النسخ المحققة للكتاب القدماء، وبفضل عملهم الدؤوب والحكيم فقد وصلت إلينا الكثير من مؤلفات الكتاب اليونانيين على الصورة التي نعرفها اليوم.

وكما ذكرنا سابقا فقد كانت مكتبة الإسكندرية تجمع أيضا مؤلفات الكتاب غير اليونانيين. فهنا على سبيل المثال نجد ترجمات يونانية لمؤلفات يهودية ومؤلفات مصرية (مثلا للمؤرخ المصري مانيتو من القرن الثالث ق. م الذي كان يكتب باللغة اليويانية) ثم مؤلفات للكتاب البابليين والفارسيين إلخ وحتى مؤلفات للكتاب من الهند البعيدة.

وكان البطالمة يعينون لإدارة المكتبة شخصيات معروفة في ذلك العصر. وهكذا إلى جانب ديمتري وزينودوت فقد كان من مدراء هذه المكتبة الشاعر والنحوي ليكوفرون من هالكيس والجغرافي-الفلكي الشهير أراتوستين من كيرينا والناقد اللغوي أريستارخ من ساموتراكا وغيرهم. ومن بين هؤلاء المدراء لا بد أن نذكر بشكل خاص كاليماخ من كيرينا الشاعر والعالم المعروف الذي اشتهر بإنتاجه الكبير (يقال أنه ألف 800 كتاب). وفي الواقع أن مكتبة الإسكندرية وتاريخ الببليوغرافيا يعترفان بفضل كاليماخ لأجل كتابه المعروف «بيناكس»، الذي تعرضنا له بالذكر في موضع سابق. ويبدو

أنه في هذا الكتاب قد تم تدوين أسماء المؤلفين وعناوين المؤلفات بالاستناد إلى تصنيف الكتب في رفوف المكتبة، أي أن هذا الكتاب قد عكس بشكل صادق كيفية التصنيف حسب الاختصاصات في رفوف هذه المكتبة.

وعلى الرغم من أننا لا نعرف على وجه التأكيد كيفية تصنيف الكتب في هذه المكتبة إلا أنه بالاستناد إلى ما لدينا من معطيات عن كتاب كاليماخ يبدو أن الكتب كانت مصنفة في عشر مجموعات رئيسية: 1- الشعر، 2- المسرحية، 3- القانون، 4- الفلسفة، 5- التاريخ، 6- الخطابة، 7- الطب، 8- الرياضيات، 9- العلوم الطبيعية 10- المتفرقات. وبالإضافة إلى المعطيات المتعلقة بالكتب فقد قدم كاليماخ معطيات تتعلق بالمؤلفين، وهو المبدأ الذي سيؤخذ بعين الاعتبار في القرون اللاحقة وإلى يومنا هذا.

ويعتقد أن مكتبة الإسكندرية كانت تجمع كل الإنتاج اليوناني للكتاب، أي منذ أقدم العصور، ولذلك فإن كتاب كاليماخ لا يعتبر فقط أقدم مؤلف بيو-ببليوغرافي بل إنه أقدم عمل ببليوغرافي في العالم. وقد حاول البعض في العالم اليوناني-الروماني أن يقلدوا هذا العمل. ومن هؤلاء لا بد أن نذكر هرميبوس من أزمير، تلميذ كاليماخ ومعاونه الذي ألف على نمط «بيناكس» عمله «كتاب التراجم».

لقد بقيت مكتبة الإسكندرية أكثر من قرنين من الزمن مركزا للحياة الثقافية للعالم الهلنستي، أي إلى أن تعرضت لأول كارثة. وقد كان المسؤول عن هذه الكارثة الأولى الزعيم العسكري الروماني يوليوس قيصر الذي، بعد أن انتصر على منافسه الكبير بوبي في فارزالا، بقي يلاحقه إلى أن وصل بسفينته إلى ميناء الإسكندرية حيث تدخل في الحرب الأهلية الدائرة هناك إلى جانب كليوباترا الجميلة. وخلال المعارك التي دارت سنة 47 ق.م في الإسكندرية أمر يوليوس قيصر بإحراق السفن في الميناء، إلا أن النار امتدت بسرعة إلى المخازن القريبة والمباني الأخرى في الميناء لتلتهم أخيرا المكتبة الرئيسية (البروكيوم). وقد كانت هذه خسارة كبيرة لأنه في هذا الحريق فقدت إلى الأبد الكثير من كتب الثقافة اليونانية ومن كتب الثقافات الأخرى.

وهكذا فقد فقدت مكتبة الإسكندرية إلى الأبد الأهمية التي كانت تتمتع بها قبل الحريق. وعلى الرغم من أنه قد بقي للمثقفين في الإسكندرية

مجموعات الكتب في المكتبة الفرعية (السيرابيون)، إلا أن هذه لم تكن تعوض أبدا ما أتى عليه الحريق. وحتى مبادرة الزعيم العسكري الروماني بومبي، الذي يقال أنه أهدى كليوباترا 200 ألف كتاب (لفافة) من مكتبة برغام لكي تحيي ثانية مكتبة الإسكندرية، فقد عجزت أيضا عن أن تعيد إلى مكتبة الإسكندرية الأهمية التي كانت لها قبل الحريق الذي أشعله يوليوس قيصر.

ومع هذا فقد بقيت مكتبة الإسكندرية، على الرغم من الخسارة التي لحقت بها، أهم مكتبة في العالم اليوناني-الروماني. فقد استمرت المؤلفات الموجودة في هذه المكتبة التي بقيت تنقح وتحقق حتى في العصر الروماني، تعتبر أكثر دقة من المؤلفات الموجودة في بقية المكتبات.

ومن بين الأدلة التي تؤكد هذا لا بد أن نذكر قرار الإمبراطور دوميسيان بإرسال فريق من النساخ إلى مكتبة الإسكندرية لكي ينسخوا المؤلفات التي فقدت في الحريق الذي شب سنة 80 م في المكتبة التي كانت قد أسست على شرف أوكتافيا، أخت الإمبراطور أغسطس.

وقد بدأت مكتبة الإسكندرية تفقد أهميتها في عهد الإمبراطورية الرومانية. فقد أصبحت روما بالتدريج مركز الحياة الثقافية، حيث أخذ الشعراء والفلاسفة يجدون فيها شروطا للعمل أفضل مما كانت تقدمه مصر الفقيرة والبعيدة عن المركز. إلا أن المكتبة ستتعرض إلى أوقات صعبة في نهاية عهد الإمبراطورية، حين أصبح المسيحيون القوة الأيديولوجية والسياسية الرئيسية. فقد كانت مكتبة الإسكندرية رمزا للثقافة الوثنية في نظر الدعاة المتحمسين للمسيحية، بحيث إن إلحاق المكتبة بمصير الثقافة الوثنية والتضحية بها في سبيل الثقافة الجديدة كان مسألة وقت فقط. وهكذا فإن تدمير هذه المكتبة على يد بطريرك الإسكندرية تيوفيل في سنة 391 م كان نتيجة منطقية لهزيمة الثقافة الوثنية أمام الثقافة الجديدة (المسيحية).

وبعد هذه السنة نفتقد ذكر مكتبة الإسكندرية في المصادر فترة طويلة من الزمن. وبالاستناد إلى الكثير من الكتابات التاريخية في العصر الوسيط يبدو أن المكتبة لم تفقد كل كتبها سنة 391 م بل بقي منها شيء حتى قدوم العرب إلى مصر. ويشاع هنا أن العرب قد أحرقوا بقايا مكتبة الإسكندرية

حوالي سنة 640 م. ويقال هنا إن الخليفة عمر بن الخطاب حين سئل من قبل الوالي عن تلك الكتب التي وجدت هناك قال: «إن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله غنى عنها، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليها، فتقدم بإعدامها»[*5].

أما المكتبة الثانية من حيث الأهمية في العصر الهلنستي فقد كانت مكتبة برغام. وكانت هذه المكتبة قد أسسها في نهاية القرن الثالث ق. م أتال سوتير (241- 197 ق. م)، إلا أنها في عهد وريثه فقط أومين الثاني (197- 159 ق. م)-تحولت إلى مركز للنشاط العلمي والأدبي. وفي الواقع لقد أسست هذه المكتبة على نمط مكتبة الإسكندرية ولكي تنافسها. إلا أن حكام برغام لم يتمكنوا من أن يجمعوا ذلك العدد من المثقفين كما فعل البطالمة، كما أن أمناء المكتبة في برغام لم يكن لهم من الهيبة كما كان لزملائهم في مكتبة الإسكندرية.

ومن ناحية أخرى لم يهتم الفلاسفة والعلماء في برغام كثيرا بتحقيق المخطوطات القديمة، بل اقتصروا على تأليف الدراسات العلمية حول القضايا اللغوية وغيرها التي كانوا يتناقشون حولها أحيانا مع زملائهم في مكتبة الإسكندرية. ومن أشهر هؤلاء الكتاب في برغام كان النحوي والدبلوماسي كراتس من ميلوس، الذي كان لفترة من الزمن مديرا للمكتبة أيضا. وينسب إليه تأليف فهرس للمكتبة على نمط «بيناكس» الذي ألفه كاليماخ.

وقد كان هذا الفهرس أحد الإنجازات الببليوغرافية للعلماء المجتمعين في برغام. ففي هذه المدينة بالذات وليس في الإسكندرية ستظهر سلسلة من الأعمال الهامة البيوغرافية والببليوغرافية، التي تدل على قدوم عصر جديد بالنسبة إلى نشر المعلومات حول الكتب والكتاب.

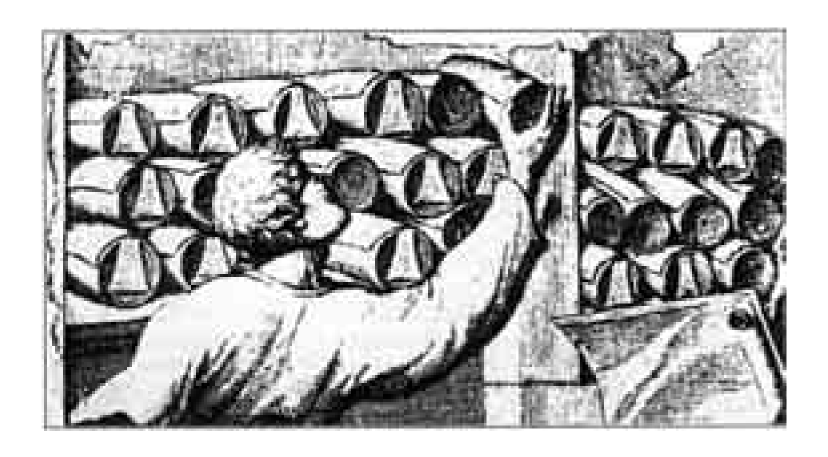
وفي ذروة ازدهار هذه المكتبة، خلال القرن الأول ق. م، وصل عدد الكتب (اللفافات) فيها إلى 200 ألف. وكما يروى بلوتارك فقد أخذ أنطونى

(*5) لقد انفرد البغدادي في كتابه «الموعظة والاعتبار» بذكر هذه الرواية بعد ستة قرون تقريبا من الحادثة المزعومة، مما يجعلها هشة للغاية. انظر: كوركيس عواد، مكتبة الإسكندرية تأسيسها وإحراقها، بغداد 1955

(المترجم).

مثل هذا العدد من الكتب (200 ألف) ليقدمها إلى كليوباترا كتعويض عن الضرر الذي ألحقه يوليوس قيصر بمكتبة الإسكندرية.

إلا أن الكتاب القدامى لا يقدمون لنا المعطيات الكافية عن هذه المكتبة وذلك بالمقارنة مع المعطيات التي يقدمونها عن مكتبة الإسكندرية. ولكن بفضل التنقيبات الأثرية التي تمت في الفترات المتأخرة فقد أصبحنا نعرف الكثير عن الهندسة العمرانية وعن مظهر هذه المكتبة بشكل عام. وكانت التنقيبات الأثرية قد كشفت عن بقايا هذه المكتبة منذ نهاية القرن الماضي. وقد كانت هذه المكتبة تقع في القسم الشمالي من معبد ضخم للألهة أتينا بولياس وتتوزع على أربعة قاعات. كانت القاعة الرئيسية تتميز بالعظمة، وكانت الكتب مرتبة على الرفوف الموضوعة على الجدران بينما كان يقوم في وسطها تمثال كبير للإله أتينا. وفي تلك القاعة أيضا كانت توجد تماثيل الشعراء والكتاب الكبار كهومير وهيرودوت وغيرهم. وسيتحول هذا الطراز من المكتبة، وبالتحديد طابع العظمة فيها، إلى نموذج للهندسة المعمارية في العصر الروماني وذلك خلال بناء المكتبات في روما وبقية مدن الإمبراطورية.



نقش حجري من نيو ماجن (المانيا) يمثل الرفوف التي كانت توضع عليها لفات البردي. وقد ضاع هذا النقش إلا أنه حفظ لنا في لوحة نشرت في أحد الكتب في القرن السابع عشر.

وقد حاول حكام ذلك العصر تقليد البطالمة في مصر وذلك بدعوة الشعراء والعلماء المعروفين إلى قصورهم وتجميع أكبر عدد من الكتب. ومع أن حكام الإسكندرية وحكام برغام بقوا متميزين في هذا، دون أن يستطيع أحد اللحاق بهم إلا أن هذا لا يعني أن محاولات الآخرين للحاق بهم كانت دون قيمة بالنسبة إلى تطور إنتاج الكتاب وتطور المكتبات. فالأسرة المقدونية السلوقية التي نجحت في أن تجعل عاصمتها إنطاكية في سوريا لفترة من الزمن أهم المراكز الثقافية للعالم الهيليني، كانت قد أسست في هذه المدينة مكتبتين إلا أننا لا نعرف عنهما الكثير. وكذلك لا نعرف الكثير عن مكتبة الحكام المقدونيين في عاصمتهم بيلا، التي يقول عنها بلوتارك إن الزعيم العسكري الروماني قد أخذها معه إلى روما كغنيمة حرب بعد انتصاره على المقدونيين في موقعة بيدنا سنة 168 ق. م. وقد تعرضت لنفس المصير مكتبة الملك البونتي ميتريدات أوباتور التي كانت توجد في عاصمة دولته، في سينوبه بآسيا الصغرى، حين أخذها معه إلى روما كغنيمة حرب القائد العسكري الروماني لوكولوس سنة 70 ق. م وقد كانت هذه المكتبة غنية بشكل خاص بكتب الطب.

وفي ذلك الوقت أسس وتطور عدد كبير من المكتبات في إطار المدارس المختلفة، كما في رودوس وأفس زازيد وغيرها من المدن. وفي ذلك الوقت أيضا أصبح لأثينا مكتبة كبيرة، تلك التي أسسها حسب بعض الروايات بطليموس فيلادلف في القرن الثالث ق. م. وكما يروى باوزان فقد كانت هذه المكتبة مزينة بشكل فخم بالأعمدة والتماثيل والرسوم.

وبالإضافة إلى المكتبات العامة والمكتبات المدرسية فقد برزت أيضا أهمية تلك المكتبات التي كانت توجد في إطار المعاهد العلمية، كما في مدينة كوس مثلا حيث كانت مكتبتها غنية بالمؤلفات الطبية لتغطي حاجة المدرسة الطبية في تلك المدينة. وقد كانت هناك أيضا مكتبات خاصة كثيرة في بيوت الأدباء والعلماء. وهكذا فقد ازداد عدد المكتبات وعدد الكتب بشكل كبير في العصر الهلنستي، مما سيؤدي بدوره إلى ازدهار ضخم لإنتاج الكتاب وتطور شبكة توزيع الكتاب بشكل لم يعرف حتى ذلك الحين. وفي هذا المضمار لم يؤثر سقوط المدن اليونانية وبقية مدن البحر الأبيض المتوسط في أيدي الرومانيين على هذا الازدهار لإنتاج الكتب ولا

على تطور المكتبات.

جـ- المكتبات الخاصة في روما

لقد مر معنا كيف أن أسهل طريقة لتجميع الكتب بالنسبة للرومانيين كانت نهب المكتبات في المدن اليونانية المفتوحة وفي بقية المدن. أما أولئك الذين لم ينشئوا في بيوتهم مكتبات بهذه الطريقة فقد كان بإمكانهم أن يشتروا الكتب، إذا توفرت لديهم القدرة طبعا، في السوق سواء في روما أو في بقية المراكز الثقافية لذلك العصر كالإسكندرية وأثينا.

وفيما يتعلق بأولئك الذين كانوا يجمعون الكتب فإن لدينا معطيات وافية عن واحد منهم، إلا وهو الخطيب المعروف شيشرون. ففي رسائله، التي بقيت إلى يومنا هذا، نجد صورة صادقة عن إمكانيات ووسائل ومصاعب جمع الكتب للمكتبات الخاصة في آواخر عهد الإمبراطورية. وهكذا نفهم من إحدى رسائله أن صديقه وناشر كتبه بومبون أتيك كان يشترى له الكتب في اليونان، ونفهم من رسالة أخرى أنه تلقى على سبيل الهدية مكتبة النحوي سرفي كلواد.

أما كاتب سيرته فيروى لنا أن شيشرون قد اشترى بعض الكتب من مزاد علني كانت تباع فيه مكتبة سول. وقد كان شيشرون يحتفظ بمكتبته الغنية في روما، بينما كان يحتفظ ببعض كتبه في دار له في ضواحي روما وفي بقية بيوته التي كان يقضي فيها فصل الصيف. إلا أن ثروة شيشرون لم تكن كبيرة إلى حد يستطيع فيه أن يشترى كل ما يلزمه، لذلك فقد كان يضطر أحيانا أن يستعير بعض الكتب من صديقه بومبون أتيك. وقد كان أتيك نفسه، بالإضافة إلى كونه أشهر ناشر في عصره، من هواة الكتب ولذلك كان ينفق ثروته الكبيرة على شراء الكتب.

وعلى الرغم من هذا نجد في العهد الجمهوري أن قلة من الناس فقط كان بوسعها أن تشترى الكتب لإنشاء مكتبات خاصة في البيوت. ولكن في نهاية العهد الجمهوري وبداية العهد الإمبراطوري أخذ عدد المكتبات الخاصة يزداد بسرعة نظرا لازدياد إنتاج الكتاب في روما وفي بقية مدن الإمبراطورية الواسعة. وكان الأفراد يشترون الكتب في الدرجة الأولى بسبب حاجتهم إليها لنشاطهم العلمي والأدبي. وإلى جانب هؤلاء كان هناك أولئك الذين أسسوا مكتبات خاصة كبيرة نظرا لأن جمع الكتب النفيسة كان قد أصبح

موضة في المجتمع الروماني الراقي. وقد سخر بشكل مقذع من هؤلاء المقلدين والجامعين للكتب لوكيان وسينيكا وغيرهم من الكتاب الرومانيين. وهكذا مثلا يكتب سينيكا بسخرية أن أصحاب مثل هذه المكتبات لم يقرأوا في حياتهم حتى عناوين الكتب التي لديهم.

إن هذه السخرية المرة من هؤلاء الناس لا تدل على العدد الكبير للمكتبات الخاصة في العهد الإمبراطوري، كما تدل على أن امتلاك مكتبة لدى الأغنياء كان مؤشرا لمكانتهم الاجتماعية مما يوحي في حد ذاته بمكانة الكتاب في المجتمع الروماني.

ولا شك أن المقلدين من الأغنياء الرومانيين كانوا يستحقون هذه السخرية المرة من الكتاب الرومانيين. ولكن إذا تمعنا في هذه السخرية يتشكل لدينا انطباع بأن هؤلاء الكتاب يكتبون تعبيرا عن ضيقهم كمثقفين فقراء لأنهم لا يستطيعون أن يشتروا الكتب مع حاجتهم إليها، بينما جيرانهم الأغنياء يشترون ما يريدون من الكتب دون حاجتهم إليها.

كانت المكتبات الخاصة توجد لدى الأباطرة في قصورهم وفي استراحاتهم بضواحي روما، وفي بيوت العلماء الكتاب الذين كانوا يحتاجون للكتب بشكل يومي، كما كانت توجد في بيوت هواة جمع الكتب وبيوت أولئك الذين يعتبرون جمع الكتب نوعا من الموضة.

وهكذا نعرف أن بلين الكبير كان له مكتبة خاصة جميلة يستفيد منها لإنجاز أول مؤلف موسوعي في العالم اليوناني-الروماني (التاريخ الطبيعي)، كما أن الفيلسوف وكاتب السيرة بلوتارك كانت له مكتبة خاصة وغيرهم. أما عن مكتبة النحوي اليوناني أبافرودين من هيرونيا، الذي كان يعيش في روما في القرن الأول الميلادي، فنعرف أنها كانت تحوى 30 ألف كراسة.

وقد تمكن النحوي الآخر سيرين سامونونيك (القرن الثاني الميلادي) من تجميع 62 ألف كراسة في مكتبته الخاصة. أما مارسيال الفقير، أحد أبرز شعراء الأدب الروماني، فقد كان يملك في مكتبته كما يروي لنا 120 كتابا (لفافة) فقط. ومن هنا يمكن أن نفهم سخريته اللاذعة من هواة جمع الكتب الأغنياء.

ومن هذه المكتبات الخاصة في العصر الروماني لم يبق إلى اليوم إلا مكتبة واحدة فقط. وكانت هذه المكتبة قد اكتشفت سنة 1752 حين كان

جنود ملك نابولي، الملك كارل الرابع ينقبون في آثار مدينة هيركولانيوم[*6]. فقد وجدت هذه المكتبة في استراحة صيفية لأحد الأغنياء في ضاحية هذه المدينة، التي كان قد غطتها تماما حمم بركان فيزوف سنة 79 م، مما حفظ المدينة كما هي حتى ذلك الحين. وقد اكتشفت في ثلاث قاعات من هذه الاستراحة حوالي ألفي لفافة من البردي في حالة تفحم. وقد نجح العلماء بعد جهود مضنية وطويلة في فتح وقراءة هذه اللفافات. وقد تبين هنا أن معظم هذه اللفافات تحتوى على كتابات تخص الفلسفة الأبيقورية في اللغة اليونانية. وهكذا فقد وجد هنا مؤلف أبيقور نفسه، «حول الطبيعة» في 37 مجلد، بينما كان ثلث هذه المجموعة تخص مؤلفات الفيلسوف الأبيقوري فيلوديم من غدارا، وبالاستناد إلى هذا يمكن أن تكون هذه المكتبة الشخصية له أو خاصة ورثته.

حين انتشر خبر اكتشاف هذه المكتبة، و اهتم العالم المتحضر اهتماما كبيرا بالحدث على أمل أن يتم العثور بين هذه اللفافات على بعض الأعمال الضائعة لسوفوكليس وأرسطو وغيرهم من الكتاب الكبار. إلا أنه اتضح في النهاية أن صاحب هذه المكتبة كان يحتفظ فيها بالكتب التي كان يحتاج إليها في عمله فقط. ويبدو أن قلة محتويات هذه المكتبة. كانت نتيجة الوضع المادي لصاحبها أكثر مما هي نتيجة لقلة اهتمامه بالكتب.

ولذلك فإن فقر هذه المكتبة أثار خيبة أمل أولئك الذين كانوا يتوقعون الكثير من هذا الاكتشاف الفريد من نوعه.

لقد بقي المثقفون والأغنياء يحتفظون بمكتباتهم الخاصة خلال العهد الإمبراطوري، بينما ستزداد أهمية هذه المكتبات الخاصة في أواخر عهد الإمبراطورية الرومانية إلى حد أنها ستقضي على المكتبات العامة.

د- المكتبات العامة في روما

كان يوليوس قيصر قد ذهل لما رآه في الإسكندرية ولذلك فقد قرر أن يبني في روما مكتبة كبيرة عامة على نمط مكتبة الإسكندرية، التي يبدو أنه كان يفكر بنقل جزء من محتوياتها إلى روما. وقد عهد حينئذ بالإشراف على إنجاز هذه المكتبة إلى أحد أشهر الكتاب الرومانيين في عصره، مارك

(*6) مدينة ريزينا اليوم في إيطاليا (المترجم).

ت. فارون (116-27 ق. م). وقد أخذ فارون بجدية هذه المهمة وألف في إطار الاستعداد لذلك كتابه النظري «حول المكتبات» الذي فقد للأسف ولم يصلنا منه أية نسخة. إلا أن هذه المكتبة لم تنجز بسبب اغتيال قيصر سنة 44 ق. م. وبعد عدة سنوات من اغتيال قيصر قام الشاعر والقائد العسكري أذينه بوليون بإنجاز هذه الفكرة خلال سنوات 39-33 ق. م وقد غطى بوليون نفقات بناء المكتبة مما غنمه في الحرب ضد الإليريين في دالماتيا. ومع أن الكثير من الكتاب اللاحقين يعتبرونها أول مكتبة عامة في روما إلا أننا لا نعرف الكثير عنها. ومن المعتقد أن هذه المكتبة كانت مرتبة بشكل فخم على نمط المكتبات اليونانية، ولكن كان هناك ما يميزها أيضا عن مثيلاتها. فقد كانت هذه المكتبة، كما تصور فارون المكتبة تماما تتألف من قسمين: قسم للكتب اليونانية وقسم للكتب اللاتينية.

ومن الطبيعي ألا تكون روما قد اكتفت بهذه المكتبة. فمع بداية العهد الإمبراطوري أصبحت روما تجمع عددا كبيرا من المثقفين والأدباء القادمين من كل أنحاء حوض البحر الأبيض المتوسط، مما أبرز الحاجة الماسة إلى مكتبات غنية بالكتب. ومن هنا فقد أخذ الأباطرة يبنون باستمرار مكتبات كبيرة وفخمة. وقد بنى الإمبراطور أغسطس نفسه مكتبتين كبيرتين. فقد بنى الأولى سنة 28 ق. م على رابية بالاتينا، ولذلك أصبحت تدعى «مكتبة بالاتينا» وبنى الثانية فور ذلك في «سهل مارس» على شرف أخته اوكتافيا. وقد كانت هاتان المكتبتان أيضا، كغيرهما من المكتبات اللاحقة، تضم أقساما مستقلة للكتب اليونانية والكتب اللاتينية، كما كانت-على نمط المكتبات اليونانية-ذات أبعاد ضخمة ومزينة بتماثيل الشعراء والكتاب والعلماء.

وقد استمر الأباطرة الذين خلفوا أغسطس في بناء المكتبات. وهذا فقد أقيمت مكتبة عامة كبيرة في المعبد الكبير الذي بني تكريما لأوغسطس وزوجته ليف، بينما تذكر لاحقا «مكتبة تيبر» دون أن نعرف فيما إذا كانت قد بنيت في عهد الإمبراطور تيبر أم لا. أما الإمبراطور فسبازيان فقد أسس مكتبة في «معبد السلام» الذي بناه بعد انتصاره على اليهود.

أما أهم مكتبة عامة في روما فقد بنيت سنة 113 م من قبل الإمبراطور ترايان. لقد كانت هذه المكتبة هي «مكتبة أولبيا» التي كان بناؤها الضخم يقع في «ساحة ترايان» والتي بقيت آثارها إلى اليوم. وقد كانت تتألف من

بناءين متقابلين يقوم بينهما عمود ترايان. وفي الواقع أن ضخامة وفخامة ومركز هذه المكتبة بالنسبة إلى بقية المباني في «ساحة ترايان» وقربها من «ساحة رومانوم»، التي كانت من أكثر الأماكن ازدحاما بالمارة، تدل على المكانة الهامة التي أصبح للكتاب والمكتبات في وعي الرومانيين.

وفي ذلك الوقت كانت روما تؤكد مكانتها كأقوى مركز ثقافي في حوض البحر الأبيض المتوسط. وهكذا فقد أصبحت المكتبات الضخمة التي أقامها الأباطرة مكانا يجتمع فيه الشعراء والذين يلقون الشعر والفلاسفة والعلماء وباعة الكتب بضجيجهم بالإضافة إلى الجمهور الكبير الذي كان يتابع باهتمام ما يجري في هذه المكتبات. وحتى «ساحة ترايان» ذاتها فقد صممت في الأصل لتكون مجمعا للعالم الثقافي المتنوع. ولذلك فقد كان فيها بالإضافة إلى المكتبة، مدرجان على شكل نصف دائرة للمحاضرات والمناقشات وإلقاء الشعر.

وفي الواقع لم يكن الموقع المتميز الذي احتلته «مكتبة أولبيا» في «ساحة ترايان» مجرد اجتهاد عمراني لأحدهم بل كان تعبيرا مقصودا لوضع الكتاب في مركز الاهتمام. ومما يدل على هذا إقامة مكتبة في حمام عام كان قد أمر ببنائه الإمبراطور ترايان. وهكذا وصلت محاولات توفير الكتاب للقراء في ذلك الوقت إلى ذروتها: توفير الكتاب للقراء في أكثر الأماكن التي يتواجدون فيها أو يتوقعون فيها. وبعبارة أخرى يصبح الكتاب متوفرا للتأكد من مسألة ما ولإنشاد الشعر منه ولقراءة النصوص الأدبية والعلمية. وبهذا الشكل ينتقل الكتاب إلى وسط الناس، وإلى قلب الحياة اليومية، عوضا عن أن ينتقل الناس إلى مكتبات معزولة ومحجوزة للنخبة المثقفة. وهكذا أصبح الكتاب جزءا لا يتجزأ من الحياة اليومية ووقفا عاما بأفضل ما في هذا التعبير من معنى.

وكان الأباطرة الآخرون قد تابعوا بناء الحمامات، على نمط ما قام به ترايان، ولذلك نجد مثلا مكتبة في «حمام كاراكال» (بداية القرن الثالث الميلادي) وفي «حمام ديوكلسيان» (بداية القرن الرابع الميلادي) وغيرها. وفي الواقع أن إقامة المكتبات في الحمامات هو «اختراع» روماني كما أن الحمامات ذاتها سمة الحضارة الرومانية. فالحمامات في العصر الروماني لم تكن فقط للاغتسال والاستحمام بل كانت أيضا مكانا لاجتماعات

«البزنس» والاجتماعات الأخرى. وقد مارست الحمامات لاحقا دورا مهما في الحياة الثقافية بعد أن أصبحت مكانا يجتمع فيه الشعراء لإنشاد قصائدهم والفلاسفة والعلماء الذين يستعرضون ويدافعون عن أفكارهم. وفي الواقع لقد كان المهندس الدمشقي المعروف ابولودور، الذي صمم «حمام ترايان»، أول من أخذ بعين الاعتبار هذا الدور المتعدد للحمامات في الحياة اليومية للسكان في روما. ولذلك فقد أدخل أبولودور في تصميم الحمامات قاعات للمكتبة، قاعة للكتب اليونانية وقاعة للكتب الرومانية، وقاعات أخرى للنشاطات الثقافية التي أصبحت تتم تحت سقف الحمامات بالإضافة إلى النشاطات الصحية الرياضية.

وقد كانت المكتبة التي بنيت في «حمام ديو كلسيان» في نهاية القرن الرابع الميلادي آخر مكتبة عامة تبنى في روما خلال العصر القديم وقد وصل عدد المكتبات العامة في روما حينئذ إلى 28 مكتبة. ومن الطبيعي ألا تنجو هذه المكتبات من الكوارث التي لحقت بروما والإمبراطورية الرومانية في ذلك الوقت. فالمكتبات تتعرض دائما إلى مصير الوسط الذي أقيمت فيه وخدمت فيه، ولذلك فإن مكتبات روما أيضا أخذت تختفي الواحدة وراء الأخرى مع اختفاء المؤسسات الأخرى في روما القديمة. وهكذا فقد أورد بأسف المؤرخ مارسلين في القرن الرابع الميلادي أن كل «المكتبات قد ماتت الحياة فيها وأصبحت كالمقابر».

لقد كان مارسلين يتحدث عن المكتبات الوثنية التي حكم عليها بأن تلحق بالثقافة الوثنية. وفي الواقع لقد كانت روما، تحت تأثير الأزمات في الداخل وهجمات البرابرة في الخارج، قد فقدت تلك المكانة التي كانت تتمتع بها في عصر ازدهارها الكبير السياسي والثقافي، أي في العصر الذي كانت تضيق فيه شوارع روما بكل الخيرات المادية والروحية من كل أرجاء الإمبراطورية الواسعة.

فبعد أن فقدت قوتها الاقتصادية والسياسية خسرت روما الوثنية أيضا الأولوية في الحياة الثقافية للإمبراطورية. وهكذا فقد برزت في ذلك الوقت مراكز أخرى سياسية وثقافية وأصبح الكتاب يجد في هذه المراكز الحيوية الجديدة ملجأ له في المكتبات الكبيرة بعد أن أصبحت روما عاجزة عن أن تحمي ما خلقته خلال قرون.

هـ- المكتبات العامة في المدن الأخرى للإمبراطورية

كانت روما هي المركز الوحيد في حوض المتوسط التي تتخذ فيه القرارات السياسية والقرارات الأخرى التي تتعلق بكل الإمبراطورية بينما لم تكن المركز الوحيد في المجال الثقافي. فقد حافظت المراكز الثقافية الأخرى كالإسكندرية وأثينا على أهميتها في ذروة ازدهار الثقافة والفنون في روما، حيث إن هذه المراكز تمكنت خلال العصر القديم كله من تطوير ثقافتها وحتى من منافسة روما.

وكانت هناك مكتبات كثيرة في اليونان وآسيا الصغرى ومصر قد بنيت قبل الاحتلال الروماني حافظت على نفسها خلال العصر الروماني، بينما بنيت مكتبات أخرى خلال ذلك العصر. أما في مدن إيطاليا وأفريقية وبقية أنحاء حوض البحر الأبيض المتوسط فقد أسست فيها المكتبات لأول مرة خلال العصر الروماني.

وقد أسس أكبر عدد من المكتبات خارج روما في عهد الإمبراطور ترايان وفي عهد الإمبراطور هادريان (نهاية القرن الأول والنصف الأول للقرن الثاني الميلادي)، أي في ذروة القوة السياسية والاقتصادية للإمبراطورية الرومانية. فخلال عهد الإمبراطور ترايان أسس الأرخوند ت. فلاف بانتانيوس حوالي سنة 100 م مكتبة عامة في أثينا وفي ساحة المدينة (الأغورا)، حيث تمكن علماء الآثار أخيرا من تحديد موقعها ودراستها. ومن المكتشفات الهامة التي وجدت هنا لوحة منقوشة على جدار المكتبة تتضمن تحديد قواعد الاستفادة من المكتبة. وفي الواقع لقد كانت هذه القواعد الأولى التي وصلت إلى أيدينا حتى الآن. وضمن هذه القواعد نقرأ مثلا «لا يسمح بإخراج أي كتاب خارج المكتبة» وعن دوام المكتبة نجد أنها كانت تفتح «من الساعة الواحدة حتى الساعة السادسة» إلخ. وبالإضافة إلى هذه فقد أسست في أثينا مكتبة عامة كبيرة في عهد الإمبراطور هادريان.

وفي بداية القرن الثاني الميلادي أسست في مدينة أفس «مكتبة سلزيوس» المعروفة التي دعيت على اسم ت. يول سلزيوس نظرا لأنها بنيت تكريما له. وقد تمكن علماء الآثار النمساويون من اكتشاف بقاياها في بداية القرن العشرين بفضل الأجزاء السفلية للبناء التي بقيت في حالة جيدة جدا،

وبالإضافة إلى بعض الأجزاء المحيطة بها، فقد أصبح في الإمكان إعادة تصور هذه المكتبة على نحو مؤكد. وهكذا فقد كان بناء المكتبة ضخما على شكل مربع يسيطر على ذلك الجزء من المدينة. وكانت واجهة المكتبة مزينة بشكل فخم بصفين من الأعمدة والتماثيل. أما في الداخل فقد كانت تتميز هناك قاعة جميلة 70 ,11x16 م يتوسطها تمثال للإله أثينا. أما الكتب فقد كانت موضوعة في ثلاثين خزانة مرتبة على الجدران في ثلاثة طوابق، في الطابق الأرضي وشرفتين داخليتين.

وتجدر الإشارة هنا إلى الكيفية التي تمكن بها مصمم المكتبة من تجنب الرطوبة. فقد بني حول القاعة التي توجد فيها الكتب جدارا إضافيا بحيث كان هناك بين الجدار الخارجي والداخلي مسافة متر تقريبا.

وعلى الرغم من أن هذه المكتبة كانت في ذلك الجزء من الإمبراطورية الذي تسيطر عليه الثقافة اليونانية إلا أنها بنيت حسب الأصول العمرانية الرومانية. ومع ذلك فقد كانت هذه المكتبة تتميز بتفصيل مهم. كانت تحتوي على قاعة واحدة وليس على قاعتين واحدة للكتب اليونانية وواحدة للكتب الرومانية. ويعتقد أن هذا قد حدث نتيجة لأن الكتب اللاتينية، التي كان يفترض أن توضع في هذه المكتبة، كانت من القلة بحيث لم تكن تستحق أن توضع في قاعة مستقلة.

وقد أسس بلين (62-113 م) مكتبة عامة في مسقط رأسه في كومون (كومواليوم) ببلاد الغال وأنفق في سبيل ذلك مائة ألف درهم. وبالإضافة إلى هذه لدينا معطيات تشير إلى وجود مكتبة عامة دوراخيوم (دورس اليوم في ألبانيا)، ثم في كورنيت ونيماوسوس (نيم اليوم في فرنسا) وفي قرطاجة بعد أن بعثت ثانية (من القرن الثاني الميلادي). أما أفضل مكتبة حفظت إلى اليوم من العصر الروماني فهي تلك التي اكتشفت في آثار المستوطنة العسكرية ثاموغاد (تيمغاد اليوم في الجزائر) في نوميديا بأفريقيا الشمالية. ويعتقد أيضا أنه في إطار القصر الذي بناه الإمبراطور ديوكلسيان في سبليت (يوغسلافيا اليوم) كانت توجد مكتبة خاصة للإمبراطور، إلا أنه لم يتم حتى الآن التعرف على آثارها.

و- مكتبات القسطنطينية

بعد انقسام الإمبراطورية الرومانية أخذ القسم الغربي يعايش أزمة

اقتصادية وسياسية كبيرة بسبب التمزق في الداخل وهجوم البرابرة من الخارج، بينما كان القسم الشرقي في وضع أفضل نسبيا. وقد تمكن هذا القسم من الصمود في وجه الأعداء الخارجين أكثر من ألف سنة، بينما ساعد الأساس الاقتصادي القوي لمدنها على أن تستعيد ثانية الأولوية في العلم والأدب في حوض البحر المتوسط. وقد أخذت عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية، روما الجديدة أو القسطنطينية، في بناء المكتبات وإقامة ورش النسخ في الوقت الذي بدأ فيه هذا النشاط يخبو في روما. وقد كان لنشاط النسخ هنا أهمية كبيرة جدا في حفظ مؤلفات كتاب العصر الوسيط، لأنه في القسطنطينية بالذات كان من الممكن أن تنسخ مؤلفات هؤلاء الكتاب بنوع من الثقة وأن تحفظ بالتالي للأجيال القادمة.

وكان الإمبراطور كونستانس الثاني قد أسس في القسطنطينية المكتبة الإمبراطورية الكبيرة، وذلك لخدمة المدرسة العليا التي كانت قد أسست من قبل. وقد نمت المكتبة بسرعة بفضل هدايا الأباطرة اللاحقين، ثم زودت بقاعات فخمة في القصر الإمبراطوري بالذات. وفي هذه المكتبة كانت ورشة النسخ منظمة بشكل ممتاز مما كان يوفر إمكانية النسخ الممتاز لكل الكتاب الوثنيين الكبار من يونانيين ورومانيين وللكتاب المسيحيين، بالإضافة إلى نسخ الكتاب المقدس. وكما في الإسكندرية سابقا فقد كان يجتمع في هذه المكتبة العلماء من كل المراكز الثقافية للشرق، الذين كانوا يعلمون في المدرسة العليا، بالإضافة إلى أولئك الذين كانوا يستفيدون من المكتبة في نشاطهم العلمي أو الأدبي.

لقد كانت هذه آخر مكتبة كبيرة في العصر القديم يتم فيها جمع ونسخ مؤلفات كل كتاب العصر القديم. فقد كانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية آخر دولة من بقايا العصر القديم، ولذلك كان يمكنها أن تؤسس وتطور مكتبة من هذا النوع.

وللأسف فقد تعرضت هذه المكتبة، بعد أن أصبحت تضم 120 ألف كراس خلال 120 سنة من وجودها، للدمار نتيجة للحريق الذي شب في جزء من المدينة سنة 475 م خلال الحرب الأهلية حينئذ. ومع أن المكتبة جددت بسرعة، إلا أنها لم تستطع أبدا أن تسترد ضخامتها وأهميتها كما في السابق.

وإلى جانب هذه المكتبة كانت هناك في القسطنطينية عدة مكتبات أخرى من أهمها مكتبة البطريركية ومكتبة دير ستوديون. وفي هذا الدير كانت توجد ورشة للنسخ تتميز بنشاطها الكبير.

وفي الواقع لقد كان نشاط النسخ لا يقتصر على القسطنطينية فقط بل كان يزدهر أيضا في المدن البيزنطية الأخرى، حيث أسست أيضا مكتبات هامة. ومع أن أكاديمية أثينا قد حافظت على أهميتها الكبيرة في الحفاظ على التراث الثقافي للعصر القديم، إلا أنه لم يقل عنها أيضا دور المراكز الثقافية الأخرى كغزة في فلسطين، وإنطاكية وبيروت وبقية المدن التي كانت تحتوي على مدارس تضم معارف وأدب العصر القديم.

إلا أن الأزمة التي شملت العالم القديم، منذ نهاية العصر القديم وبداية العصر الوسيط، لم توفر الإمبراطورية الرومانية الشرقية. فقد أخذت المراكز الثقافية الكبيرة في الاضمحلال فيما أخذت المدارس المذكورة تغلق أبوابها الواحدة بعد الأخرى. وهكذا في نهاية القرن السادس لم يبق منهم شيء خارج الإسكندرية والقسطنطينية.

ز- المكتبات المسيحية في العصر الروماني

أخذ المسيحيون يجمعون الكتب في وقت مبكر سواء لحاجة مدارسهم الدينية أو لحاجاتهم الدينية الأخرى. إلا أن عدد هذه المدارس كان قليلا في القرون الأولى للإمبراطورية الرومانية، كما أنه لم تتوفر للمسيحيين في ذلك الوقت الإمكانية لتجميع الكتب أو للمشاركة في إنتاج الكتاب. وبالاستناد إلى المعطيات التي لدينا عن الكتب والمكتبات يمكن القول إن مجموعات الكتب كانت متواضعة وفي أغلب الأحيان كانت عبارة عن نسخ للكتاب المقدس وكتابات تدافع عن المسيحية في السجالات التي كانت تدور مع الهراطقة والوثنيين. وقد كانت هذه المكتبات المتواضعة توجد على الأغلب في الكنائس وفي مراكز الأسقفيات وفي المؤسسات الكنائسية الأخرى.

ولكن منذ نهاية القرن الثاني الميلادي أصبح لعلماء الإسكندرية، ككلينت الإسكندري وأوريغن، مدرستهم الدينية ومكتبتهم التي تتضمن ورشة للنسخ. ونظرا للمصاعب التي واجهها في الإسكندرية فقد اضطر أوريغن لاحقا إلى الانتقال إلى قيسارية بفلسطين، حيث أسس مدرسة ومكتبة على نمط مكتبة الإسكندرية الوثنية. وبالاستناد إلى ما يقوله أسيدور فقد كانت هذه

المكتبة تحوي 30 ألف كتاب (لفافة)، أي أنها كانت في أهميتها للمسيحيين مثل أهمية مكتبة الإسكندرية للثقافة الوثنية.

وقد انتقلت إدارة هذه المكتبة بعد وفاة مؤسسها سنة 253 م إلى يد تلميذه بامفيل، الذي وضع فهرسا لها. وفي هذه المكتبة كانت تجمع بشكل منظم وتنسخ مؤلفات الكتاب المسيحيين، ولذلك فقد تمكن فيها المؤرخ والفيلسوف المسيحي المعروف أوزب (265-340 م) أن ينجز مؤلفه الكبير «تاريخ الكنيسة».

وفي هذه المكتبة كانت توجد أيضا ورشة للنسخ، منظمة بشكل جيد، حيث كان يتم فيها تحقيق مؤلفات الكتاب المسيحيين والمؤلفات الدينية بشكل عام. وقد كانت هذه الورشة من أشهر ورش النسخ المسيحية في ذلك الوقت، ولذلك فقد أوصى الإمبراطور قسطنطين هذه الورشة بالذات على 50 نسخة من الكتاب المقدس لمكتبات القسطنطينية.

وفي سنة 212 م أسس الأسقف الكسندر مكتبة مسيحية في القدس، وذلك على نمط مكتبة الإسكندرية الوثنية أيضا. وإلى جانب هذه المكتبات في الشرق فقد أسس المسيحيون مكتبات لهم في روما أيضا. ومن أهم هذه المكتبات كانت تلك التي أسسها بابوات روما، إلا أننا لا نملك معطيات عن بداية تأسيسها ويبدو أن هذه المكتبة، التي كانت تستعمل أيضا كمركز للوثائق، قد أسسها البابا داماس الأول في القرن الرابع الميلادي في كنيسة القديس لورنس. ولكن هذه المكتبة أيضا، كبقية المكتبات التي أسست في ذلك الوقت في روما، لم تكن لها أهمية كبيرة.

وقد كان أكبر وأهم من هذه بكثير بعض المكتبات الخاصة التي أوجدها بعض العلماء المسيحيين لأجل حاجاتهم الخاصة. ومن هذه تذكر مكتبة القديس أوغسطين (354- 430 م) الفنية التي تركها لكنيسة مدينة هيبون(*7)، حيث عمل أسقفا في أواخر حياته. وقد كان للكاتب المسيحي ترتوليان (حوالي 160- 220 م) مكتبة غنية، بينما كان للقدير يورنيم مكتبتان واحدة في روما والثانية في بيت لحم بفلسطين، حيث أسس ديرا هناك وأنجز بهدوء ترجمة الكتاب المقدس إلى اللاتينية.

(*7) الاسم القديم لمدينة عنابة الجزائرية

(المترجم).

وفي الواقع لقد كان هناك الكثير من أمثال هذه المكتبات الخاصة سواء في الغرب اللاتيني أو في الشرق اليوناني. وقد كانت هذه المكتبات المسيحية، سواء كانت مملوكة للمؤسسات الكنائسية أو للأفراد، تحتوي على الكتب المسيحية وكتب المؤلفين الوثنيين من يونانيين ورومانيين. وإذا ما تجنبنا بعض الاستثناءات النادرة نجد أن المثقفين المسيحيين-وخاصة القديس أوغسطين والقديس يورنيم-لم يكن لديهما موقف طائفي أو متعصب من الكتاب غير المسيحيين (الوثنيين)، بل إنهم كانوا يعتبرون التعرف على هؤلاء شرطا لا بد منه للثقافة الشاملة ولفهم ودراسة الكتاب المقدس. وبفضل هذا الموقف المتسامح للمثقفين المسيحيين من الكتاب الوثني في نهاية العصر الوسيط وبداية العصر الحديث فقد احتلت الكتب الوثنية مكانة خاصة في المكتبات المسيحية.

المراجع

حول الكتاب بشكل عام في العالم اليوناني-الروماني لدينا:

Th. Birt, Das antike Buschwesen, Berlin 1882 (reprint: Aalen, Scientia, 1969);

Th. Birt, Die Buchrolle in der Kunst, Archaologisch antiquarische Untersuchungen zum Buchwesen, Leipzig 1907;W. Schubart, Das Buch bei den Griechen und Romern, 2 Aufl. Berlin 1921;

H. L. Pinner, The World of books in clasical antiquity, Leiden 1948;

F. G. Kenyon, Books and Readers in Ancient Greece and Rome, 2 ed., Oxford 1951;

Libri, editori e pubblico nel mondo antico, A cura di G. Cavallo, 2 ed.., Bari 1977;

وحول الرقم الفخارية في الثقافة الكريتية-الميسينية وقراءة الكتابة الخطية B انظر:

M.Ventris-J. Chadwich, Documents in Mycenaean Greek, Cambridge1956;

J.Chadwich, The Deciphrement of Linear B, Cambridge1958;

L.A.Stella, La civitta micenea nea documenti contemporanei, Roma1965;

L.R.Palmer, Mycenaeane and Minoans, Aegian Prehistory in Light of the Linear B tablets, London1965;

وحول الكتابة في اليونان:

W.Schmitz, Schiftseller und Buchandler in Athen und im ubrigen Greichenland, Heidelberg1876;

E.G.Turner, Athenian Books in the fifth and fourth centuries B.C., London1952

A.E.Havelock, Cultura orale e civilta della scrittura, Da Omera a Platone, Roma-Bari1973.

وحول الكتاب لدى الاتروسك، وخاصة فيما يتعلق بالدين لدى الاتروسك، لدينا أهم المعطيات لدى:

G.Dumezil, La religione romana arcaica, Milano1977.

أنظر أيضا:

J.Heurgon, Daily Life of the Etruscans, London1964.

وحول الكتاب في روما والإمبراطورية الرومانية أنظر:

L.Haenny, Schriftsteller und Buchhandler im alten Rom, Leipzig1885.

C.H.Roberts, The Codex, Proceedings of the British Academy, 40 (1954), p169-204;

T.Kleberg, Bokhandel och bokforlag i antiken, Stochholm1962.

ولدينا ترجمة جزئية اهذا الكتاب في الإيطالية:

Libri, editori e publico nel mondo antico, Bari 1977;

وبشكل خاص حول إنتاج الكتاب من قبل المسيحيين في العصر القديم أنظر:

T.C.Skeat, Early Christian Book Production: Papyri and manu scripts, The Cambridge History of the Bible, II, Cambridge 1969, p54-79;

وحول مواد الكتابة وأدوات الكتابة بشكل عام أنظر:

C.Paoli, Programma scolastico di paleografia latina e di diplomat ica, II, Materie scrittorie e librarie,

Firenze1894;

وبشكل خاص عن البردي:

N.Lewis, Papyrus in Classical Antiquity, Oxford1974;

وانظر حول هذا الكتاب القيم:

W.Schubart, Einfuhrung in die papyruskunde, Berlin1918

وكذلك دراسة:

K.Preisendanz, Papyruskunde, Handbuch der Bib lithekswissenschaft, 2 Aufl., Wiesbaden 1952, Bd. I. p163-248;

وهنا لدينا قائمة تحتوي على كل المراجع المتعلقة بالموضوع. وفيما يتعلق بانتاج الكتاب أنظر:

F.W.Beare, Books and Publications in the Ancient World, Uni versity of the Toronto Quarterly, 14 (1945), p159-167;

E.Arns, La technique du livre dapres Saint Jerome, Paris1953

H.L.M.van der Valk, On the edition of books in antiquity, Vi giliae Christianae, 11(1957), p1-10;

H.Widmann, Herstellung und Vertrieb des Buches in der Grie chisch-romischen Welt, Archiv fur Geschichte des Buchwesen, 8 (1957) p.545-640:

وحول القراءة العلنية للأدب لدينا تفصيلات وافية لدى:

F.Orlando, Le letture publiche nella Roma imperiale, Faenza1907;

وبالإضافة الى كتاب Kleberg لا بد أن نذكر هذه المؤلفات التي تتناول إنتاج الكتاب وبشكل عام توزيع الكتاب في العصر القديم:

R.Sommers, T. Pomponius atticus und die Verbreltung von Cice ron Werken, Hermes, 61(1926), p389-442;

F.Reichmann, The Book Trade at the Time of the Roman Empire. Library Quarterly, 8 (1938), p.40-75;

A.F.Norman, The Book Trade in at fourth-century Antioch, Jour nal of Hellenic Studies, 80 (1960), p122-126;

وحول الرقابة وإحراق الكتب في العصر القديم لا بد من الرجوع إلى:

C.A.Forbes, Books for the Burning, Transactions and Pro ceedings of the American Philological Association, Vol 67 (1936). p114-125;

F.H.Cramer, Book Burning and Censorship in Ancient Rome. Journal of the History of Ideas, 6(1945), p157-196;

W.Speyer, Buchervernichtung, Jahrbuch fur antike und Christent um, 13 (1970), p123-152;

M.I.Finley, La censure dans lAntiquite, Revue historique, 104 (1980), V. 263, p3-20;

وفيما يتعلق بالمؤلفات المرجعية في العصر القديم أنظر:

F.Schmidt, Die Pinakes des Kallimachos, Berlin 1922; F. Leo, Die gnechische-romische Biographie nach ibrer litterarischer Form, Leipzig1901;

وحول التراجم اليونانية بشكل خاص أنظر:

A.Momigliano, Lo Svilupo della biografia greca, Torino1974;

وفيما يتعلق بالمكتبات في العالم اليوناني-الروماني أنظر:

F.Poland, Offentliche Bibliotheken in Griechenland und Kleinasi en, Leipzig1894;

J.W.Thompson, Ancient Libraries, Hamden1962;

C.Wendel, Kleine Schriften zum

antiken Buch-und Biblio thekswesen. Koin 1974

ولدينا دراسات أخرى تحتوي على مصادر ومراجع غنية:

C.Wendel-W. Gober, Das Greichische-romische Altertum, Hand buch der Bibliothekswissenschaft, 2. Aufi., Wiesbaden 1955, Bd. III, 1, p51-186;

وحول مكتبة الاسكندرية بشكل خاص أنظر:

E.Hannak, das Museum und die Bibliotheken in Alexandria, Wien1867;

V.Nourrisson, La Bibliotheque des Ptolemees, Alexandie1893;

V.Gardthausen, Die Alexandrinische Bibliothek, Leipzig1922;

E.A.Parsons, The Alexandrian Library, Glory of the Hellenic World, London1952;

وفيما يتعلق بالمكتبات العامة في روما أنظر:

F.Garbelli, Le biblioteche in Italia allepoca romana, Milano1894;

A.Langie, Les blibliotheques publiques dans lancienne Rome et dans lEmpire Romain, Fnibourg1906;

E.Makowiecka, The origin and evolution of architectural form of Roman Library, Warszawa1978;

وحول المكتبات الخاصة في روما أنظر:

T.Putz, De M. Tulli Cicerons bibliotheca, Munster1925;

Ch. Jensen, Die bibliothek von Herculaneum, Bonner Jahrbucher, 135 (1930), p. 49-61;

C. Gallavotti, La custodia dei papiri nella villa suburbana Er cholanese, Bollettino del R. Istitu di patologia del libro, 2 (1940). p. 1-11;

T. Kleberg, BiblioDhiles in ancient Rome, Libri, 1 (1950)
Nr. 1,p.2-12;

T. Kleberg, Bucherlieberei und private Buchersammlungen in der romischen Kaiserzeit, Festschrift Josef Stummvol, Wien 1970, p.401- 409;

R. Cagnat, Les bibliotheques municipales dans l‘ empire romain, Memoires de l‘ Institut National de France, Acad des inscrin et belles-lettres, 28, 1, (190);

وحول «المكتبة الإمبراطورية» الخاصة في القسطنطينية انظر:

C.Wendel, Die erste kaiserliche Bibliothek in Kostantinopol, Zeittschrift fur Bibliothekswesen, 59(1942), p193-209;

وبشكل خاص حول المكتبات الخاصة للرومانيين المتعلمين انظر:

A.V.Harnach, Tertullians Bibliothek christlicher Schriften, Sitzungsberichte der Preuss, Akademie der Wissenchaften (1914), p303-334. 303- 334.

4 أوروبا في العصر الوسيط

في بداية العصر الوسيط تشكلت ثلاثة أقاليم ثقافية وسياسية كبيرة على أنقاض الإمبراطورية الرومانية. ففي الجزء الغربي للإمبراطورية الرومانية ستبرز عدة دول يتم فيها اندراج البرابرة في تلك البنيات الاقتصادية، والقانونية للدولة الرومانية التي استمرت حتى ذلك الوقت، وذلك لأن البرابرة كانوا غير قادرين على استبدالها بما هو أفضل. إلا أن العالم الذي خلقه البرابرة كان بعيدا عن أن يكون استمرارا لعالم العصر القديم مع أنهم حاولوا تقليد الأسلوب القديم للحياة الرومانية قدر الإمكان والحفاظ عليه أطول مدة ممكنة، كما حدث لدى القوط الغربيين في إسبانيا واللونغوبارديين في إيطاليا.

أما في الإمبراطورية الرومانية الشرقية، التي تمكنت من الصمود في وجه البرابرة وحافظت على استمراريتها المؤسسية-القانونية مع الإمبراطورية الرومانية، فقد أصبح من الصعب الحفاظ على البنية الاقتصادية والاجتماعية القديمة بحيث أن هذه الدولة أيضا-بملامحها المتميزة-ستكون ثمرة العصر الوسيط في الجانب الروحي.

وفي شرق وجنوب البحر الأبيض المتوسط، وفي

الشرق بشكل عام، ستتطور قوة جديدة (الإسلام) في جوانب تختلف تماما عن تلك الموجودة في الحضارة اليونانية الرومانية مع أن نهضتها الثقافية قد استندت إلى حد ما على التراث اليوناني-الروماني الذي صادفته في المناطق المفتوحة.

وفي الكارثة الكبرى التي لحقت بالحضارة اليونانية-الرومانية في نهاية العصر القديم كان الكتاب قد لعب دورا هاما للغاية في الحفاظ على نوع من الاستمرارية بين ثقافة العصر القديم، التي كان قد حكم عليها بالفناء، وبين ثقافة العصر الوسيط التي بدأت تتشكل في ذلك الوقت.

ففي الغرب كانت الإمبراطورية الرومانية المنهكة قد تحولت إلى غنيمة مغرية للجرمانيين وبقية الشعوب البربرية التي أخذت بأعداد متزايدة وبسهولة أكبر منذ نهاية العصر القديم في عبور الليمس (Limes) التي كانت محصنة فيما مضى، ولهذا ساهموا بفيضانهم المدمر في القضاء على عالم العصر القديم. وقد أدى الدمار الذي لحق بالزراعة والمناجم والحرف والإدارة الحكومية، وخاصة بشبكة الطرق الممتازة التي كانت تصل حتى أبعد المدن في الإمبراطورية، إلى عواقب غير متوقعة بالنسبة إلى إنتاج الكتاب وتوزيعه.

وهكذا فقد حلت بالكتاب والمكتبات أيام صعبة. فقد انهار الأساس الذي كانت تقوم عليه ثقافة الكتاب، إلا أن هذا الانهيار لم يتم في لحظة واحدة وفي صورة واحدة بالنسبة لجميع المناطق. فقد نجحت الشريحة العليا المثقفة في المجتمع الروماني في الاستمرار بإنتاج الكتاب لفترة أخرى من الزمن، إلا أن هجوم اللونغوبارديين على إيطاليا منذ نهاية القرن السادس، بالإضافة إلى هجمات البرابرة وغيرهم على بقية أرجاء الإمبراطورية في ذلك الوقت أو حتى قبل ذلك، قد هز الأساس الاقتصادي الذي كان يبقي على قيد الحياة بقايا النخبة الرومانية المثقفة القديمة، أو على الأقل تلك الشريحة المسيحية المتعلمة التي بقيت تحيي إنتاج الكتاب بطلباتها.

إلا أن هذا العالم الأرستقراطي والمثقف كان قد أخذ يتلاشى مع تلاشي القاعدة الاقتصادية ومؤسسات المجتمع القديم، بحيث ارتبط في الغرب مصير الكتاب القديم ومصير المسيحية بشكل قوى مع بقايا هذه النخبة الاقتصادية والثقافية.

وهكذا فقد كان الإصرار على نسخ كتاب العصر القديم في ورش النسخ المدنية الآخذة في التناقص، ثم في ورش بعض الأديرة، يعود بشكل جزئي على الأقل إلى وعي هذه النخبة في وجه الغزاة القساة غير المتحضرين.

أ- مصير الكتاب في فجر العصر الوسيط

استمرت ورش النسخ المدنية في عملها لمدة من الوقت في بداية العصر الوسيط، أي طالما استمرت بقايا النخبة الرومانية المتعلمة محتفظة بقوتها المادية والاجتماعية ومواظبة على طلباتها التي كانت تشغل هذه الورش. إلا أن الحروب الطويلة والمنهكة مع البرابرة قد أدت إلى تلاشي المجتمع القديم، الذي تلاشى معه أيضا التنظيم القديم لإنتاج الكتاب والدور الاجتماعي القديم للكتاب. فبعد أن كان الكتاب في العصر القديم أداة لنقل المعلومات العلمية والأدبية وغيرها في الدرجة الأولى أصبح الآن في بداية العصر الوسيط يتحول إلى مادة للتقديس والسحر. وبعبارة أخرى فقد بقي الكتاب يحتفظ بمكانته كمنبع للمعرفة في بعض الحالات الاستثنائية، في محيط ما أو لدى فرد ما على وجه التحديد. وعلى الرغم من محاولات كاسيودور Kasiodor وغيره للحفاظ على الدور القديم للكتاب إلا أن هذه الجهود لم تثمر في ذلك الوقت في معظم المناطق السابقة للإمبراطورية الرومانية.

ولكن ماذا جرى لكتب المكتبات الكثيرة في روما وفي بقية المدن الكبيرة في أوروبا؟ هل أحرقت كل الكتب يا ترى من قبل البرابرة والمسيحيين ومعارضيهم وغيرهم ممن اندفعوا لحرق الكتب لدوافع مختلفة؟ لا شك في أن كميات كبيرة من الكتب قد تلاشت إلى الأبد مع تلاشي حضارة العصر القديم، إلا أننا نعرف في المقابل أن الكثير من الكتب قد وجدت ملجأ لها في المكتبات الجديدة المسيحية، في الأديرة والكنائس ولدى الأفراد المتعلمين في إيطاليا وأفريقيا الشمالية وإسبانيا بشكل خاص.

وهكذا نعرف مثلا أنه حتى القرن السابع، أي حتى قدوم العرب، كانت الكثير من الكتب لا تزال متوفرة في أفريقيا الشمالية وأن ورش النسخ كانت تعمل هناك بطاقة جيدة حتى أن كاسيودور كان يأمل أن يجد هناك بعض المخطوطات لمكتبته التي كان قد أسسها في فيفاريوم Vivarium.

ومن هذه الكتب، سواء التي حفظت من عهد أقدم أو نسخت في أفريقيا

الشمالية، سيصل قسم منها إلى إسبانيا خلال القرنيين 6- 7 حيث وفر القوط الغربيون، بعد اعتناقهم للمسيحية، ظروفا ملائمة للازدهار الأخير للمعرفة المسيحية المبكرة التي حظي بها التراث القديم، وحتى الوثني، بالاحترام. وفي هذا الجو من التسامح برز في إسبانيا في بداية القرن السابع القديس ايزيدور Izidor الإشبيلي (570- 636 م)، الذي ألف «الإتيمولوجيا». Etymologiae(*) وهو العمل الموسوعي الأخير للعصر القديم. ولإنجاز هذا العمل استند ايزيدور إلى عدد كبير من مؤلفات الكتاب في العصر القديم، التي كان يمكن أن يجدها بسهولة إلى حد ما في إسبانيا.

ويكفي كحقيقة في حد ذاتها أن نذكر أن هذا المؤلف تمكن من إنجاز عمل موسوعي طموح بهذا الحجم لكي نتصور. أن ثقافة الكتاب كانت قد تطورت نسبيا في إسبانيا خلال ذلك الوقت. وكان هذا العمل الموسوعي قد أثار اهتماما كبيرا لدى معاصريه، ولذلك فقد انتشر بسرعة في كل أوربا الغربية لأن الكثير من المثقفين في ذلك الوقت كانوا يتصلون ثانية مع عالم المعرفة والأدب اليوناني-الروماني عبر هذا الكتاب.

وهكذا فقد بقيت هذه الموسوعة المسيحية الأولى على الرغم مما فيها من أخطاء ومن سذاجة، هي المصدر الوحيد الذي لا غنى عنه للمعلومات لفترة طويلة من الزمن.

وقد أدى فتح العرب لإسبانيا إلى نتائج مشابهة لما حدث بالنسبة إلى مصير الكتاب في أفريقيا الشمالية: لجوء عدد من الرهبان والقساوسة مع كتبهم إلى إيطاليا وفرنسا وغيرها من البلدان التي بقيت خارج الفتح العربي.

ونتيجة لهذا نجد أنه في بعض الأديرة، التي لجأ إليها هؤلاء، استمرت لفترة طويلة من الزمن ممارسة الكتابة بالأبجدية واللغة القوطية الغربية، التي كانت قد ازدهرت في إسبانيا في بداية العصر الوسيط.

وعلى الرغم من هذا فقد بقيت إيطاليا هي البلد الذي أنتج أكبر عدد من الكتب في بداية العصر الوسيط. ففي إيطاليا لم يحدث أي انقطاع في ثقافة الكتاب من العصر القديم حتى العقد السابع من القرن السادس الميلادي، أي حتى تأسيس وتوطيد دولة اللونغوبارديين. وهكذا فقد استمر

(*) العلم الذي يهتم بدراسة أصول الكلمات وتاريخه

(المترجم)

كاسيدور وغيره في نسخ المؤلفات العلمية والأدبية للعصر القديم، مع إن هذا كان يتم في حجم أقل مما في السابق.

وفي ذلك الوقت بقيت في إيطاليا أهم ورش النسخ التي كانت تلجأ إليها الأديرة والكنائس من مختلف البلدان الأوربية، بالإضافة إلى الحكام، لأخذ ما يلزمها من الكتب لمكتباتها. ومما ساعد دون شك على استمرارية إنتاج الكتاب بهذا الشكل تحول روما إلى مركز للمسيحية ومحاولات الأسياد الجدد للحفاظ على هذا المستوى من إنتاج الكتاب لتلبية الحاجات الدينية في الدرجة الأولى.

وقد أصبحنا نعرف الآن بعض المعطيات عن النساخ وباعة الكتب في روما خلال القرن السادس الميلادي. وهكذا نعرف مثلا المدعو غاوديوسوس الذي كان يملك ورشة للنسخ قرب كنيسة القديس بطرس. وهنا لا يتعلق الأمر براهب أو قس يقوم بنسخ المؤلفات حسب أوامر رؤسائه بل بصاحب عمل حر يقوم بنسخ المؤلفات حسب الطلب.

إلا أن زمن هذا وأمثاله كان يتلاشى، إذ أخذ نسخ المؤلفات ينتقل إلى الأديرة والكنائس والمدارس الدينية. فكما في مصر وسوريا أخذ يبرز في إيطاليا أيضا عدد متزايد من الأديرة التي أصبحت تشارك خلال العصر الوسيط في إنتاج الكتاب. وفي الواقع لقد كانت هذه الأديرة بالإضافة إلى ورش النسخ في الكاتدرائيات والكنائس الكبيرة هي المراكز الوحيد لإنتاج الكتاب في الغرب إلى أن تم أخيرا إنتاج ورش مدنية للنسخ في إطار الجامعات.

ولا بد أن نذكر هنا بعض ورش النسخ في قصور الحكام، إلا أن دور هذه كان لا يقارن مع دور الورش الدينية.

ب- تراجع الكتابة

كان تدمير النظام المدرسي، الذي كانت تقوم عليه ثقافة العصر القديم، أحد أسوأ نتائج الغزو البربري للإمبراطورية الرومانية. وفي الواقع أن هذا النظام لم يدمره البرابرة بشكل مباشر في كل مكان وفي كل زمان، إلا أن ظهورهم العاصف كان قد جرف أمامه بقايا المؤسسات الحكومية التي كانت تزود المدارس بما تحتاجه من موظفين ودبلوماسيين ورجال دين

وغيرهم. وبعبارة أخرى لقد أدى زوال هذه المؤسسات إلى أن تصبح غالبية المدارس، وحتى المعلمين الخصوصيين، دون عمل يبرر استمرارها. وفي هذه الحالة تحولت الأديرة إلى واحات للكتابة، إلا أن هذا لا يعني أن كل الرهبان فيها كانوا يعرفون القراءة والكتابة. فالقديس بنيديكت[*1] نفسه يتعرض في كتابه «التعليمات» الذي وضعه لدير جبل كاسينو إلى ذكر الرهبان الأميين.

أما خارج هذه الأديرة فقد كانت الأمية تكاد تكون شاملة. وهكذا نجد أن البابا غريغور الكبير يوجه، بتأثير هذا الوضع، تعليماته المفصلة إلى الأساقفة ورجال الدين الآخرين حول ما يجب عليهم أن يعملوه لكي يشرحوا للأميين معنى الإنجيل والعلم المسيحي بشكل عام.

ففي رسالة له إلى الأسقف روفين في أفيس يوضح مثلا أنه بالنسبة لأولئك الذين لا يعرفون القراءة «لتكن كلمتكم هي الكتاب». وبعبارة أخرى لقد كان غريغور الكبير يصر على أهمية الوعظ بواسطة الكلمة الحية لأنه كان يعرف جيدا مدى انتشار الكتابة في أوربا المسيحية، بحيث أن أفكاره حول كيفية التواصل مع المؤمنين تعبر عن الوضع، وبالتحديد عن المشكلة الكبيرة التي كانت تواجه الكنيسة حينئذ.

وبالمقارنة مع العصر القديم كان الكتاب قد فقد الكثير من قيمته كأداة للتواصل. ومع هذا، وعلى الرغم من الصعوبات الكبيرة وخاصة الدمار الذي لحق بطرق المواصلات، فقد بقي حيا ذلك التقليد الذي كان يحرص عليه أفراد النخبة المثقفة، ورجال الدين والموظفون-ألا وهو تبادل الرسائل، فقد بقى أفضل وسيلة للتواصل.

وهكذا نجد مثلا أن القديس يورنيم يكتب عددا كبيرا من الرسائل، وتبعه في ذلك البابا غريغور الكبير في وقت لاحق. وقد كانت هذه الرسائل، وخاصة تلك التي كان يكتبها البابوات والأساقفة، تقرأ في الكنائس بحيث إن وصاياهم كانت تقطع طريقها بسرعة لتصل إلى جمهور المستمعين. وفي

(*1) القديس بنيديكت (حوالي 480-547 م) راهب إيطالي ومؤسس رهبانية البيديكتيين في جبل كاسينو، وضع دستورا للحياة الرهبانية لا يزال متبعا حتى اليوم في الكثير من الرهبانيات الأوربية.

(المترجم).

الواقع لقد كانت هذه الرسائل التي يبعثها البابوات والأساقفة، تتضمن مواعظ أخلاقية وتعليمات دينية أكثر مما كانت معلومات صحيحة.

وبعبارة أخرى فقد كانت أوربا تعود مرة أخرى إلى التواصل الشفوي لأن الكلمة المكتوبة أصبحت نادرة وغير مناسبة للتواصل مع معظم الناس. وقد كان الأفراد المتعلمون يرون في غياب المدارس بالذات العقبة التي تحد من الدين والحفاظ عليه، ولذلك فقد سعوا بكل ما في وسعهم لتطوير التعليم. وقد تمكن حينئذ الراهب الإنكليزي الكوين (704- 735 م) Alkuinl أحد أشهر المتعلمين في بداية العصر الوسيط، من أن يقنع صديقه الملك كارل الكبير (شارلمان) بأن يهتم أكثر بقضية التعليم وهكذا فقد أمر هذا الملك القوي، الذي كان نصف أمي (كان يقرأ بصعوبة بينما لم يتعلم الكتابة أبدا)، بفتح المدارس في الأديرة والكنائس الكبيرة مما ساهم بهذا الشكل في بعث الكتابة ثانية ولو في دائرة ضيقة من دوائر المجتمع في ذلك الوقت. وقد أدى تأسيس المدارس في ذلك الوقت إلى تزايد الطلب على الكتاب المدرسي وعلى الكتب الأخرى مما زاد الإقبال على نسخ النصوص القديمة، وخاصة نصوص القواعد، وتأليف النصوص الجديدة تلبية لحاجات التلاميذ والمعلمين. ولقد كان هذا في الواقع أهم نتيجة للنهضة الكارولية[*2] فيما يتعلق بتاريخ الكتاب.

وفي الواقع لم يكن من السهل توصيل «علم المسيح» لـ «الرعاع» (vulgus) الأميين. لقد كانت الكلمة الحية، التي كان يركز عليها البابا غريغور الكبير بحماس كبير، هي أفضل أداة للتوصل إلى هذا الهدف مع أنها لم تكن الأداة الوحيدة. وهكذا فقد كان غريغور الكبير نفسه ينصح في رسائله الكثيرة، التي كان يبعثها للأساقفة، باستخدام أداة فعالة للتواصل مع المؤمنين: الرسم.

جـ- الرسم كأداة للتواصل

لقد عرفت أهمية الرسم كأداة للتواصل في كل الحضارات القديمة،

(*2) نسبة لإمبراطور الغرب كارل الكبير، مؤسس السلالة الكارولية، الذي جعل إكس لاشابل (آخن) عاصمة له، وحاول الاستيلاء على إسبانيا ففشل في سرقسطة سنة 778م

(المترجم)

وبالتحديد من المصريين الذين زينوا «كتب الموتى» بمشاهد من الحياة الأخرى وحتى اليونانيين والرومانيين وقد كانت هناك في العصر القديم، على ما نعرف، الكثير من كتب الرياضيات وعلم النبات وغيرها من العلوم التي زينت بالرسوم.

ويخبرنا بلين الكبير أن العالم الكبير فارون قد وضع قاموسا ضخما للأعلام زينه برسوم 700 شخص من الشخصيات المشهورة. وبهذا الشكل، كما يضيف بلين الكبير، فقد استطاع المؤلف «أن يجعلهم حاضرين في كل مكان كالآلهة».

ومع التراجع العام للكتابة في نهاية العصر القديم وبداية العصر الوسيط أصبح الرسم وسيلة أهم للتواصل بين تلك الشريحة من الكهنة ومن رجال الدين، وبين المؤمنين من ناحية أخرى. ولم يكن البابا غريغور الكبير، الذي مر ذكره سابقا، هو الوحيد الذي أدرك هذه الأهمية بل إن كل رجال الكنيسة قد أدركوا ذلك أيضا من خلال عملهم اليومي، وبالتحديد في بحثهم عن أفضل وسيلة لشرح أحداث الكتاب المقدس للمؤمنين.

وهكذا نجد أن غريغور الكبير نفسه يشرح بشكل واضح في رسالة له إلى الأسقف سيرين Seren في ماسيل (مرسيليا اليوم) أهمية الرسم في وعظ «الحمقى»، أي الأميين ففي هذه الرسالة المؤرخة في تشرين الأول سنة 600 م يوضح صاحبها أن الكتابة بالنسبة للمتعلم تعادل الرسم بالنسبة لـ «الحمقى»، لأن الرسم يمكن أن يقرأه الذين لا يعرفون فك الحروف.

ونتيجة لهذه المفاهيم فقد ظهرت لفافات مثيرة مصنوعة من الرقوق ومزينة بمشاهد من الكتاب المقدس ورموز مختلفة بالإضافة إلى رسوم الحكام الذين كانوا حينئذ في السلطة. وكان الشماس خلال قراءة النص من على المنبر يفرد ببطء اللفافة بحيث يمكن للمؤمنين أمامه أن يشاهدوا الرسوم وأن يتابعوا النص الذي يقرأه عليهم. ونظرا لأن الرسم كان يجب أن يكون في وضع عمودي ليناسب المشاهدين فقد أصبح النص يكتب أيضا في هذا الوضع لكي يتناسب مع الرسم.

وقد تراوح طول هذه اللفافات من مترين إلى تسعة أمتار، بينما تراوح عرضها من 15 سم إلى 47 سم. وكانت هذه تستعمل كثيرا في إيطاليا خلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلادي، بينما قل استعمالها كثيرا في

القرون اللاحقة.

وقد حفظت من هذه اللفافات 31 نسخة، ومن هذه نجد 28 نسخة تتضمن أدعية مع رسوم مناسبة كانت تتلى بمناسبة إيقاد الشموع في لحظة قيامة المسيح.

إلا أن أهمية الرسم كمادة للتواصل ستبرز بشكل خاص فيما بعد، حين يتم طبع رسوم القديسين بالقوالب الخشبية، أو طبع الكتب التي تكثر فيها الرسوم إلى حد أن النص فيها يصبح في الدرجة الثانية من حيث الأهمية.

د- الكتاب الديني والكتاب غير الديني

كان العدد الأكبر من المؤلفات التي كتبت أو نسخت في العصر الوسيط بطابع ديني، ولم تكن تضم على الغالب إلا الأدعية. وكان الرهبان في ورش النسخ في الأديرة، وأولئك النساخ الذين يعملون في الأسقفيات والكنائس، يحرصون في عملهم على تلبية حاجات الأديرة والكنائس في الدرجة الأولى.

أما الكتاب غير الديني، ونقصد هنا في الدرجة الأولى المؤلفات الكلاسيكية اليونانية والرومانية، فقد بقى يتمتع بهيبة كبيرة في نظر الأفراد المتعلمين بينما لم يكن هناك موقف موحد إزاء «الكتاب الوثني» في الأوساط العليا لرجال الدين. وهكذا نجد أن كاسيدور وغيره يقومون بجهود كبيرة لإنقاذ أكبر عدد ممكن من المؤلفات الأدبية والعلمية للعصر القديم، وذلك نظرا لاقتناعهم بأن معظم الكتاب الوثنيين من يونانيين ورومانيين لا يشكلون أية خطورة على المسيحيين بل إنهم ضروريين لدراسة وفهم المسيحية.

ومع أن الأفراد الذين يحملون مثل هذه المفاهيم كانوا يتناقصون كثيرا منذ نهاية القرن السابع الميلادي، إلا أنه خلال العصر الوسيط بكامله سيبقى هناك من يمثل النخبة المسيحية المثقفة ومن يؤكد على نسخ النصوص القديمة ودراستها بشكل جدي. وقد كان هؤلاء يستندون في تبرير اهتمامهم الكبير بالكتاب الوثنيين للعصر القديم على كتابات بعض الكتاب المسيحيين السابقين كالقديس أغسطين والقديس يورنيم. وبشكل خاص فقد كان هؤلاء يجدون تبريرا لموقفهم في الرسالة التي كتبها في القرن الرابع الميلادي أسقف قيسارية، القديس بازيل، والتي أوضح فيها للشباب الفائدة من قراءة مؤلفات الكتاب الوثنيين. وتجدر الإشارة هنا إلى مؤلفات الكتاب

الوثنيين، في نهاية العصر القديم وحتى في بداية العصر الوسيط، كانت تدرج في منهاج الدراسة للمدارس في ذلك الوقت (في مدرسة غزة بقي هذا حتى القرن السادس) بحيث إن بعض مؤلفات الكتاب الوثنيين بقيت تنسخ لحاجات الدراسة إلى جانب مؤلفات الكتاب المسيحيين.

وعلى الرغم من هذا لا بد من القول إن موقف العلماء المسيحيين إزاء الكتاب الوثنيين كان عدائيا في معظم الحالات. فقد كانت الزعامة الدينية للكنيسة ترى في هؤلاء خطرا على الأخلاق، وحتى على الدين، ولذلك كانت توصي المؤمنين بعدم قراءة مؤلفاتهم. وقد استمر هذا الموقف السلبي لمعظم رجال الدين من الكتاب الكلاسيكيين اليونانيين والرومانيين إلى عصر النهضة الكارولية في القرن الثامن الميلادي، وكان هذا الموقف يؤدي أحيانا إلى نتائج وخيمة بالنسبة إلى مؤلفاتهم. وهكذا فستختفي إلى الأبد الكثير من المؤلفات إما لعدم نسخها ثانية أو لكتابة نصوص أخرى فوقها. فبسبب نقص الرق الذي كان ثمنه غاليا لجأ بعض النساخ إلى مؤلفات الكتاب القدماء ليمحوا أو ليحكوا النصوص القديمة ويكتبون فوقها النصوص الجديدة. وقد عرف هذا النوع من الرق بـ «الباليمبست» Palimpsest. ولدينا من هذا النوع من الرق أعداد كبيرة كتبت في بعض الأديرة (دير لوكسيل-Lux euil ودير بوبيو Bobbio إلخ) خلال عدة قرون (6- 8 م). وقد أصبح الآن في الإمكان قراءة النصوص الممسوحة بفضل الأشعة فوق البنفسجية. وهكذا فقد ضحى النساخ في العصر الوسيط، ولكن لفترة من الزمن لحسن الحظ، بنصوص بلاوت Plaut وليفي وشيشرون وغيرهم من الكتاب القدماء. وفي الواقع أن بعض نصوص هؤلاء الكتاب نعرفها اليوم بالاستناد إلى المخطوطات الأخرى التي بقيت لنا من العصر الوسيط، إلا أن بعض النصوص الأخرى كـ «حول الجمهورية» لشيشرون لا نعرفها إلا بالاستناد إلى «الباليمبست» المحفوظ في مكتبة الفاتيكان.

ولكن منذ القرن الثامن الميلادي أخذ الاهتمام بالكتاب القدماء يتصاعد بشكل ملحوظ في أوربا الغربية. فمنذ ذلك الوقت أخذت بعض ورش النسخ في الأديرة تنشط في نسخ الكتب غير الدينية بالإضافة إلى الكتب الدينية. وهكذا أصبحت مكتبات الأديرة تم الآن مؤلفات شيشرون وفيرجيل وحتى كتاب أوفيد المثير «فن الحب». ومن الواضح أن هذه المؤلفات كانت تقرأ

كثيرا في الأديرة. ولولا أن الرهبان لم ينسخوا ولم يقرأوا هذه المؤلفات، وغيرها من مؤلفات العصر القديم، لما كانت قد حفظت حتى الآن.

ولدينا في «كتاب التجارب» الذي ألفه الكاتب والخطاط أوتلوه Otloh دليل مثير يكشف عن مدى اهتمام الرهبان بمؤلفات الأدب الوثني. ففي هذا الكتاب يخبرنا المؤلف، وهو الراهب المتعلم، أنه حين وصل إلى دير القديس إيمران Emeran المعروف في ريغنسرغ Regensburg وجد هناك تيارين، تيار من الرهبان يقرأ الكتب الوثنية وتيار آخر يقرأ الكتاب المقدس فقط.

وقد شهدت أوربا أخيرا، في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي وبداية القرن الثاني عشر الميلادي، تغيرات كبيرة في الحياة الروحية. وفي هذا الإطار أخذت الأديرة تفقد بالتدريج وضعها كمراكز وحيدة الثقافة، وشرعت الجامعات ومدارس الأسقفيات، وحتى المدارس العلمانية التي برزت حينئذ، تأخذ هذا الدور من الأديرة. وهكذا نشهد دفقات من النهضة في أوربا خلال العصر الوسيط، مع أن هذه الدفقة الأخيرة تتميز عن تلك السابقة بعمقها واتساع تأثيرها. فقد أخذ العصر الحديث يبدو في الأفق استنادا إلى تزايد مؤلفات الكتاب القدماء في المكتبات في ذلك الوقت. وهكذا فقد أصبحت مؤلفات شيشرون وسينكا وهوراس وغيرهم تقرأ بازدياد، بينما أصبح كتاب أوفيد «دواء الحب» يقرأ حتى في المدارس. ومنذ ذلك الوقت أصبحت المؤلفات غير الدينية، سواء مؤلفات الكتاب القدماء أو مؤلفات الكتاب المعاصرين، تصبح جزءا أساسيا ومهما من كل مكتبة.

د- الكتاب كمادة للتقديس

لم يعد الكتاب في العصر الوسيط بالنسبة لغالبية الأميين، الذين فقدوا صلتهم بالتعليم، يعني الكثير كمصدر للمعلومات بل أصبح له مغزى آخر بالنسبة إليهم-مغزى التقديس والسحر.

وقد كانت تنسب حتى في الأوقات السابقة بعض الصفات الخارقة لبعض الكتب. وهكذا فقد كان المصريون القدماء، ثم اليهود وغيرهم من شعوب الشرق الأوسط، والرومانيون يعتبرون بعض الكتب «مقدسة» ولذلك كانوا يحترمونها بشكل خاص. وفي بعض الأحيان كان لهذه الكتب قدرة على الشفاء من الأمراض الخطرة، وتجلب الحظ لكل من يمسها، بينما

تؤمن الحمل للمرأة وهكذا.

وقد ورثت المسيحية هذه الاعتقادات إلا أن هذه ستنتشر كثيرا في العصر الوسيط فقط. فابتداء من أوريغن وغيره من الكتاب المسيحيين في العصر القديم نجد تلك الفكرة القائلة بأن بعض الكتب قد كتبت من قبل الملائكة والقديسين، بل من الله نفسه أو بوحي منه. ولكن في العصر الوسيط ازدادت كثيرا الروايات حول هذه الاعتقادات، وسنكتفي هنا بذكر واحدة منها فقط. ويتعلق الأمر بتلك الأسطورة التي تقول بأن المخطوط المعروف من نهاية القرن السابع أو بداية القرن الثامن الميلادي، الذي اشتهر باسم «إنجيل سبليت» والذي وجد في قبر شهيد سالونيك وحامي سبليت القدير ديام (قتل في سنة 304 م)، قد كتبه هذا القديس بخط يده. ولهذا السبب فإن هذا المخطوط قد حفظ عبر القرون ولا يزال يحفظ إلى اليوم في كاتدرائية سبليت كأثر من آثار القديسين. وفوق هذا الأثر كان الأساقفة يؤدون اليمين أمام رئيس الأساقفة في سبليت، ويعتقد أن بعض الحكام الكرواتيين من السلالة الشعبية في العصر الوسيط قد أدوا اليمين أيضا فوق هذا الأثر.

ومن بين الكتب التي تحمل سمات القداسة يأتي الإنجيل في الدرجة الأولى إذ نراه كشيء مقدس في عدد هائل من الأعمال الفنية التي تعود إلى بداية العصر الوسيط. إلا أن هذا الكتاب المغلق، الذي يحمله في أيديهم القديسون والمبشرون بشكل خاص، لم يعد للقراءة بل للتقديس من قبل المؤمنين. وقد أصبح لبعض الكتب أيضا، لعلاقتها بأحد القديسين أو بأحد الملوك، قوة خارقة يمكن أن تعيد للكفيف بصره وللأطرش سمعه وللجريح سلامته. وحسب شهادة أحد القساوسة الباريسيين فإن المخطوط الذي أهداه القيصر البيزنطي ميخائيل الثاني إلى ملك فرنسا لودفيغ الطيب سنة 827 م، والذي حفظ في دير القديس دينس بالقرب من باريس، قد تمكن من أن يشفي خلال يوم واحد 19 مريضا.

ر- ثقافة الأديرة في أوربا

تعتبر ثقافة الأديرة بحق إحدى السمات المميزة لأوربا في العصر الوسيط. وقد كان الدير كمؤسسة وطريقة للحياة شيئا غريبا تماما عن

ثقافة العصر القديم في أوربا، إلا أنها أخذت في البروز على الأرض الأوربية منذ نهاية العصر القديم إلى أن ازدادت وأصبحت ظاهرة مسيطرة على الحياة الاقتصادية والثقافية للعصر الوسيط في أوربا الغربية. وهكذا مع مرور الزمن فقد أخذت هذه الأديرة الأوربية وظائف لم يكن يحلم بها أولئك الذين أسسوا الأديرة لأول مرة في الشرق الأوسط.

وقد كانت هذه الأديرة ذات شأن كبير في تاريخ الكتاب لأنه وراء الجدران الضخمة لعدد كبير من الأديرة في أوربا كان يتم كل ما له علاقة بإنتاج الكتاب ورعايته. ففي هذه الأديرة كان الرهبان ينسخون الكتب وكان الفنانون يزينون النصوص بالرسوم، وفي الأديرة أيضا كان يتم في كثير من الأحيان إنتاج مادة الكتابة-الرق. وقد كان يعتبر من الطبيعي أن يكون لكل دير مكتبته حتى انتهى الأمر إلى انتشار المثل القائل «الدير دون كتب كالمدينة دون جدران وكالمائدة دون طعام». وبفضل هذه المفاهيم فقد حافظت الأديرة على عدد كبير من مؤلفات كتاب العصر القديم والعصر الوسيط، إلا أن دور الزمان وقلة حرص الإنسان أديا في النهاية إلى أن تضيع هذه الكتب إلى الأبد.

١ - ورشة النسخ في الدير

لم تكن ورشة النسخ في العصر الوسيط تختلف من حيث الجوهر، سواء من حيث التنظيم أو من حيث التجهيز، عن ورشة النسخ التي تطورت في العصر القديم. ولكن في العصر القديم كانت ورشة النسخ لدى اليونانيين والرومانيين توجد في المدارس والأكاديميات والمكتبات، أو كانت تتبع الناشرين، بينما أصبحت ورشة النسخ في العصر الوسيط تتواجد في الأديرة والكاتدرائيات والأسقفيات.

إن تعبير «ورشة النسخ» scriptorium في حد ذاته يتعلق بتلك الغرفة من الدير التي يقوم فيها الرهبان بنسخ الكتب. ومن المعروف أن الأديرة الكبيرة، كدير القديس غالين في سويسرا ودير فولدا في ألمانيا إلخ خاصة الأديرة البنيديكتية[*3]، كانت تحتوي على غرف من هذا النوع مخصصة للنسخ.

(*3) الأديرة البنيديكتية نسبة إلى القديس بنيديكت انظر الفقرة (30) من هذا الفصل (المترجم).

ولكن في حالات أخرى، وهي ليست نادرة، كانت الأديرة تفتقد مثل هذه الغرف ولذلك فقد كان نسخ الكتب يتم في الغرف الصغيرة للرهبان. ومن المثير أن الكثير من الرسوم التي تصاحب النصوص تظهر في الغالب الراهب (أو أحد القديسين في حالة الكتابة) وحده في غرفته الضيقة وليس في ورشة كبيرة للنسخ.

وكانت ورش النسخ عادة تتسع لعدد من النساخ يتراوح من 3 إلى 12 ناسخا. وقد كان لكل ناسخ مقعد وطاولة لوضع الكتاب الذي ينسخ منه ثم طاولة مائلة لينسخ عليها ما يريد أن ينسخه. وبالإضافة إلى هذا تبين لنا الأعمال الفنية (المنمنمات والفسيفساء) من تلك الفترة بقية الأشياء التي يحتاجها الناسخ: المحبرة والقلم، والسكين لبري القلم والأسفنجة والمكشط لإزالة أي خطأ في النص. وفي العادة كان النساخ ينسخون المؤلفات وحدهم، بينما كانوا في حالات نادرة يجتمعون ويكتبون ممن يملي عليهم النص.

كان النساخ الذين يتمتعون بخبرة كبيرة، والذين كان في إمكانهم أن ينسخوا المؤلفات بخط جميل، يطلق عليهم اسم «أنتي كواري» antiquarii أما أولئك العاديون، الذين يعهد إليهم بالأعمال البسيطة، فكانوا يسمون «النساخ» scriptores أو «الكتبة» librarii.

وكان النساخ حين ينتهون من عملهم يسلمون المخطوطة إلى المعلمين الذين كانوا يكتبون بالحبر الأحمر الحروف الأولى أو تزيين المخطوط بالرسوم، والمخطوط وزخرفة جوانبه فيسلم المخطوط في هذه الحالة إلى الرسامين والمزخرفين وفي نهاية الأمر يأتي دور المجلدين لتجليد الكتاب. وفي حالات خاصة كان الكتاب يسلم للحرفيين لكي يتفننوا في تزيينه بأغلفة من الذهب أو الفضة، ومرصعة بالأحجار الكريمة أو شبه الكريمة أو مطلية بالميناء الخ.

كان يراقب عمل النساخ أحد الرهبان الذي يتمتع بخبرة وافية في هذا المجال وفي الغالب كان يقوم بهذا العمل مدير مكتبة الدير.

وقد كان هذا يهتم في أن يستلم الرهبان في الوقت المناسب المخطوطة التي يجب أن ينسخوها ومادة الكتابة (الرق أو الورق). وفي بعض الأحيان كان يقوم أيضا بمراجعة النص المنسوخ ومقارنته مع النص الأصلي.

وكان النساخ، وخاصة المتفوقون منهم، يتمتعون بتقدير كبير. وفي الواقع

لم يكن يمارس النسخ إلا أولئك الرهبان الذين كانوا يعبرون عن موهبة خاصة، والذين كانوا يتمتعون بالمعرفة الكافية لكي ينجزوا عملهم على أفضل وجه. ولهذا السبب فقد كان عمل النساخ في الدير يعتبر من الأعمال المهمة، ولأجل ذلك فقد كان النساخ بالمقارنة مع بقية الرهبان يتمتعون ببعض الامتيازات. وقد كانت الأديرة الكبيرة تهتم بأن يكون لديها أمهر النساخ لكي تستطيع إرضاء طلبات الحكام والمسؤولين الكبار من المخطوطات الثمينة. وتبدو مكانة وأهمية النساخ في العصر الوسيط في صرامة العقوبة التي شرعت في حالة تعرض أحد النساخ للقتل. ففي أيرلندا مثلا تتساوى عقوبة قتل الناسخ مع عقوبة قتل الأسقف.

وقد تمتع بعض النساخ خلال حياتهم بشهرة كبيرة نظرا لمهارتهم في النسخ. ومن بين هؤلاء لا بد أن نذكر ريغينبرت Reginbert (الذي كان يعمل في دير رايهينا و)-Re ichenhau (توفي سنة 847 م) وأوتلوه من دير القديس أمران في ريغنسبرغ (توفي 1070 م) وغيرهم.

وبالإضافة إلى ظهور النساخ في الكثير من الأعمال الفنية، التي تصور بصدق جو ورش النسخ في العصر الوسيط، لدينا بعض الكتابات في المصادر المعاصرة التي تصف هذه الورش بشكل حي. وهكذا مثلا لدينا وصف لورشة النسخ في دير القديس مارتين في تورنوا Tournoi من قبل أحد مؤرخي القرن الحادي عشر الميلادي: «يمكن للداخل إلى الدير أن يرى دائما مجموعة من الرهبان وهم يتحلقون حول الطاولات ويكتبون في هدوء.. .». ولكن في الشتاء كان على الرهبان في الغالب أن يمارسوا عملهم في الغرف الباردة التي، كما يقول أحد الرهبان، «لا يمكن فيها الكتابة ولا القراءة». وبغض النظر عن الظروف المناخية فقد كان لدى الرهبان ما يدفعهم إلى التذمر من عملهم، إذ كان عليهم أن يقضوا الأيام والشهور والسنين وهم ينسخون النص ذاته أحيانا. ولذلك ليس من المستغرب أن يرتكب معظم هؤلاء أخطاء في النصوص المنسوخة، وهذه الأخطاء لم تكن على أي حال تؤنب ضميرهم. وفي الحقيقة أن المشاعر الحقيقة لهؤلاء المساكين يمكن أن نتلمسها حين نقرأ ملاحظاتهم التي كانوا يسجلونها في نهاية المخطوطة. وهكذا نقرأ مثلا في نهاية مخطوط في الأبجدية السلافية القديمة (الفلاغولية) من النصف الثاني للقرن الرابع عشر الميلادي:

«كتب هذا القس دمينيفو الذي لفظه الشيطان، آمين».

وقد كتب قديس آخر يبدو أنه كان يحب الخمرة الجيدة. «كتب هذا القس الذي يحب الخمرة أكثر من الماء». وفي الواقع لدينا الكثير من أمثال هذه النوادر، ولكن لدينا أيضا حالات يتوجه فيها النساخ إلى القراء مباشرة. وهكذا نجد في نهاية مخطوط من القرن السادس عشر الميلادي «اقرأ ولا تترك النعاس يسيطر عليك».

وفي أمثال هذه الملاحظات كان النساخ يعبرون عن معاناتهم، وحتى عن تبرمهم. ولكن في المقابل كان هناك الكثيرون الذين كانوا يمارسون هذا العمل للتقرب إلى الله ولنيل الأجر في الحياة الآخرة.

2- دير فيفاريوم

في تاريخ ثقافة الأديرة في أوربا يحتل دير فيفاريوم، الذي أسسه كاسيودور، مكانة خاصة ثم يأتي بعده دير جبل كاسينو والأديرة التي تفرعت عنه، وأخيرا الأديرة العديدة التي أسسها المبشرون الإرلنديون والانغلو ساكسونيون في أوربا في بداية العصر الوسيط. وسنتحدث هنا أولا عن كاسيودور وعن الدير الذي أسسه مع أنه ليس أول دير من نوعه في أوربا الغربية. إلا أن هذا الدير يتميز عن غيره من الأديرة في بداية العصر الوسيط بارتباطه الوثيق مع التراث الثقافي للعصر القديم.

ولد كاسيودور سنة 485 م في عائلة محترمة في روما وتوفي سنة 580 م. وبالمقارنة مع من سبقوه، الذين حملوا السلاح للدفاع عن المجد الروماني أمام غزوات البرابرة الجرمانيين، فقد كان كاسيودور يعتقد بإمكانية إنقاذ روما وإيطاليا بالتعاون مع هؤلاء البرابرة، وخاصة القوط. ولأجل هذا فقد أصبح كاسيودور وزيرا للملك القوطي تيودوريك في رافينا، وبقي في هذه المدينة إلى أن قام القائد العسكري البيزنطي بليزار (Belizar) بالاستيلاء عليها. وبعد ذلك عاد كاسيودور إلى مسقط رأسه، في كالابريا، وأسس هناك سنة 555 م أحد أشهر الأديرة في أوربا خلال العصر الوسيط-دير فيفاريوم.

وكان كاسيودور قبل أن يؤسس هذا الدير قد حاول في روما أن يؤسس أكاديمية مسيحية على نمط أكاديمية الإسكندرية. وقد كان يطمح من

خلال هذه الفكرة أن يجمع المثقفين في ظروف مناسبة ليتابعوا تطوير العلوم والفنون. وقد تمكن لأجل هذا أن يكسب إلى صفه البابا أغابيت (Agapet) الذي كان له ميل إلى الكلمة المكتوبة حتى أنه أسس مكتبة على رابية سليا (celia) حيث لا تزال بقاياها قائمة إلى اليوم. وليس من المستبعد أن يكون البابا قد أسس هذه المكتبة لخدمة الأكاديمية التي كان كاسيودور يحلم بتأسيسها. إلا أن غزو القائد البيزنطي بليزار لروما سنة 536 م قد أفسد الخطة المتعلقة بإنشاء الأكاديمية. ولكن حتى لو تأسست أكاديمية من هذا النوع في ذلك الوقت فقد كان من الصعب أن تمارس ذلك الدور الذي حدده لها كاسيودور، لأن الظروف العامة في إيطاليا لم تسمح للعلماء والفنانين أن يعملوا بهدوء. وعلى الرغم من هذا لم يتخل كاسيودور عن هدفه بإنشاء مركز علمي يقوم فيه الرهبان أيضا بنسخ مؤلفات الكتاب القداس. ولأجل هذا فقد أسس كاسيودور في أملاكه، في كالابريا الجنوبية، دير فيفاريوم الذي حدد له ذلك الدور-ولو بشكل جزئي-الذي كان يجب أن تمارسه أكاديمية روما.

إن معلوماتنا عن هذا الدير وافية وهي تستند بالدرجة الأولى إلى كتاب «التعليمات» الذي ألفه كاسيودور نفسه ليوضح للرهبان وظائفهم وواجباتهم. وهكذا فقد كان على الرهبان، بالاستناد إلى مفاهيم كاسيودور، أن ينسخوا باهتمام المؤلفات سواء أكانت لكتاب مسيحيين أو لكتاب وثنيين.

وفي إطار الدير خص كاسيودور المكتبة بأهمية خاصة. وبالاستناد إلى كتاب كاسيودور المذكور نعرف أن هذه المكتبة كانت تتضمن نسخا من الكتاب المقدس ومؤلفات الآباء والكتاب المسيحيين بالإضافة إلى كثير من مؤلفات الكتاب الوثنيين كشيشرون سنيكا وليفي وتاسيت وغيرهم. وبالاستناد إلى وصف كاسيودور نفسه للمكتبة نعرف الآن أن الكتب كانت توضع في خزائن لكل واحدة رقمها الخاص، وكانت الكتب غير الدينية توزع حسب التصنيف القديم إلى سبع مجموعات.

وكانت تسيطر على كاسيودور رغبة قوية لإنقاذ التراث اليوناني-الروماني لأنه كان على اقتناع عميق بضرورة دمج هذا التراث في العالم الروحي الجديد-في العالم المسيحي. وهكذا نجده في مجموعة مقالاته المعنونة بـ «متفرقات» (3، ص 9) يعبر بشكل واضح ومقتضب عن هدفه الأساسي

وموقفه الحياتي «إن هدفنا هو خلق شيء جديد ولكن على أن ننقذ القديم».

ولكن في دير من هذا النوع الذي تصوره كاسيودور كمؤسسة علمية أكثر من كونه مكانا للصلاة والتأمل الروحي، كان من الصعب أن تتحقق هذه الأفكار وأن يبقى كما أراد له مؤسسه أن يكون. وهكذا فقد انتهى وجود هذا الدير مع وفاة مؤسسه بينما بقي مصير مكتبته مجهولا. وقد شاع الاعتقاد في السابق أن المخطوطات الثمينة لهذه المكتبة قد نقلت إلى دير بوبيو (Bobbio) المشهور، بينما يسود اليوم الاعتقاد بأن هذه المخطوطات قد نقلت إلى مكتبة البابوات في روما، التي كانت تقع في منطقة لاتيران (Lateran)، ولكن هذه مجرد فرضية تفتقر إلى أدلة حاسمة.

ولقد أثبت كاسيودور بتأسيسه لهذا الدير في ذلك المكان المنعزل والبعيد عن الطرق والمراكز الثقافية الإيطالية في ذلك الوقت، كما أثبت ذلك سابقا حين خطط لتأسيس الأكاديمية في روما، بأنه كان يتصرف دائما كأرستقراطي روماني لا كرجل قروسطي. فبعد أن فشلت فكرته لتأسيس أكاديمية في روما كان كاسيودور يؤمن بأن الكتاب سيجد في الدير المنعزل الملجأ الأمين له في الأوقات العصيبة التي كانت تبدو في الأفق. وبالفعل فقد وجد الكتاب ملجأ له في الأديرة، إلا أن دير فيفاريوم لم يكن من بينها لأن مؤسسه كان قد حدد له دورا يفوق طاقة الأديرة في العصر الوسيط. وعلى الرغم من هذا الفشل فقد أثر كاسيودور بكتابه «التعليمات» وتأسيسه لدير فيفاريوم بشكل قوي في تكون الوعي بالحاجة إلى العمل الثقافي وإلى رعاية التراث القديم.

3- دير القديس بينديكتي في جبل كاسينو

في الوقت الذي كان فيه كاسيودور المثقف ينطلق من أن دراسة الكتاب المقدس لا يمكن أن تتم دون التعرف بشكل عميق على الفلسفة والأدب اليوناني-الروماني، وأن الشباب لا يمكن أن يتثقف دون الاطلاع على تلك المؤلفات التي أبدعتها الثقافة الوثنية اليونانية الرومانية، نجد أن معاصره القديس بينيديكتي كان يرفض كل الثقافة اليونانية الرومانية ويعتبرها غير ضرورية ومعادية. وعلى حين أن كاسيودور أراد أن يجعل من دير فينهاريوم مركزا علميا نشيطا نجد أن القديس بينيديكتي كان يود الهرب من الحياة

الصاخبة للمدن والتهرب من الهموم المادية والثقافية.

ولد القديس بينيديكتي حوالي (480-543 م) في نورسيا (نوريتا اليوم في أومبريا) وقضى فترة من حياته في روما خلال دراسته. وقد أثاره كثيرا الانحدار الخلقي لهذه المدينة الكبيرة إلى حد أنه قرر أن يقتدي بالزهاد الشرقيين في ذلك الوقت وأن يعتزل الحياة، ولأجل هذا فقد أسس سنة 529 م ديرا في جبل كاسينو بين روما ونابولي، وبالتحديد في المكان الذي كانت تقوم فيه قلعة روما والذي كانت قد بقيت فيه المعابد التي بنيت لجوبيتر وأبولون. وقد أصبح هذا الدير مع الزمن من أشهر الأديرة في أوربا خلال العصر الوسيط. وقد ألف القديس بينيديكتي كتابه المشهور «قانون الرهبان»، الذي يحض فيه الرهبان على ضرورة الالتفات إلى الأدعية وحياة الزهد وإلى ممارسة الأعمال اليدوية. وبالمقارنة مع كاسيودور، الذي كان يطالب الرهبان بنسخ الكتب، نجد أن القديس بينيديكتي لم يطلب منهم شيئا كهذا. وفي الحقيقة أن القديس بينيديكتي في «قانون الرهبان» يحدد كواجب للرهبان أن يقرأوا الكتاب المقدس وعدة كتب دينية أخرى خلال ساعات معينة خلال النهار، إلا أن الغرض من هذا الواجب لم يكن تثقيف الرهبان بقدر ما كان تعميق وتوطيد الدين في نفوسهم.

ولا بد أن نذكر هنا مصادفة ترمز للكثير مع أنها لم تحدث طبعا برغبة أو بعلم القديس بينيديكتي. ففي نفس السنة التي أسس فيها القديس بينيديكتي هذه المؤسسة النموذجية لثقافة الرهبان الجديدة في أوربا، قام الإمبراطور البيزنطي بوستينيان بإغلاق أكاديمية أفلاطون في أثينا بعد ألف سنة تقريبا من وجودها كأشهر مركز للمعرفة الوثنية في العصر القديم.

إلا أن هذا الدير المتواضع الذي أسسه القديس بينيديكتي سيصبح خلال القرن الثامن الميلادي مركزا ثقافيا مهما يتميز بنشاط كبير في نسخ الكتب. ولا شك في أن القديس بينيديكتي نفسه لم يكن يتصور أن ديره في جبل كاسينو، أو بقية الأديرة البينيديكتية التي برزت في أوربا، يمكن أن يهتم إلى هذا الحد بالكتاب أو أن الرهبانية البينيديكتية التي أسسها يمكن أن تحتضن الكتابة والمعرفة في عدة أجزاء من أوربا.

وكان دير كاسينو قد هدمه اللونغوبارديون لأول مرة سنة 577 م، ومحت

المعلومات عنه بعد ذلك إلى بداية القرن الثامن حين تم تجديده، ولكن في هذه المرة لم يعد الدير كما كان مكانا للصلاة والتأمل وحياة الزهد بل أصبح مكانا يلتقي فيه عدد كبير من العلماء من كل أنحاء أوربا . وقد أحدث قدوم المؤرخ المعروف بولس الشماس في العقد السابع من القرن الثامن انعطافا في حياة هذا الدير. فقد بادر هذا إلى تشغيل ورشة النسخ حيث تم فيها نسخ عدد كبير من الكتب، وخاصة كتب النحو والقواعد، التي كانت تستخدم لأجل التعليم.

ولكن بين الكتب التي كانت تنسخ هنا نجد أيضا عددا كبيرا من مؤلفات الكتاب القدامى، التي بقي بعضها إلى اليوم بفضل نسخها في هذا الدير بالذات. أما العلماء الذين كانوا يعيشون في الدير من نهاية القرن الثامن وحتى نهاية القرن التاسع الميلادي، فلم يكتفوا فقط بنسخ النصوص القديمة بل أخذوا يؤلفون الأعمال الجديدة التي كانت في غالبيتها غير دينية. وهكذا مثلا نجد أن الأباتي برتار يؤلف مجموعة من النصوص المتعلقة بعلم الفلك وكتابين في علم الطب، وقد ألف بولس الشماس نفسه هنا، مستفيدا دون شك من مكتبة الدير الفنية، كتابه المعروف «تاريخ اللونغوبارديين». أما تلميذه هيلدريك Hilderik فقد ألف فهنا كتابه «فن القواعد» الذي يستشهد فيه بأعمال كثيرة لفيرجيل وأوفيد وغيرهم من كتاب العصر القديم، مما يكشف لنا عن معرفة المؤلف الواسعة بالأدب وعن عالم الكتاب في هذا الدير خلال ذلك الوقت.

وهكذا فإن دير جبل كاسينو منذ القرن السابع الميلادي يقترب أكثر من تصور كاسيودور عن الدير في العصر الوسيط ويبتعد أكثر عن مفهوم مؤسسة القديس بينيديكتي. وهكذا لم يكن من المصادفة أبدا أن ينسخ في جبل كاسينو كتاب كاسيودور «التعليمات»، الذي يبدو أنه نسخ من النص الأصلي الذي كتبه المؤلف بخط يده.

إلا أن الدير هدم ثانية من قبل العرب سنة 883 م، ولم يعد الرهبان إليه إلا في منتصف القرن العاشر الميلادي حين جدد مرة أخرى، وعاد النشاط إليه ثانية في نسخ النصوص القديمة وتأليف النصوص الجديدة. أما في القرن الحادي عشر الميلادي فقد أصبح دير جبل كاسينو أهم مركز ثقافي في أوربا . ففي تلك الفترة برز على رأس الدير الأباتي ديزيدير (Dezider)،

الذي نصب لاحقا باسم البابا فيكتور الثالث. وهكذا نجد أنه في هذا الدير أصبح الاهتمام بنسخ مؤلفات الكتاب القدماء لا يقارن بأي مركز آخر في أوربا. فبفضل توجيهات الأباتي ديزيدير تم هنا نسخ مؤلفات شيشرون «حول طبيعة الآلهة» وسنيكا وتيرينس ويوسيب فلافا «الحرب اليهودية» وأوفيد وغيرهم.

وهكذا فقد عايش الأدب الكلاسيكي اليوناني-الروماني انبعاثا حقيقيا في جبل كاسينو، وبالإضافة إلى نسخ المؤلفات هنا فقد اغتنت مكتبة الدير بهدايا الحكام والأمراء والجمع المنظم لمخطوطات العصر القديم، التي كانت الأصلية منها قد أصبحت نادرة بينما كان لا يزال في الإمكان العثور على نسخ متأخرة منها في إيطاليا خلال ذلك الوقت.

وفي هذا العهد الذهبي للثقافة في جبل كاسينو تطورت الكتابة البنفنتانية(*4) لتأخذ شكلها النهائي، وأصبحت تستخدم الآن في إيطاليا الجنوبية ومناطق أخرى في أوربا، بينما سينشأ عنها لاحقا في دالماتيا شكل خاص يعرف باسم البنفنتانية الدلماتية.

لقد كان لهذا الدير وغيره من الأديرة البينيديكتية في أوربا،-حيث وصل عددها إلى 37 ألف دير-فضل كبير في إنقاذ مؤلفات التراث القديم وخلق ثقافة الأديرة في العصور الوسطى. وفي الفترة اللاحقة، حين عايشت الرهبانية البينديكتية أزمتها وأخذت دورها الذي مارسته خلال القرون 8-13 م بقية الرهبانيات وشرائح المجتمع الأخرى، وجد المتنورون في مكتبات هذه الأديرة المخطوطات التي ساعدت على انبثاق النهضة الأوربية في العصر الوسيط.

4-الأديرة الإيرلندية والإنغلوساكسونية في أوربا

كان لهذه الأديرة، التي أسسها المبشرون الإيرلنديون والإنغلوساكسونيون في بداية العصر الوسيط، دور مهم جدا في إحياء الكتابة وخلق الثقافة الجديدة-القروسطية-في القارة الأوربية.

وفي الواقع لقد كان مركزا إيرلندا، في إطار الأحداث السياسية والثقافية

(*4) نسبة إلى منطقة بنفنتو التي تقع في جنوب إيطاليا بين نابولي وروما (المترجم).

في أوربا، يتمتع بخصوصية كبيرة في جوانب عديدة. فقد سلمت إيرلندا من الاحتلال الروماني إلا أن تأثير الثقافة الرومانية تسلل إليها في نهاية العصر القديم، حيث اختلط هناك مع التقاليد الكلتية Celtic للسكان القدماء. ومن ناحية أخرى فقد سلمت إيرلندا أيضا من الفوضى المدمرة التي صاحبت هجرة الشعوب، في نهاية العصر القديم وبداية العصر الوسيط، بحيث تمكنت ثقافتها الأصلية أن تتطور في هدوء في الوقت الذي كان فيه البرابرة في أوربا يحطمون دون رحمة بقايا الثقافة القديمة.

وقد اعتنق الإيرلنديون المسيحية في القرن الخامس الميلادي بفضل القديس باتريك المبشر الذي كان قد جاءهم من بلاد الغال. وقد شهد القرنان السادس والسابع تأسيس الأديرة بشكل كثيف، حيث تحولت هذه إلى مراكز للحياة الدينية والسياسية والثقافية. وبروز في هذه الأديرة فن متميز، فن كلتي جديد وأصيل، كما تطور فيها خط متميز دعي بالخط الجزيري واعتبر أجمل الخطوط في أوربا خلال العصر الوسيط.

وفي هذه الأديرة كان الرهبان ينسخون بهمة ونشاط المؤلفات التي كانوا يأخذونها على الغالب من روما، بالإضافة إلى المراكز الأوربية الأخرى، بحيث استطاعوا أن يجمعوا عددا كبيرا من المخطوطات الجميلة. وبالاستناد إلى استشهادات الكتاب الانغلوساكسونيين خلال القرنين السابع والثامن للميلاد يمكن الاستنتاج بأن هذه الأديرة كانت تجمع عددا لا بأس به من مؤلفات الكتاب الوثنيين في العصر القديم. إلا أن معظم هذه المخطوطات اختفت خلال غزو الفايكنغ في القرنين التاسع والعاشر للميلاد، بحيث إن الإنتاج الوفير للكتاب من قبل الرهبان الإيرلنديين في الجزر البريطانية يمكن أن نثبته على الأغلب من خلال المخطوطات التي وجدت في المناطق الأوربية التي لم يصل إليها الفايكنغ البرابرة.

ومن بين هذه المخطوطات التي لا بد من ذكرها نسخة الإنجيل المشهورة التي وجدت في دير كلس، والتي أصبحت تعرف باسمه «إنجيل كلس». ويعتبر هذا الإنجيل الذي يعود تاريخه إلى حوالي سنة 800 م، من أجمل وأفخم المخطوطات التي كونها العصر الوسيط في أوربا.

وكان الرهبان الإيرلنديون قد أخذوا في التوجه نحو أوربا منذ القرن السادس الميلادي لنشر المسيحية بين البرابرة هناك، وقد كان لحركتهم

التبشيرية هذه، التي استمرت حتى غزو الفايكنغ لأديرتهم، نتائج بعيدة المدى على تطور ثقافة الأديرة في أوربا إذ أن المبشرين الإيرلنديين، ومن بعدهم الإنغلوساكسونيين، كانوا قد تمكنوا من تأسيس بعض الأديرة المشهورة في العصر الوسيط. وبهذا الشكل فقد أعادت إيرلندا لأوربا نتائج تلك الثقافة التي كانت قد أخذتها منها في السابق.

وقد توجه الإيرلنديون أولا إلى سكوتلندا وإنكلترا الشمالية، حيث أسسوا بعض الأديرة المهمة، التي أصبحت بدورها ترسل المبشرين إلى القارة الأوربية. ويعتبر القديس كولومبان أهم مبشر إيرلندي في ذلك الحين. وكان هذا قد غادر دير بانغور سنة 590 م مع تلاميذه الاثنا عشر وتوجه أولا إلى فرنسا حيث أسس عدة أديرة (انغراي Anegray فونتاين Fontaine ولوكسيل). وفي سنة 614 أسس القديس كولومبان في إيطاليا الشمالية دير بوبيو Bobbio، حيث توفي هناك بعد سنة. وقد أسس تلميذه غالوس Gallus سنة 613 م دير سانكت غالن Sankt Gallen، في سويسرا. وقد قامت مجموعة من الرهبان الإيرلنديين، بعد أن انضم إليها رهبان من سكوتلندا وإنكلترا، بالتجول في أوربا لنشر المسيحية حيث أسسوا أديرة أخرى. وهكذا فقد أسس ويلبرود Willibrod حوالي سنة 700 م ديرا في اشترناش-Ech ternach، وأسس بيرمين Pirmin ديرا في رايهناو Reichenau بالقرب من بحيرة بودن Boden سنة 724 م وديرا آخر في مورباخ Murbach سنة 727 م، بينما أسس إمران Emeran ديرا حمل اسمه في ريغنسبرغ Regensburg وكانت تقام في كل هذه الأديرة فور تأسيسها ورش للنسخ يتم فيها نسخ المؤلفات بالاستناد إلى القواعد التي وضعها لها القديس كولومبان. ومن بين هذه تميزت ورشة النسخ في دير بوبيو بدور هام في إنقاذ مؤلفات الكتاب القدماء. ومع أنه لا تزال تنقصنا المعطيات عن تاريخ مكتبة هذا الدير في الفترة الأقدم فقد بقي إلى اليوم فهرست هذه المكتبة، الذي يعود إلى القرن العاشر الميلادي والذي يتضمن عناوين 660 كتابا. وبالنسبة إلى أوربا في ذلك الوقت فإن هذه الكتب تعتبر مجموعة مهمة، وخاصة لأنها تتضمن الكثير من مؤلفات الكتاب في العصر القديم. وقد حفظت إلى اليوم بعض مخطوطات هذه المكتبة في روما وميلانو وغيرها من المدن، إلا أن هذه المخطوطات لم تنسخ كلها في ورشة النسخ التابعة لهذه المكتبة. ففي هذه المكتبة وجدت الكثير من

المخطوطات التي نسخت في ورش النسخ الأخرى في وقت سابق لتأسيس الدير نفسه. وعلى سبيل المثال فقد وجدت في مكتبة هذا الدير مخطوطات محمولة من إسبانيا وحتى من أفريقيا الشمالية. وحسب العادة الشائعة حينئذ فقد كان رهبان هذا الدير يمسحون من هذه المخطوطات النصوص القديمة ويكتبون عليها النصوص الجديدة.

وبتشجيع من القديس بونيفاس Bonifac فقد قام تلميذه ستروميوس- Stur mius بتأسيس الدير المشهور في فلدا Fulda بألمانيا سنة 744 م. وقد أصبح هذا الدير بسرعة مركز المسيحية في ألمانيا وأصبحت مكتبته أهم مكتبة في البلاد. أما في عهد الأباتي هرابانوس ماوروس (842-822 م) H.Maurus فقد أصبح هذا الدير مركزا للحياة الثقافية لكل ألمانيا. وكان الأباتي ماوروس قد كتب الكثير من المؤلفات ومن بينها «حول الكون»، الذي يعتبر من الأعمال الموسوعية الأولى في أوربا خلال العصر الوسيط. وهن بين أعماله لا بد أن نذكر النشيد الكنائسي المعروف «هلم أيها الروح القدس» الذي ما زال ينشد إلى اليوم في الكنائس. وكان يلتقي في دير فولدا الكثير من العلماء في ذلك الوقت، حيث كانوا يجدون الكثير من المؤلفات لكتاب العصر القديم.

لقد مارست شبكة الأديرة، التي أسسها الإيرلنديون والإنغلوساكسونيون في فرنسا وإيطاليا الشمالية وسويسرا وألمانيا، دورا مهما في إنتاج الكتاب. وفي الواقع لقد كان دور ورش النسخ قي هذه الأديرة كبيرا جدا فيما يتعلق بإنقاذ مؤلفات الكتاب القدماء ونشر الكتابة والمعرفة في أوربا حتى عهد النهضة الكارولية. ويمكن القول إن النهضة الكارولية نفسها قد برزت إلى حد كبير بفضل هؤلاء الرهبان المتعلمين الذين كانوا يفدون إلى القارة الأوربية من إيرلندا وسكوتلندا وإنكلترا، وقد كان أحد هؤلاء الرهبان بالذات، الكوين، هو المبادر الرئيسي للتجديد الثقافي الذي أيده بكل حماس كارل الكبير في إمبراطوريته الفرانكية.

وبالإضافة إلى هذا فقد حمل الرهبان الإيرلنديون والإنغلوساكسونيون من جزيرتهم إلى القارة الأوربية خطهم الفخم، الذي اشتهر باسم الخط الجزيري insular، والذي بقي يستعمل فترة طويلة من الزمن وبأشكال مختلفة في أديرتهم التي أسسوها.

5- الدومينيكان وبقية الرهبانيات

حظي إنتاج الكتاب وانتشار المكتبات بدفعة قوية من التطور نتيجة لجهود ما يسمى الرهبانيات المتسولة، التي يحتل فيها الدومينيكان موقعا متميزا. وقد أسس الإسباني دومييك غوزمان (D.Guzman) سنة 1215 م هذه الرهبانية الدينية التي اهتمت كثيرا بالكتاب والتعليم منذ تأسيسها. فالقديس دومينيك نفسه يعتبر اكتساب المعرفة على قدر كبير من الأهمية لإنجاز الهدف من تأسيس الرهبانية، ألا وهو مجابهة الأفكار والحركات الهرطقية المختلفة التي ظهرت خلال القرن الثالث عشر الميلادي في مناطق مختلفة من أوربا. وهكذا فقد كان المطلوب مقارعة الهراطقة بالحجج المعرفية لكي لا يترك المجال لهم لنشر أفكارهم، ولأجل هذا فقد أصبح الكتاب سلاحا قويا في يد الدومينيكان خلال كفاحهم في سبيل رعاية طهارة الدين ومصالح الكنيسة. وقد أوضح الرئيس الخاص لهذه الرهبانية، هومبرت دي رومانيس Humbert de Romanis (منتصف القرن 13 م)، المؤلف من الكتاب والتعليم بشكل لا لبس عليه في كتابه «عرض حول القوانين»: «إن التعليم ليس هدف الرهبانية بل الوعظ والعمل على إنقاذ الأرواح، ولكنه يشكل ضرورة ماسة للوصول إلى هذا الهدف، فبدون التعليم لا يمكن أن ننجز شيئا» ولذلك فقد كان أتباع القديس دومينيك يذهبون إلى باريس وأوكسفورد وبولونيا، وغيرها من المراكز الجامعية، لمتابعة دراساتهم حتى يكونوا مستعدين أكثر لعملهم. وفي الواقع لقد كان الدومينيكان أول رهبانية تدخل في قواعدها إلزامية التعليم لأعضائها، وهكذا فقد أسست مدرسة ومكتبة في كل دير من أديرتهم التي برزت بسرعة في كل أرجاء أوربا. وقد قدم هومبرت دي رومانيس نفسه في كتابه «مهمات الرهبنة» الذي ألفه خلال سنوات 1263- 1277 م، تعليمات مفصلة لعمل المكتبات وأمناء المكتبات. وحسب هذه التعليمات فإن أمين المكتبة عليه أن يهتم لكي يختار لمكتبته غرفة «محمية من المطر والمناخ السيء ومتجددة الهواء لرعاية الكتاب». وينصح المؤلف أن توزع الكتب في الخزائن حسب الموضوعات ويفضل أن يكون لأمين المكتبة غرفة خاصة جانب المكتبة لكي يكون دائما في خدمة القراء. وبالإضافة إلى هذا فقد كان على أمين المكتبة أن يعد فهرسا لكل الكتب الموجودة في المكتبة، وأن يهتم بتزويد المكتبة بالكتب الضرورية التي

يحتاج إليها الرهبان، وأن تجلد الكتب التي تحتاج إلى تجليد. وقد سمحت التعليمات بإعارة الكتب للرهبان وللقراء من خارج الدير، ولكن كان على هؤلاء أن يعيدوها مرتين في السنة لأجل التفتيش. وقد نصت هذه التعليمات أيضا على الكتب التي يمكن اعتبارها في قائمة المراجع اليومية. وهكذا فقد أدخل هومبرت في هذه القائمة سبعين كتابا من هذا النوع كالإنجيل وتواريخ الكنيسة وأساطير القديسين الخ، وترك الباب مفتوحا لإضافة «كتب مشابهة». وحسب التقليد الشائع في ذلك الوقت فقد كانت هذه المراجع اليومية تربط بسلسلة لكي لا يتمكن القراء والزوار من إخراجها.

كان الدومينيكان لا يحتفظون بالكتاب لأجل الزينة أو التسلية، ولذلك لم يجمعوا الكتب المجلدة بشكل ثمين والمزينة بشكل فخم التي تصلح أن تكون للمتاحف أو لهواة جمع الكتب. ولذلك فقد أدان هومبرت دي رومانيس بشدة عادة المبالغة في تزيين الكتب التي كانت شائعة حينئذ: «لأن الشباب سيهتمون بالحروف الفخمة.. . وكثرة الرسوم الموجودة وغير ذلك»، ولذلك فقد كان يعتبر تزيين المخطوط عملا «طفوليا».

لقد انعكس هذا الموقف من الكتاب، كقيمة مستعملة، على الرهبانيات المتسولة الأخرى التي برزت في أوربا الغربية والتي أدخلت، تحت تأثير الدومينيكان، في قواعدها إلزامية القراءة والتعليم. وعلى الرغم من هذا فقد مر وقت طويل دون أن تظهر في أوربا رهبانية أخرى تعطي الكتاب مكانة مهمة كما لدى الدومينيكان.

وهكذا نجد مثلا أن مؤسس الرهبانية الأخرى من هذا النوع، القديس فرانسيس، لم يكن يعبر عن أي اهتمام بالكتب حتى أنه لم يكن يدرك أهمية تشجيع التعليم والمعرفة. فقد سيطرت عليه فكرة الفقر ورفض العنف إلى حد أنه لم يهتم بالقراءة أبدا، بل إنه كان يعتبر امتلاك أي كتاب موازيا في خطورته لامتلاك أي شيء آخر. ففي قواعد هذه الرهبانية التي وضعها القديس فرنسيس نفسه سنة ١٢٢١ م نجد أن الكتاب يحتل مكانة متواضعة: «يمكن لرجال الدين أن يحتفظوا فقط بتلك الكتب الضرورية لممارسة خدماتهم، بينما يمكن للأفراد العاديين الذين يعرفون القراءة أن يحتفظوا بسفر المزامير». إلا أن السلطات الكنائسية، التي كان من اختصاصها أن توافق على قواعد الرهبانية الجديدة، لم تكن راضية عن هذه القواعد

لأنها كانت تنتظر من هذه الرهبانية أن تشارك أيضا في الكفاح ضد الأفكار الهرطقية في ذلك الوقت. ولذلك فقد أرغمت هذه السلطات القديس فرانسيس على أن يطرح قواعد جديدة يخصص فيها مكانة أفضل للتعليم والمعرفة. وعلى الرغم من أن القديس فرانسيس اضطر إلى تنفيذ رغبة رؤسائه إلا أنه لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يسرب هذه الجملة إلى قواعد الرهبانية الجديدة: «من لا يعرف القراءة لا يجهد نفسه في تعلمها». إلا أن بعض أتباع القديس فرانسيس لم يكونوا على وفاق معه حتى خلال وجوده على قيد الحياة بسبب موقفه من الكتاب. وقد قام هؤلاء الأتباع، على الرغم من المثل العليا للفقر والتواضع التي أقام عليها القديس فرانسيس أسس هذه الرهبانية، بعد وفاته بتشييد أضخم وأفخم كنائس العصر الوسيط في أوربا فوق قبره في أسيزي (assisi). وقد حدث هذا أيضا فيما يتعلق بالموقف من الكتاب والتعليم إذ أن أتباع القديس فرانسيس سرعان ما تخلوا عن أهم المثل العليا لمؤسس الرهبانية. ومع أن الفرنسيسكان لم يهتموا بالكتاب كثرا حتى فيما بعد إلا أن أديرتهم كانت تحتوي على مكتبات غنية ومنظمة بشكل جيد. ففي اسيسي بالذات، وفي مقابل الكنيسة البازيليكية، تطورت المكتبة المركزية لهذه الرهبانية. وقد بقي لنا من هذه المكتبة الفهرس، وبالتحديد سجل الكتب، الذي وضع سنة 1381، الذي يمكن بالاستناد إليه أن نتصور ثانية محتويات المكتبة ومظهرها أيضا. وهكذا نعرف الآن أن هذه المكتبة كانت من أغنى المكتبات وأكثرها ترتيبا في أوروبا خلال ذلك الوقت. ففي ذلك الوقت كان في المكتبة 718 كتابا وهو رقم كبير بالمقارنة مع محتويات المكتبات الأخرى في أوربا آنذاك.

ويعتقد أن هذه المكتبة قد تأسست في الوقت الذي بدأ فيه نشاط الفرنسيسكان. وقد كان لأديرة الفرنسيسكان الأخرى مكتباتها الغنية أيضا. وقد حفظت الكثير من فهارس المكتبات الفرنسيسكانية من القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد، كما حفظت المعطيات الوثائقية التي تبين مدى غنى المكتبات: المكتبة الفرنسيسكانية في سيينا (Siena) كانت تحوي حسب فهرس سنة 1481 على 1351 كتابا، أما المكتبة الفرنسيسكانية في بادوفا فقد كانت تحوي سنة 1397 على 426 كتابا وارتفع هذا العدد سنة 1449 إلى 1025 كتابا. وفي منتصف القرن الخامس عشر كان دير س.

كروسيه (S.Croce) في فيرنسا يحتوي على 785 كتابا الخ. ومن ناحية أخرى فقد كان بين الفرنسيسكان علماء لا يقلون من حيث المستوى عن علماء ذلك العصر، وقد كان بينهم أيضا عدد غير قليل من أولئك الذين كانوا يجمعون الكتب بأنفسهم لحاجتهم الشخصية.

وهكذا نعرف من هؤلاء الراهب ميته ديلا بورتا (M.Della Porta) الذي كان يملك سنة 1377 م (114) مجلدا، بينما كان الراهب فريدريكو دي برنستن F.de Pemstein يملك 80 مخطوطا في مجال التاريخ والقانون واللاهوت. وقد آلت معظم هذه المكتبات الخاصة بعد وفاة أصحابها إلى مكتبات الأديرة.

وقد كانت للأديرة الفرنسيسكانية على الشاطئ الشرقي للبر الأدرياتيكي مجموعات قيمة من الكتب أيضا كما في شيبينيك (Sibenik) وزادار (Zadar) حيث كانت توجد هناك ورشة للنسخ. وحيث حفظت إلى اليوم نماذج ممتازة من كتب التراتيل والصلوات يعود تاريخ صنعها إلى الفترة الفاصلة بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد.

وقد سلكت الرهبانيات الأخرى على الغالب، كالكارثوسيان والأوغسطينيين وغيرهم مسلك الفرنسيسكان. ولكن على الرغم من جهود الرهبانيات الجديدة لإحياء ثقافة الكتاب إلا أن الأديرة الجديدة لم تعد تستطيع أن تمارس ذلك الدور الذي مارسته الأديرة البنيديكتية والإيرلندية في بداية ومنتصف العصر الوسيط. وبعبارة أخرى فقد كان قد غرب ذلك العهد الذي كانت تمارس فيه الأديرة الدور الرئيسي في إنتاج وتوزيع الكتاب.

6- دور الأديرة في ثقافة الكتاب

تعرضت ثقافة الأديرة في أوربا إلى أزمة أخذت تبدو بوضوح منذ القرن الثالث عشر الميلادي وانتهت إلى تقلص نشاط النسخ في الأديرة وإلى تقلص الكتابة بين الرهبان بشكل عام. ففي الأديرة قل باستمرار نسخ المؤلفات لأنه لم يعد هناك من يقوم بالنسخ، وهكذا أصبحت حتى الأديرة التي كانت في السابق مراكز ثقافية حية، كدير سانكت غالين ودير كوربيه إلخ، تضطر إلى الاستعانة بنساخ محترفين من خارج الأديرة للعمل في ورش النسخ.

ولدينا معطيات كثيرة عن الحالة البائسة لمكتبات الأديرة، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد، من خلال ما خلفه لنا المتنورون الذين كانوا قد زاروا هذه المكتبات خلال بحثهم عن المخطوطات القديمة، ومن هؤلاء يصف لنا مثلا جوفاني بوكاتشو الحالة التي وصلت إليها مكتبة دير جبل كاسينو. وكان بوكاتشو قد زار هذا الدير في القرن الرابع عشر الميلادي ووصف لنا بغضب وانزعاج كيف أن الكتب كانت تغطيها طبقة كثيفة من الغبار، وكيف أن الأعشاب قد نبتت على نوافذ المكتبة، وكيف أن المكتبة كانت مفتوحة لكل شخص. وقد وصف بشكل مشابه مكتبة دير سانكت غالين في القرن الخامس عشر بوجيو براتشيوليني المعروف بـ «صياد» المخطوطات القديمة. وقد كان هذان الإيطاليان المعروفان، كغيرهم من الكثيرين في عصر التنوير والنهضة يعرفان كيف يستغلان ببراعة جهل وبساطة الرهبان، الذين كانوا غالبا لا يعرفون قيمة المخطوطات التي كتبها أو جمعها أسلافهم. وهكذا تمكن مثلا بوكاتشيو أن يأخذ من مكتبة دير جبل كاسينو مخطوطات نادرة جدا لتاسيت وفارون، بينما عاد برتشيوليني إلى إيطاليا بمخطوطات نادرة للغاية من مكتبات أديرة سانكت غالين وفولدا وغيرها.

وقد عبر أيضا عن انزعاجه من الرهبان شبه الأميين ريتشارد دي بوري، أحد أشهر هواة جمع الكتب، الذي كان قد تجول كثيرا في أوربا، والذي كان يعرف الكثير عن أوضاع الأديرة نظرا لعمله كأسقف ولوضعه كشخصية مؤثرة في بلاط الملك إدوارد الثالث. وهكذا فقد كتب لنا مثلا كيف أن الرهبان ورجال الدين يفضلون شرب الخمرة على الاقتراب من الكتب. وقد استفاد دي بوري أيضا من لامبالاة الرهبان وجهلهم ليغني مكتبته الخاصة بعدد كبير من المخطوطات.

وفي حالات أخرى لم تكن نادرة كان هؤلاء الرهبان شبه الأميين واللامبالين يعمدون إلى إهداء الكتب أو إلى بيع أثمن الكتب من مكتباتهم دون أي تردد. وهكذا نجد أن الأباتي رومو (Rumo) يسرب أندر الكتب من مكتبة دير سانت غالين، بينما يقوم الأباتي فريدريخ سنة 1257 برهن عدة كتب من بينها «الكتاب الذهبي» من مكتبة دير بامبرغ Bamberg عند أحد اليهود. وفي الواقع لقد سجلت حالات كثيرة من هذا النوع في القرنين

الثالث عشر والرابع عشر للميلاد.

إلا أن هذا الوضع كان له جانبه الإيجابي لأن «الصيادين» المثقفين للمخطوطات من أمثال براتشيوليني، الذين لم يجمعوا المخطوطات النادرة من مكتبات الأديرة بوسائل شريفة، قد نقلوا إلى المراكز الثقافية الجديدة مؤلفات شيشرون وكوينتيليان وتاس وغيرهم حيث ساعدوا بهذا الشكل على إحياء هؤلاء الكتاب.

أ- النهضة الكارولية

كانت أول وأكبر دولة منظمة في الأراضي السابقة للإمبراطورية الرومانية تلك التي أسسها الملك الفرانكي كارل الكبير-شارلمان (768-814). ولتصريف الأمور في إمبراطورية كبيرة فقد كان كارل الكبير يحتاج إلى عدد كبير من الموظفين ورجال الدين البارعين، وقد دفعته هذه الحاجة إلى إحياء التعليم وتشجيع القراءة والكتابة بشكل عام. وقد رأى حينئذ بحكمته الكبيرة أن أفضل من يساعده في هذا الاتجاه هم الرهبان المتعلمون الإيرلنديون والإنغلوساكسونيون. ولذلك فقد دعا إلى قصره في آخن الأباتي الكوين من دير يورك (York) المشهور في إنكلترا، الذي كان في ذلك الحين أهم المراكز الثقافية في أوربا. وفي الواقع لقد كان هذا الراهب هو المبادر الرئيسي لذلك الإحياء الثقافي الذي يسمى بحق «النهضة الكارولية». وهكذا وبفضل سماحة السياسة الثقافية لكارل الكبير، فقد وجد في آخن إلى جانب الكوين الكثير من الشعراء والكتاب من كل أوربا.

كان لدى كارل الكبير الكثير من المال والطموح لكي يحاول في قصره تقليد الأكاديمية الهلنستية ومكتبة الإسكندرية. وهكذا فقد جمع النساخ الممتازين والرسامين الذين سيطورون أسلوبا خاصا في رسم المنمنمات، وأسس مكتبة مهمة في القصر. وقد مدح ضخامة وأهمية هذه المكتبة كاتب سيرته اينهارت (Einhart) في كتابه «حياة كارل الكبير». ومع أن هذه المكتبة لا يمكن أن تقارن بأي حال بمكتبة الإسكندرية، إلا أنه كان فيها مخطوطات نادرة لكتاب العصر القديم (لشيشرون، يوفنال وسالوست وغيرهم) وكان لها بالنسبة لذلك الوقت أهمية كبيرة في إنقاذ التراث القديم. وقد كانت هناك مجموعات من النساخ والخبراء تعمل بأمر الإمبراطور في نسخ مؤلفات الكتاب القدماء بشكل جيد. وهكذا فقد أصبح

يقصد مكتبة آخن كل من يريد أن يحصل على نسخة محققة لأحد كتاب العصر القديم، إذ كان يعمد هناك إلى نسخ المخطوطة الأصلية الموجودة في مكتبة البلاط.

وهكذا نجد أنه في أديرة سانكت غالين ورايهناو وكوربيه ولورتش إلخ، التي كان يتضح فيها تأثير النهضة الكارولية، كان العمل يجري بهمة ونشاط لنسخ مؤلفات الكتاب القدماء بالإضافة إلى الإنجيل والكتب الدينية. وإلى جانب هذا فقد ازداد الحرص في الأديرة على المخطوطات الموجودة التي يعود تاريخها إلى نهاية العصر القديم أو بداية العصر الوسيط. وهكذا فإن مكتبة دير لورتش على سبيل المثال كانت تضم بين محتوياتها القيمة مخطوطا لأعمال فرجيل من القرن الخامس الميلادي، الذي تحتفظ به اليوم مكتبة الفاتيكان.

ونتيجة للاهتمام المتزايد بالكتاب القدماء وبالكتاب بشكل عام فإن الحكام والبابوات والأساقفة والإقطاعيون كانوا يتسابقون فيما بينهم للاستئثار بالمخطوطات النادرة والقيمة لمكتباتهم. ولكن كان هؤلاء يتبادلون الكتب على سبيل الهدية للتعبير عن التقدير العميق، وكانت هذه الهدايا غالية جدا كما يبدو في سجلات المؤرخين قي ذلك الحين. فقد أصبح إهداء كتاب ثمين، المزين على الغالب بأغلفة الفضة والذهب المرصعة بالأحجار الكريمة، يدل على الثروة والمكانة الاجتماعية الذي يهديه وعلى النفوذ الذي يتمتع به في المجتمع ذلك الذي يهدى إليه.

ولا شك أن أمثال هذه الكتب الغالية، سواء في ذلك الوقت أو في الأوقات اللاحقة، كانت للزينة أكثر من كونها أداة للعمل ومصدرا للمعلومات. إلا أن هذا يمكن أن يقال عن الكتب الغالية فقط، التي لم تنتج في الأصل لكي تقرأ باستثناء بعض الحالات النادرة.

ففي ذلك الوقت ألف ونسخ عدد كبير من الكتب التي تتمتع بأهمية كبيرة. وقد كتب علماء ذلك العصر مؤلفات كثيرة في اللاهوت وتفسير الإنجيل وتاريخ القديسين الخ. ولكن فيما يتعلق برعاية التراث القديم فإن عصر النهضة الكارولية يعتبر من أهم الحلقات التي تربط إنتاج الكتاب العلمي الأدبي في العصر القديم بعصر التنوير. ففي المكتبات التي برزت أو اغتنت بالمخطوطات القديمة في عصر النهضة الكارولية وجد المتنورون

الإيطاليون وغيرهم الأعمال المجهولة لتاسيت وليفي وغيرهم من الكتاب اليونانيين والرومانيين في العصر القديم.

ومن الإنجازات المهمة للإحياء الثقافي في الإمبراطورية الكارولية خلال عهد كارل الكبير كانت الأحرف الصغيرة الكارولية التي كان يعتقد أنها نشأت بأمر مباشر من كارل الكبير ومستشاره الكوين. ولا شك أن لهاتين الشخصيتين الفضل الكبير في نشر هذا النوع من الخط في كل أرجاء الإمبراطورية، إلا أن بدايته تعود إلى القرن الثامن الميلادي. وقد ظهر هذا النوع من الخط أولا في أديرة لوكسيل وكوربيه، بينما انتشر في عهد كارل الكبير أكثر من نوع آخر في أوربا الغربية، وحافظ على انتشاره هذا إلى القرن الثاني عشر الميلادي.

وكان هذا عبارة عن خط جميل وبسيط إلا أنه فقد ميزته كخط متواصل (cursive) حتى قبل بداية النهضة الكارولية. وفي الواقع لقد فقد هذا الخط ميزته كخط متواصل نتيجة للتغيرات التي لحقت في غضون ذلك بالوظيفة الاجتماعية للكتابة. فقد ولدت الحروف المستديرة والمشكلة بجمال والمنفصلة عن بعضها البعض، والتي اشتهرت باسم الأحرف الكارولية، في الوقت الذي انتقلت فيه الكتابة بشكل نهائي إلى أيدي رجال الدين، أي حين فقدت الكتابة أهميتها كأداة عملية لتسجيل الأفكار كما كانت عليه في العصر القديم وبداية العصر الوسيط. وبعد مضي وقت طويل، في القرن الثالث عشر الميلادي، عادت إلى أوربا ثانية الحروف المتصلة (cursive) أي الكتابة السريعة والعملية كتعبير عن الثقافة العلمانية للكتابة.

إلا أن خلفاء كارل الكبير كانوا عاجزين عن رعاية إمبراطوريته وعن رعاية مكتبة قصره الغنية أيضا. فقد وصلت بعض الكتب من هذه المكتبة إلى بعض الأديرة المعروفة، حيث حفظت هناك إلى يومنا هذا. وقد تعرضت الحياة الثقافية في البلاط إلى أزمة بعد وفاة كارل الكبير، وهي الأزمة التي ستشمل كل المناطق التي تتألف منها الإمبراطورية. إلا أن القاعدة التي أسسها الكوين وغيره من العلماء قد أفادت كنقطة انطلاق في عملية الإحياء الثقافي، التي وصلت إلى ذروتها فيما بعد في النهضة الإيطالية. وهكذا فقد هيأت النهضة الكارولية المجال لكي يستعيد الكتاب مكانته السابقة كما في العصر القديم، ولكي يستعيد الكتاب دوره كقيمة مستعملة وضرورية

للعمل الثقافي. إلا أن هذه العملية ستطول كثيرا ولا بد أن ننتظر القرن الثاني عشر والثالث عشر بشكل خاص، أي مع ازدياد الطابع العلماني لثقافة الكتابة في المدن، لكي يستعيد الكتاب أخيرا دوره الاجتماعي كما في العصر القديم.

ب- إنتاج الكتاب في الجامعات

خلال القرنين الثاني والثالث عشر للميلاد حدثت تغيرات كبيرة في الحياة الاقتصادية والثقافية في أوربا. وفيما يتعلق بموضوعنا فقد كان من الأهمية بمكان انتقال مركز القوة الاقتصادية، والثقافية في نهاية الأمر، من الأديرة إلى المدن. ففي ذلك الوقت افتتحت بسرعة المدارس العلمانية في المدن حيث أخذ الأولاد والبنات يتعلمون القواعد والبلاغة والمواد الأخرى. وقد كان من الأهمية بمكان أيضا افتتاح الجامعات في أوربا حيث أخذ الطلاب يدرسون ليصبحوا مصرفيين وحقوقيين وأطباء وغير ذلك من المهن التي تحتاج إليها ثقافة المدينة.

وكانت ثقافة الأديرة تعايش أزمتها ثم فقدت الأديرة بشكل نهائي منذ بداية القرن الثاني عشر الميلادي احتكارها لإنتاج الكتاب. فقد أصبحت ورش النسخ في الأديرة عاجزة بوسائلها القديمة على تلبية حاجات المدارس والجامعات التي افتتحت حديثا في المدن. فالعدد الكبير من الطلاب والأساتذة في المراكز الجامعية، كما في بولونيا وباريس وبراغ وأوكسفورد، أصبح يحتاج إلى أسلوب أسرع واقتصادي أكثر لنسخ الكتب مما لم يكن يتوفر في الأديرة، حيث كان النساخ يعملون بهدوء وببطء دون أن يهتموا بما يحدث خارج جدران الأديرة.

وهكذا فقد أسست في الجامعات لتلبية حاجات الزبائن الجدد خدمات منظمة لنسخ الكتاب وتوزيعه. وهنا نجد النساخ وعمال الرقوق والرسامون والمجلدون وباعة الكتب يعملون بارتباط وثيق مع الجامعة، التي تشرف باهتمام كبير على أن يكون نسخ الكتاب وتوزيعه منسجما مع المعايير التي تحددها. وهكذا أصبح النسخ الدقيق يتم وفق القوانين الجامعية.

فبالاستناد إلى هذه القوانين كانت تنتخب كل سنة لجان من الأساتذة. أما مهمة هذه اللجان فقد كانت أن تقرأ باهتمام نص المخطوط قبل أن يسلم للنسخ، وأن تراجع على الأقل مرة واحدة في السنة دقة الأصول التي

تسحب منها النسخ. وكان من صلاحية هذه اللجان أيضا تحديد سعر الكتاب. وكانت هذه اللجان تصدر كل سنة قائمة الكتب الجامعية التي تحظى بموافقة الهيئات المختصة في الجامعة، والتي يجب أن تعلق في مكتبة الجامعة. وبهذا الشكل فقد كانت الجامعة تضمن استلام الطلاب لنصوص منسوخة بشكل سليم.

ومن ناحية أخرى فقد كانت الجامعة لا تصر على أن تنسخ النصوص الجامعية على ورق ممتاز وأن تصاحب النصوص رسوم متقنة. وهكذا فقد كان يحدث أن تصدر هذه النصوص الجامعية في ورق من الدرجة الثانية ومجلدة بشكل بسيط، ومزينة بشكل متواضع، الشيء الذي كان يعكس نظرة جديدة لدور الكتاب في المجتمع. فبفضل ورش النسخ في الجامعات أصبح الكتاب ثانية أداة للتعليم وأداة لنقل المعلومات العلمية وغيرها، أي أنه أخذ يفقد مرة أخرى الطابع التزييني والتقديسي.

وكانت ورش النسخ الجامعية قد تمكنت من تسريع عملية النسخ بفضل توزيع العمل. وهكذا لم يعد الناشر ينسخ بمفرده الكتاب كله بل جزءا من الكتاب فقط، وأصبح في الإمكان أن يقوم عدة نساخ بنسخ هذا الجزء دون أن يكون للواحد علاقة بالآخر. وكان الطلاب يأخذون هذه الأجزاء تباعا وفي الوقت الذي يحتاجون فيه إلى التعلم منها بمساعدة الأساتذة وإلى دراستها.

لقد تولى مهمة تنظيم إصدار الكتب الجامعية الناشرون الثابتون الذين كانت الجامعات توفر لهم الامتيازات وتضمن لهم الربح. وكان الناشر من ناحيته يحرص على أن يوفر النص الدقيق إلى أكثر حد ممكن، وأن ينسخ هذا النص لحاجات الجامعة، وأن يرسل النص إلى اللجنة ليحصل على موافقتها وأن ينسخ منه-بالاتفاق مع اللجنة الجامعية المذكورة دائما-عددا محددا من النسخ. وهذه النسخ كانت تباع للطلاب بأسعار محددة أو كانت تعار لهم بأجرة محددة لكي يقوموا هم بنسخها لحاجاتهم الشخصية. وبالإضافة إلى هذا كان الناشر ملزما بإعارة النص الأصلي للناشرين الآخرين أو حتى للأفراد من خارج الجامعة.

إلا أن الكتب التي كان يصدرها هؤلاء الناشرون لم تكن فقط لخدمة الجامعة التي تشرف عليها، بل كان الناشرون يبيعونها للأديرة والأفراد

وحتى بقية الجامعات. وهكذا تفيدنا المعطيات أن الكتب التي كان يصدرها الناشرون في بولونيا وباريس، التي كانت حينئذ أهم مراكز نشر الكتب في أوربا، كانت تجد طريقها إلى المدن البعيدة وهو الشيء الذي يمكن التأكد منه بسهولة بالاستناد إلى المخطوطات المحفوظة. وبعبارة أخرى لقد أدى ازدهار نشر الكتب في الجامعات إلى تغيير سوق الكتاب الأوربي من الأساس. فمع ظهور ورش النسخ الخاصة-العلمانية التي أخذت تنسخ الكتب بسرعة، كما كانت تفعل ورش النسخ في الجامعات في كل أرجاء أوربا، خرج الكتاب بشكل نهائي من تلك الأماكن المغلقة للأديرة وتوجه نحو المراكز الجديدة للقوة الاقتصادية والسياسية أي إلى المدن.

جـ- ورش النسخ الخاصة خارج الجامعات

مع انتقال الحياة الثقافية من الأديرة والكنائس إلى المدن الغنية زاد باطراد عدد الذين يطلبون الكتب، ولذلك لم يمض وقت طويل حتى برزت ورش النسخ الخاصة في هذه المدن إلى جانب ورش النسخ المذكورة في الجامعات.

وقد كان العمل في ورش النسخ في المدينة، أي الخاصة والجامعية، يختلف كثيرا عن العمل في ورش النسخ في الأديرة، فورش النسخ هذه كانت جزءا لا يتجزأ من الأديرة، بينما كانت عملية النسخ جزءا من المهمات اليومية للرهبان، وكان الدير يوفر كل ما يحتاجه الرهبان للحياة والعمل.

أما ورشة النسخ الخاصة في المدينة فقد كانت مشروعا مستقلا يفترض أن تربح كأية ورشة حرفية. فقد كان على النساخ والرسامين والمجلدين وغيرهم أن يكسبوا بعملهم قوت يومهم في ورشة من هذا النوع، وكان عليهم أيضا أن يؤمنوا الرق والورق والحبر والألوان والجلد والمواد الأخرى اللازمة للتجليد من الحرفيين الآخرين. وبالمقارنة مع الأديرة، حيث كان معظم الرهبان يعتبرون النسخ من أعمال التقوى فقد كان معظمهم، إن لم يكن كلهم، يمارسونه بحب وحرص، على حين أن النساخ في ورش النسخ الخاصة كانوا يمارسون هذا العمل باعتباره مصدر قوت لهم. ولهذا السبب فقد كان هؤلاء ينسخون الكتب بحرص أقل، وكان هذا أحد الأسباب لتردي مستوى الخط في ذلك الوقت. أما السبب الآخر، الذي يرتبط أيضا بورش النسخ الخاصة، فقد كان يكمن في موقف الناسخ من النص الذي ينسخه،

حيث كان هذا الناسخ لا يعتبر النص الذي ينسخه مقدسا، أي أنه لم ير أهمية أن يكون كل حرف تماما في مكانه كما في الأصل، ولذلك لم يكن يهتم هذا الناسخ كزملائه في الدير بدقة النسخ.

وعلى قدر ازدياد الطلب على الكتاب كان يزداد عدد ورش النسخ وتزداد أهميتها حتى أنه في النصف الأول للقرن الخامس عشر الميلادي، أي في الوقت الذي سبق بداية إصدار الكتب بواسطة الطباعة، تحولت ورش النسخ هذه إلى مشاريع صناعية حقيقية. وكان الإقطاعيون والعلماء يوصون لمكتباتهم بمؤلفات ذات موضوعات مختلفة ومجلدة بشكل فخم. أما في معظم ورش النسخ الخاصة فقد كانت الكتب تصدر بنوعية متواضعة لجمهور أوسع من القراء.

وفي القرن الخامس عشر الميلادي نجد أن بعض هذه الورش الخاصة للنسخ لم تعد تعمل حسب الطلب فقط بل أصبحت تصدر الكتب للسوق. وهكذا فقد برز الناشرون الذين لم تعرفهم أوربا منذ العصر القديم.

وقد كان أشهر ناشر من هذا النوع في ألمانيا في النصف الثاني للقرن الخامس عشر دييبولد لاوبر (Diebold Lauber)، الذي كان يملك ورشة للنسخ ومكتبة لبيع الكتب في مدينة هاغناو. وقد كان لديه في ورشة النسخ 4- 5 نساخ وعدة رسامين ومعلمين آخرين. أما الكتب التي كان يصدرها هذا الناشر فلم تكن غالبة إلا باستثناء تلك الكتب التي كان ينجزها بتوصية معينة. وعلى ما يبدو فقد كان هذا الناشر يعتمد على الورق، ولذلك كان في إمكانه أن يصدر كتبا رخيصة. وقد عرف هذا كتاجر ماهر أن يقدر أهمية الإعلان، ولذلك فقد كان يقوم بإصدار قوائم الكتب المعدة للبيع في مكتبته ويضع في نهاية القائمة هذه الملاحظة: «كل من يرغب بشراء أي كتاب، كبير أم صغير ديني أم غير ديني، ومزين بالرسوم بشكل جيد، يمكنه أن يجد ما يرغبه لدى الكتبي دييبولد لاوبر في هاغناو». ومع أن هذا الناشر كان يصدر ويبيع الكثير من الكتب، إلا أن الوقت الذي عاش فيه لم يكن ملائما للعمل الذي يمارسه. فمنذ منتصف القرن الخامس عشر الميلادي جوبهت ورشته وكل ورش النسخ الأخرى بمنافسة قوية من الكتاب المطبوع.

وعلى الرغم من هذا فقد استمرت ورشة لاوبر، وبعض ورش النسخ الأخرى في عملها حتى بعد قيام غوتنبرغ بطباعة كتبه الأولى وانتشار

الطباعة في أوربا. إلا أن هذا لم يستمر طويلا إذ أن لاوبر اضطر أخيرا إلى إغلاق ورشة النسخ سنة 1467. وعلى نمط هذه الورشة التي كان يملكها لاوبر كانت هناك ورش أخرى في بقية بلدان أوربا كما في فرنسا وإنكلترا إلخ، إلا أن أهم هذه الورش كانت تلك التي وجدت خلال القرن الخامس عشر الميلادي في إيطاليا، وخاصة في فرنسا.



ورشة كتابة في القرون الوسطى: لوحة في مخطوط يعود الى 1480-1490م (المكتبة الوطنية النمساوية-فيينا)

د- قسبازيانودا بيستيتشي «أمير الكتب»

كان نشاط النشر والتجارة بالكتاب قد تطور في إيطاليا أكثر من أي بلد آخر في أوربا. فقد ازداد الطلب على نسخ المؤلفات لمكتبات الملوك والأمراء والمصرفيين والتجار والمدارس المختلفة والجامعات ورجال الكنيسة والعلماء

وهواة جمع الكتب. وهكذا حل ثانية الوقت الذي كان فيه الأغنياء يساهمون بمكتباتهم الغنية في زيادة مكانتهم الاجتماعية.

وأصبحت فيرنسا الغنية هي المركز لإنتاج الكتاب والتجارة فيه على المستوى الأوربي. ونظرا لكثرة المكتبات التي تبيع الكتب فقد دعي أحد شوارعها «شارع المكتبات». وفي هذا الشارع كان يمكن للمرء أن يشتري الكتب وأن يلتقي الشعراء والكتاب والعلماء بشكل عام، بالإضافة إلى عدد كبير من المهتمين الذين كانوا يرغبون في معرفة الجديد في سوق الكتب ومعرفة الجديد في المجال الأدبي والعلمي.

وفي ذلك الحين كان قسبازيانودا بيستيتشي (1421-1498م) يعتبر أشهر ناشر وكتبي في فيرنسا، حيث كان يجذب إلى مكتبة النخبة المثقفة في المدينة. وكان قسبازيانو ينحدر من أصل متواضع إلا أنه تمكن بنشاطه المتنوع كناشر وباكتشافه للمخطوطات القديمة وممارسته لتجارة الكتاب ولتنظيمه الفذ أن يفرض نفسه كأهم شخصية في عالم الكتب حتى استحق لقبه «أمير الكتب». وخلال سنوات 1440- 1480 م كان يأتي إلى ورشته للنسخ أشهر الكتاب والفنانين في المدينة، إلا أنه اضطر سنة 1480 م أن يغلق ورشته-تحت تأثير منافسة الكتاب المطبوع-وأن يعتزل في أملاكه بالقرب من فيرنسا حيث ألف كتابه المشهور «سير حياة الناس المعروفين في القرن الخامس عشر» الذي تحدث فيه عن أولئك الكتاب الذين كانوا يترددون كثيرا إلى ورشته للنسخ.

كان قسبازيانوي ينسخ الكتب لأشهر الأمراء وهواة الكتب في أوربا في ذلك الوقت. وهكذا فقد كان يزود عائلة ميديتشي بالكتب، والبابا نيقولا الخامس لمكتبة الفاتيكان التي أسست حينئذ، والملك الهنغاري-الكرواتي ماتياش كورفين لأجل مكتبته الشهيرة في بودا، وفيدريكو دا مونتفلترو من أوربين أحد أشهر هواة جمع الكتب حينئذ.

ولأجل إرضاء زبائنه الكبار فقد طور قسبازيانو حرفة نسخ الكتب إلى ما يشبه صناعة كاملة لا مثيل لها في أوربا في ذلك الوقت، بل ومن الصعب أن نجد لها مثيلا في أوربا قبل ذلك الوقت أيضا. وفيما يتعلق بمستوى الإنتاج في ورشته لدينا معلومة كافية يستشهد بها كثيرا. خلال 22 شهرا قام النساخ الـ 45 الذين يعملون في الورشة بنسخ 200 مخطوط لصالح

كوزيمو ميديتشي. وكان قسبازيانو يحاول بمساعدة العلماء الذين كانوا يحيطون به، أن يتوصل إلى أدق المخطوطات لكي ينسخ منها لاحقا أفضل النسخ. وفي الواقع لقد كان قسبازيانو الرجل النموذجي الذي يمثل النهضة سواء من دقته في إنجاز العمل أو من حيث اتساع مفاهيمه.

وهكذا فقد فتح هذا الناشر والكتبي من جوانب متعددة الطريق لإصدار طبعات محققة، وهو الأمر الذي سيتم حين يبدأ طبع الكتب وحين تصبح دقة وصحة النص معيارا يفرض نفسه أكثر من أي وقت مضى.

وكان ظهور الطباعة قد أدى إلى أن تغلق ورش النسخ أبوابها بسرعة، سواء في المدن أو في الأديرة. وعلى الرغم من المقاومة التي أبداها بعض الأفراد، كفيدريكو دا مونتفلتروا المذكور وبعض هواة المخطوطات القديمة، إلا أنه كان من المستحيل وقف انتشار الكتاب المطبوع. وهكذا فقد غرب إلى الأبد عصر المخطوطات الغالية من الرق، المزينة برسوم رائعة، والمنسوخة في نسخة فريدة للمكتبات الخاصة للحكام والإقطاعيين أو لمكتبات الكنائس.

إلا أن اكتشاف الطباعة لم يقض فورا على عادة نسخ الكتب باليد. فقد نسخت مخطوطات كثيرة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي، وحتى القرن السادس عشر الميلادي. ولكن في بعض البلدان الأوربية، حيث لم تتغلغل الطباعة أو حيث لم تتطور كثيرا، استمر نسخ الكتب باليد حتى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر للميلاد. ولدينا حالة من هذا النوع في كرواتيا الساحلية حيث بقيت كتب الصلوات وبقية الكتب الدينية في اللغة الشعبية بالأبجدية الغلافوتيكية[*5] تنسخ باليد حتى بعد مرور زمن طويل على طباعة غوتنبرغ لكتابه الأول، وحتى بعد تأسيس المطابع الأولى في كرواتيا (نهاية القرن 15) التي أخذت تطبع الكتب لأجل حاجات القساوسة الذين يستعملون الأبجدية الغلافوتيكية.

هـ- عدد الكتب المنسوخة باليد في نهاية العصر الوسيط

خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد أنتج في أوربا عدد كبير من الكتب في ورش النسخ. ومن المستحيل اليوم تحديد عدد هذه الكتب لأن قسما كبيرا من هذه المخطوطات قد قضت عليه الحروب اللاحقة

(*5) الأبجدية القديمة للغة السلافية.

(المترجم).

والصراعات الاجتماعية ولامبالاة أصحابها، بالإضافة إلى أنه حتى الآن لم يتم إنجاز سجل للمخطوطات التي نسخت حينئذ والتي لا تزال إلى اليوم تحفظ في المكتبات الأوربية. وعلى الرغم من هذا يمكن القول بالاستناد إلى مختلف المعطيات، أنه تم نسخ عشرات الآلاف من المخطوطات. ويذهب هـ. لولفينغ H.Lulfing إلى أنه في القرن الخامس عشر فقط، حين وصل إنتاج الكتاب إلى أعلى مستوى، كان عدد المخطوطات التي أنجزت «أكبر بكثير مما أنجز خلال ألف سنة، أي حتى سنة 1400 م».

ولدينا مثال يصور لنا بشكل واضح الإنتاج الكبير لتلك المؤلفات التي كانت تحظى بشعبية خاصة. فمن هذه المؤلفات كان كتاب الطبيب والرحالة الإنكليزي جون دى ماندفيل Mandevillea «رحلة جون دى مانديقيل». وكان هذا الإنكليزي قد زار مصر وبلاد الرافدين والصين وملأ كتابه بالروايات الخيالية التي كانت تثير بالطبع خيال القارئ الأوربي. وكان المؤلف قد أنجز كتابه سنة 1356 وبعد ظهوره في السوق ترجم بسرعة من الأصل اللاتيني إلى عدة لغات أوربية. وهكذا فقد حفظت إلى اليوم 13 نسخة مخطوطة بالألمانية والهولندية و 37 بالفرنسية، و 40 بالإنجليزية، و 50 باللاتينية بالإضافة إلى الكثير من النسخ بالإيطالية والإسبانية والدانماركية والتشيكية والإيرلندية، وبالتحديد 250 نسخة من القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد. ولم يكن هذا الكتاب يشكل أي استثناء بالنسبة لذلك الوقت.

و- تجارة وتوزيع الكتاب

من الصعب الحديث عن تجارة منظمة في مجال الكتب في أوربا القروسطية قبل تأسيس الجامعات خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد. ففي القرون الأولى التي أعقبت سقوط الإمبراطورية الرومانية بقي في إيطاليا فقط نوع من التجارة المنظمة في مجال الكتاب وذلك نتيجة لوجود شبكة توزيع الكتب من العصر القديم.

وهكذا فقد كان يتم في إيطاليا تزويد مكتبات الأديرة وغيرها من المكتبات بالكتب التي تحتاجها، إلا أن هذا كان لا يقارن أبدا بشبكة الكتب العملية والفنية التي كانت توجد في السابق. فقد كان ينقص هنا في الدرجة الأولى إنتاج الكتب للسوق إذ أن كل واحد كان ينسخ فقط تلك المؤلفات التي يحتاجها. وكانت ورش النسخ الخاصة القليلة تنتج الكتب والنسخ التي

يحددها المشتري، أي ليس كما كان يفعل الناشرون الرومانيون في العصر القديم حين كانوا ينسخون الكتاب أولا ثم يرسلونه للبيع عبر شبكة بيع الكتب. أما الرهبان المتجولون والتجار الصغار الذين كانوا يعرضون الكتب للبيع، وهم الذين يرد ذكرهم أحيانا في المصادر القروسطية، فقد كانوا عبارة عن استثناء نادر وكانوا عاجزين بالتأكيد عن تغيير الحالة البائسة التي وصلت إليها تجارة الكتب في أوربا خلال العصر الوسيط. ولم يكن الأمر يتعلق فقط بقلة البيع والشراء وإنما بصعوبة انتقال الكتاب في بداية العصر الوسيط وذلك بسبب صعوبة المواصلات بين البلاد المختلفة وقلة الحاجة إلى نقل المعارف والأفكار-التي لم تعد كثيرة أصلا-بسرعة من دير إلى دير ومن مدينة إلى أخرى ومن بلد إلى بلد. وهكذا فقد ندرت تلك الكتب التي كانت تصل إلى أطراف البلد الذي ألفت فيه نتيجة لقوة الطلب عليها أو لراهنية موضوعها. وكاستثناء لهذه الحالة يمكن أن نذكر مؤلفات أسيدور الإشبيلي، وخاصة كتابه «الإيتمولوجيا» الذي انتشر خلال حياة المؤلف وبعد وفاته فورا في كل من إسبانيا وفرنسا وإيطاليا وبقية البلدان الأوربية حتى إيرلندا البعيدة ومن الاستثناءات اللاحقة يمكن أن نذكر مؤلفات أبيلار(Abelard القرن 12 م)التي فضح فيها معارضيه مما اضطرهم، كما دون بغضب القديس برنار، إلى البحث عنها «من مملكة إلى أخرى» إلا أن هذه الأمثلة كانت نادرة جدا سواء في بداية العصر الوسيط أو خلال العصر الوسيط.

فقد كان الناس في ذلك الحين، سواء في الأديرة أو في القصور الإقطاعية، يعيشون في عزلة وراء الأسوار العالية وكانوا يتصلون بصعوبة مع العالم الخارجي. وفي هذا العالم المنغلق كان الكتاب يولد ويموت، وكان أولئك الذين يعملون في إنتاج الكتاب لا يعرفون غالبا إلا الكتب الدينية، التي لم تكن تختلف محتوياتها عن الكتب الأخرى الموجودة في الدير المجاور أو البعيد. وحتى حين كان يتم إهداء الكتب الدينية، ككتب الصلوات والمزامير والتفاسير إلخ. فإن هذا لم يكن يحدث نتيجة للرغبة في البحث عن شيء جديد غير معروف بعد، بل بسبب جمالها أو تجليدها الثمين.

لقد استمرت هذه الحالة زمنا طويلا، وبالتحديد طيلة الزمن الذي كانت فيه الأديرة هي المراكز المهمة للثقافة، بل الوحيدة إلى حد ما. إلا أن

انتشار «الصفحات المسمومة» لأبيلار، على حد تعبير القديس برنار، فقد كانت مؤشرا لنهضة أوربية في القرن الحادي عشر حين أخذت أوربا تصحو من سبات العصر الوسيط.

ففي هذا الوقت بالذات بدأ تنظيم شبكة وإنتاج الكتاب وأخذ يستعيد بالتدريج مكانته كأداة لنقل المعلومات. وقد كان وراء هذا الانعطاف في الدرجة الأولى العدد الكبير للطلاب والأساتذة في المدن الأوربية بعد تأسيس الجامعات بالإضافة إلى الشريحة الغنية التي أدت طلباتها المتزايدة إلى إنعاش شبكة الكتاب وتنقله بشكل أسرع. وإلى جانب تجار الكتب في الجامعات، الذين كانوا يهتمون غالبا بحاجات الجامعات، فقد برز باعة الكتب الذين كانوا يعرضون الكتب أمام الكنائس أو في الأماكن التي يقصدها المثقفون. وقد كثر باعة الكتب هؤلاء بشكل خاص في إيطاليا، في فيرنسا فينيسيا وبولونيا حيث كانوا يزودون بالكتب سكان المدن بالإضافة إلى الكثير من السياح الذين كانوا يقصدون إيطاليا من كل أرجاء أوربا.

وكان هؤلاء التجار الصغار ينقلون بضاعتهم من مدينة إلى أخرى، وخاصة في فترة المعارض. أما الكتب التي كان يعرضها هؤلاء فقد كانت رخيصة على الغالب، وكانت في الأصل لأولئك الذين لا يملكون الكثير من المال ليشتروا الكتب الغالية التي يكتبها نساخ معروفون. وبالإضافة إلى الكتب، التي كانت على الغالب مدرسية ودينية في اللاتينية وغير دينية في اللغات الشعبية لأولئك الذين لا يعرفون اللاتينية، فقد كان باعة الكتب يبيعون أيضا الرسومات المقدسة بالألوان والتي كانت تتضمن بعض الأدعية القصيرة. وفي القرن الخامس عشر الميلادي أخذ هؤلاء-الباعة المتجولون- ببيع الكتب القديمة التي كان يشتريها منهم الطلاب وسكان المدن غير الأغنياء.

ولا يجب هنا أن نبخس أهمية هؤلاء التجار الصغار أو باعة الكتب، إذ أنهم وعلى طريقتهم الخاصة، لعبوا دورا كبيرا في انتشار الكلمة المكتوبة، وخاصة بين أولئك الذين كانوا عاجزين عن الدخول إلى مكتبات الأمراء وهواة الكتب. وفي نهاية الأمر فإن وجودهم في المدن الأوربية، وخاصة خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد، يكشف لنا عن التغيرات التي حدثت في أوربا خلال تطور المدن وتزايد انتشار الكتابة في الشرائح

الواسعة للمجتمع، أي إلى الوقت الذي مهد بشكل مباشر لاكتشاف الطباعة.

ز- الكتب في اللغات القومية

كان لظهور الأدب في اللغات الشعبية، وخاصة منذ القرن الثالث عشر الميلادي نتائج بعيدة المدى فيما يتعلق بتوصيل الكلمة المكتوبة إلى شرائح واسعة من القراء. ولم يعد الأمر حينئذ يقتصر على أعمال الأدب الشعبي بل أصبحت قمم الأدب الفني تكتب باللغات الشعبية، وبهذا أصبحت قريبة من البسطاء الذين لا يعرفون اللاتينية.

لقد بدأ هذا العصر حين دونت لأول مرة قصائد شعراء القصور في ألمانيا(مينسانع وغيره)، وحين وضع غ. تشوسر Chaucer في إنكلترا أسس الأدب الإنكليزي في اللغة الشعبية، وحين كتب دانتي في إيطاليا «الكوميديا الإلهية» التي أبرز فيها بشكل نهائي أفضلية اللغة الشعبية كلغة للكتاب.

وحول هذا نجد أن جوفاني بوكاتشو، الذي كتب أيضا قصصه باللغة الشعبية يخصص فصلا صغيرا من كتابه «سيرة حياة دانتي» لتوضيح الأسباب التي دعت دانتي إلى كتابة عمله الشعري في اللغة الشعبية، وليس في اللغة اللاتينية كما كان الأمر شائعا حتى ذلك الحين. وعلى ما يذكر بوكاتشو فإن دانتي فعل ذلك لكي لا يقرأ كتبه الأدباء فقط Letterati أي المتعلمون الذين يعرفون اللاتينية، بل البسطاء ldioti أيضا. وهم في تعبير ذلك العصر الذين لا يعرفون إلا اللغة الشعبية.

وبفضل هذه المفاهيم أصبحت روايات العصور الوسطى وقصائد الحب والبطولة والقصص المختلفة وغيرها، كتبا رائجة في المجتمع الجديد للمدينة، وبالتحديد المجتمع الذي لم يكن يعرف أبدا قراءة محتويات الكتب اللاتينية.

ح- ثمن الكتاب

كانت الكتب ثمينة جدا في العصر الوسيط، ولذلك فلم يتمكن من شرائها غير-الحكام والأغنياء والأديرة والكنائس. ويجب ألا يثير هذا استغرابنا لأن إنجاز نسخة من الكتاب المقدس، أو أي كتاب آخر بهذا الحجم، كان يحتاج إلى جلود المئات من الأغنام والماعز، وإلى عمل مجهد للنساخ والرسامين والمجلدين يمتد من عدة شهور إلى عدة سنوات.

ولدينا من ذلك العصر معطيات كثيرة حول شراء الكتب وأثمانها. ويتبين من هذه المعطيات أن أثمان الكتب كانت مختلفة وكانت ترتبط بجمال الخط

والرسوم، وقدم الكتاب، وبشكل خاص تجليد الكتاب الذي يمكن أن يرفع كثيرا ثمنه إذا كان مغلفا بالذهب أو الفضة ومرصعا بالأحجار الكريمة أو شبه الكريمة. وبالطبع فقد كان ثمن الكتاب يختلف أيضا حسب البلد الذي يباع فيه.

وهناك بعض المعطيات في العصر الوسيط التي تكشف عن مبالغ كبيرة دفعت في سبيل كتب نادرة أو قيمة. وهكذا لدينا معلومة من سنة 1047 تروى أن الخطاط دييموند من فيسوبرون بألمانيا قد أنجز نسخة للتوراة في مجلدين وحصل في مقابل ذلك لصالح ديره على قرية بكاملها. وفي سنة 1388 اشترى دير يوهانس برغ في ألمانيا نسخة من التوراة مقابل 70 غولدن ذهبي. ونعرف أيضا حالة القانوني الإيطالي الشهير أكورسيوس (1185- 1263) الذي عجز عن دفع ألف غولدن ذهبي مقابل الحصول على «كتاب القانون». ولدينا معلومة أخرى من سنة 1470 تكشف عن أن كتاب بلوتارك «السير المقارنة» بيع مقابل 800 غولدن ذهبي. أما الكتب المزينة بشكل خاص فقد كانت تباع بأثمان خيالية. وهكذا فقد اشترى الكاردينال دومينيكو غريماني بـ 500 دوقية ذهبية «كتاب الساعات» الذي زينه الرسامون الهولنديون بـ 110 لوحات رائعة. وقد اشتهر هذا الكتاب لاحقا باسم «كتاب فريماني» وهو محفوظ اليوم في مكتبة مارسيانا بفينيسيا ولكن ارتفاع ثمن هذه المخطوطات كان أمرا استثنائيا متعلقا بالقيمة الفنية العالية لهذه المخطوطات. أما الكتب الأخرى، التي لم تكن منسوخة ومزينة إلى هذا الحد من الجمال، والتي أنجزت لتلبي حاجات الطلاب في الجامعات أو ما شابه ذلك، فلم تكن غالية وبعيدة عن متناول الأيدي لمعظم الناس. وقد كان الباعة المتجولون في الساحات العامة وإمام الكنائس يبيعون هذه الكتب الرخيصة نسبيا في نهاية العصر الوسيط أما في القرن الخامس عشر وحتى قبل أن يكتشف غوتنبرغ اختراعه الثوري، الذي أدى إلى هبوط ثمن الكتاب إلى حد لم يتصوره أحد، فقد أدى الإنتاج الكبير لورش النسخ الخاصة وورش النسخ الجامعية إلى أن يصبح الكتاب أقرب للناس، وبالتحديد في متناول القدرة الشرائية للطلاب والحرفيين وبقية المواطنين.

ي- مادة الكتابة

خلال العصر الوسيط كانت تستخدم في أوربا ثلاثة أنواع من مادة

الكتابة: الرق وورق البردى والورق العادي.

وكان الرق بميزاته على ورق البردى قد فرض نفسه كأهم مادة للكتابة منذ نهاية العصر الوسيط وبقي يستعمل طيلة هذا العصر، وحتى فيما بعد، إلى أن برز الورق بسعره الرخيص وقضى على استخدامه.

وبالمقارنة مع ورق البردى الذي كان يستورد من مصر البعيدة في بداية العصر الوسيط فقد كان الرق يصنع في الأديرة وحتى في الكميات التي كانت تحتاجها ورش النسخ في تلك الأديرة. ومن هنا فلم يكن هناك داع لبيع وشراء الرق، كما كان الأمر مع ورق البردى، لأن كل دير كان ينتج من الرق ما يحتاج إليه. وفي الواقع، كان الاكتفاء الذاتي، حتى فيما يتعلق بمادة الكتابة، يفرض نفسه كأفضل حل نظرا لأن الكثير من طرق التجارة كانت مقطوعة أو أنها كانت تستخدم قليلا، ولأن الأديرة كانت تكفي نفسها بنفسها من كل المواد تقريبا. أما فيما يتعلق بورق البردى، فقد بقي يستعمل في أوربا خلال بداية العصر الوسيط ولكن في كميات أقل بكثير مما في السابق وفي عدد أقل من البلدان. فقد كان ورق البردى يستعمل بشكل استثنائي في فرنسا وإيطاليا لكتابة المؤلفات حتى القرن السابع الميلادي، بينما ظل مستخدما فيما بعد لكتابة الوثائق الرسمية وفي الإدارة بشكل عام. وهكذا نجد أن الحكام الفرانكيين في ميروفينغ Meroving كانوا يستخدمون ورق البردى فقط في مراسلاتهم حتى العقد الثامن من القرن السابع الميلادي، بينما أصبح استعماله نادرا خلال القرن الثامن الميلادي. وقد تلاشى استعمال ورق البردى حينئذ في عدة بلدان أخرى إلا أن البابوات بقوا يستخدمونه في مراسلاتهم حتى القرن الحادي عشر الميلادي.

وقد كان التخلي التدريجي عن استعمال ورق البردى في أوربا يرتبط بالتراخي التدريجي للعلاقات التجارية بين مصر وأوربا الغربية بعد فتح العرب لمصر في القرن السابع الميلادي. وفي الواقع لقد كان قدوم السفن السورية وغيرها إلى مرسيليا وبقية موانئ غرب المتوسط يقل باستمرار مما كان يقلل بدوره من وصول ورق البردي إلى أوربا. وقد كان انقطاع هذه الصلات التجارية التقليدية بين مصر وأوربا الغربية بالذات هو السبب الحقيقي الذي جعل ورق البردى الرخيص نسبيا يخسر المعركة نهائيا مع الرق.

أما الورق، مادة الكتابة الجديدة التي ستقضي بسرعة على كل المواد الأخرى، فقد برز في أوربا كسلعة تجارية مستوردة من العالم العربي. وقد كان الورق يصل أوربا من دمشق عبر القسطنطينية ومن أفريقيا الشمالية عبر صقلية، بينما كان يصل إلى عدة مناطق في أوربا الغربية عبر إسبانيا. وقد احتكر العرب إنتاج الورق لفترة طويلة من الزمن. ويعتقد أن أول مصنع للورق خارج العالم العربي قد أسس سنة 1147 في فيدالون في الجانب الفرنسي من البيرينة، من قبل جان مونتغولفيه الذي شارك في الحملة الصليبية الثانية ووقع في الأسر لدى العرب. وكان هذا قد قضى فترة أسره في دمشق ويبدو أنه اطلع هناك على كيفية صنع الورق. إلا أن المصنع الآخر الذي بني في إيطاليا، في فابريانو بالقرب من أنكونا Ancona والذي بدأ إنتاجه سنة 1276 كان أهم بكثير حتى أن إيطاليا سرعان ما أصبحت أهم منتج للورق، وأبعدت العرب بسرعة عن السوق الأوربي. وقد أسس مصنع آخر للورق سنة 1293 في بولونيا، ثم برز بعد ذلك عدد كبير من المصانع الأخرى.

وقد ساد الاعتقاد زمنا طويلا في أوربا بأن الورق هو مجرد بديل رخيص عن الرق يصلح لكتابة النصوص الآنية، أي التي لا يحتاجها أحد لفترة طويلة. فبالمقارنة مع الرق المتين كان الورق اللين الذي يمكن أن يطوى ويمزق بسهولة يبدو في نظر كتاب الدواوين الملكية والنساخ الذين ينسخون المخطوطات لمكتبات الأديرة والمكتبات الأخرى مادة غير مضمونة لكتابة الوثائق الرسمية المهمة والمعاهدات الدولية والكتب المقدسة إلخ. وهكذا نجد مثلا أن ملك صقلية ونابولي فريدريك الثاني قد منع منذ سنة 1231 استعمال الورق لاستعمال الوثائق العامة، وحتى أن هذا المنع دخل لاحقا في قوانين بعض المدن وقوانين بعض الروابط. وعلى الرغم من هذا المنع، ومن الشك الذي بقي يتمسك به النساخ وزبائنهم، إلا أن الورق استمر في شق طريقه. وقد أدى الطلب المتزايد على مادة الكتابة ابتداء من القرن الثالث عشر الميلادي، وخاصة مع افتتاح الجامعات حيث برزت الحاجة إلى نسخ عدد كبير من الكتب للطلاب والأساتذة إلى تقصير الرق عن تلبية الحاجات المتزايدة.

وقد أخذت الوثائق العامة تكتب على الورق منذ القرن الثالث عشر

الميلادي بحيث أن الرق تحول مع الزمن إلى مادة تكتب وتطبع عليها فقط بعض المؤلفات الغالية المزينة بتوصية خاصة من الحكام أو من هواة جمع الكتب.

وكان الورق الذي ينتج في فابريانو وبقية المدن الإيطالية من نوعية ممتازة حتى أنه تفوق على الورق العربي. وقد أخذ التجار الإيطاليون يبيعون الورق في كل البلدان الأوربية. ونظرا للطلب المتزايد فقد أسست مصانع جديدة للورق في فرنسا أولا(في تروايز قرب باريس إلخ) ثم في ألمانيا. وقد أسس أول مصنع في ألمانيا سنة 1390 في نورنبرغ. ويبدو أنه ليس من المصادفة أن يؤسس هذا المصنع في نورنبرغ لأن هذه المدينة كانت أهم مركز لإنتاج الكتاب بواسطة القوالب الخشبية.

ك- منع وإحراق الكتب

في العصر الوسيط، حين كانت الكتب تنسخ داخل أسوار الأديرة أو في ورش النسخ التابعة للاسقفيات، نجد أن مكافحة الكتب غير المرغوبة والخطرة كانت أسهل بكثير مما كانت عليه في العصر اليوناني-الروماني. ففي هذه الظروف لا يمكن ببساطة أن نتصور وجود مفكرين أحرار يمكن أن يكتبوا مؤلفات يتعارض مضمونها مع ما تسمح به سلطة الكنيسة أو سلطة الدير.

ومع هذا فقد برزت في هذا العصر المظلم بالنسبة للفكر الإنساني الحر عدة مؤلفات اعتبرت خطرة من قبل الكنيسة. وقد كان من الطبيعي في هذه الحالة أن تمنع الكنيسة هذه المؤلفات وأن تلاحق دون رحمة مؤلفيها.

وقد كان أقدم مثل لمنع الكتب في تاريخ المسيحية قد سجل في العصر القديم. ففي سنة 325 م اتخذ مجمع نيقيه قرارا بمنع مؤلفات أسقف الإسكندرية آريوس لأنه ورد فيها بعض الآراء عن التثليث، أحد أسس العقيدة المسيحية، التي كانت تتعارض مع التفسيرات الرسمية للكنيسة. وقد صدرت فيما بعد قرارات أخرى بمنع الكتب، سواء من الكنيسة أو الدولة التي كان يصاحبها غالبا إحراق الكتب.

أما أول تسجيل للكتب غير المرغوبة فقد حدث في القرن الخامس الميلادي، وبالتحديد في سنة 494 م. وفي الواقع لقد كان هذا «مرسوم

فيليسيان» وبالتحديد ذلك المقطع من هذا المرسوم الذي يحمل عنوان «الكتب المرغوبة والكتب غير المرغوبة»، حيث تذكر أولا الكتب الجيدة والمفيدة للقراء ثم الكتب الهرطقية والمشبوهة التي تمنع قراءتها.

وخلال العصر الوسيط، حين بسطت الكنيسة سيطرتها الكاملة على المجال الروحي أصبحت ملاحقة المؤلفات، والمؤلفين بشكل خاص تتم عند أبسط انحراف عن التعاليم الرسمية للكنيسة. وفي بداية ومنتصف العصر الوسيط كان الأمر غالبا يتعلق بالمؤلفات المنسوبة إلى القديسين والمؤلفات الهرطقية ثم المؤلفات التي تتضمن الخرافات وغير ذلك.

وهكذا فقد تقرر مثلا في مجلس كنسي في القسطنطينية خلال سنة 692 م إحراق سير الحياة المنسوبة إلى الشهداء، كما أن بطريرك القسطنطينية نيقفور اتخذ قرارا مشابها سنة 814 م.

ومع هذا فقد كانت هذه الحالات نادرة بينما زادت كثيرا في نهاية العصر الوسيط إلى الحد الذي أدى أخيرا إلى إضعاف سيطرة الكنيسة على إنتاج الكتاب. وهكذا فقد بقيت لنا معطيات كثيرة تتحدث عن منع مؤلفات مختلف الكتاب كما حدث للكاتب اللاهوتي برينيفار سنة 1050 م وأبيلارAbelard(سنة 1120 م)، وإيفان سكوت إريوغنا Eriugena (سنة 1225) وجون ويكليفت سنة 1387 م و 1408 م و 1413 م، وللكثير من الهراطقة وغيرهم الذين حاسبتهم الكنيسة بكل صرامة.

وقد كانت كتب هؤلاء الكتاب الذين كانوا يعتبرون خطرين كويكلف، تدان بالحرق وتمنع قراءتها تحت التهديد بالحرمان. وهكذا كان الأمر أيضا مع التلمود، الكتاب المقدس عند اليهود، الذي منع وأحرق عدة مرات خلال العصر الوسيط.

ومن ناحية أخرى فقد صدرت خلال العصر الوسيط سلسلة من القرارات التي تمنع ترجمات الكتاب المقدس إلى اللغات الشعبية. وفي بعض الحالات كانت قرارات المنع تشمل امتلاك هذه الترجمات لكي لا يفسر الناس كما يريدون الكتاب المقدس. وقد تكاثرت قرارات المنع هذه في فرنسا بشكل خاص منذ القرن الثاني عشر الميلادي.

وهكذا نجد مثلا أن المجلس الكنسي في طولوز قد أصدر سنة 1299 م قرارا يمنع فيه أفراد الشعب من امتلاك نصوص العهد القديم والعهد

الجديد باستثناء سفر المزامير على ألا يكون مترجما إلى اللغة الشعبية. وقد صدرت لاحقا قرارات منع مشابهة في إنكلترا وإسبانيا وغيرها من البلدان الأوربية.

ل- المؤلفات المرجعية

كانت الموسوعات وقواميس الإعلام والأعمال البنيوغرافية من العصر القديم هي المصادر الأساسية التي ساعدت على تأليف الكتب المرجعية في بداية ومنتصف القرن الوسيط.

ومن أهم هذه المؤلفات القديمة كان كتاب بلين «التاريخ الطبيعي» الذي نسخ كثيرا واستخدم كمصدر أساسي للمعلومات. وقد دفعت الحاجة إلى تفسير بعض الظواهر في الطبيعة والمجتمع، حسب الفهم المسيحي للعالم، إلى تأليف بعض الموسوعات الجديدة في وقت مبكر كموسوعة «الإتيمولوجيا» التي أنجزها الأسقف إسيدور الإشبيلي. وقد كانت هذه الموسوعة الأولى في العصر الوسيط مقسمة إلى عشرين مجلدا وكل مجلد مقسم بدوره إلى عدة فصول. وقد عرض المؤلف في هذه الموسوعة كل معارف عصره في القواعد والبلاغة، والطب، والحيوان، والمدن، واللغات والزراعة، والمعدن، والأسلحة والسفن إلخ. ولتأليف هذه الموسوعة فقد كان تحت تصرف المؤلف الكثير من مؤلفات العصر القديم، التي أخذ منها بشكل مباشر أو غير مباشر المعطيات التي كان يريدها. وقد ذكر المؤلف نفسه حوالي سبعين كاتبا وثنيا استفاد منهم ولهذا السبب بالذات فإن موسوعته تميزت بسمة وثنية. ولذلك يقال عنها بحق أنها الموسوعة الأخيرة للعصر القديم والموسوعة الأولى للعصر الوسيط.

وكنا قد ذكرنا سابقا أن هذه الموسوعة قد انتشرت في كل مكان حتى وصلت إلى أبعد الأديرة والمدن، وبقيت زمنا طويلا أهم مصدر للمعلومات في أوربا خلال العصر الوسيط. فقد وصل عدد النسخ المحفوظة أو المذكورة في مصادر ذلك العصر، إلى 950 نسخة وهو عدد كبير بالفعل. ويبدو أن الفضل في انتشار هذه الموسوعة يعود إلى المبشرين الإيرلنديين الذين كانوا ينسخون ويحملون هذه الموسوعة من بلد إلى آخر. وكانت كل مكتبة جيدة من مكتبات الأديرة تحاول أن تحصل على نسخة من هذه الموسوعة لأنها كانت لفترة طويلة الموسوعة الوحيدة التي ألفها كاتب مسيحي، ولأنها كانت

المصدر الوحيد الذي جمع معارف ذلك العصر.

ومع أننا نعرف اليوم أن هذه الموسوعة تحتوى على معطيات خاطئة وتفسيرات ساذجة إلا أن هذا بالطبع لم يؤثر على شعبيتها الكبيرة في بداية ومنتصف العصر الوسيط.

وقد نسخت هذه الموسوعة في نهاية القرن الثامن الميلادي في دير فولدا المشهور في ألمانيا. وفي هذا الدير بالذات ألف الأباتي المثقف هرابانوس ماوروس سنة 844 م موسوعة «حول شؤون الطبيعة» أو «حول الكون» كما يذكر في بعض المصادر. وبشغل عام يعتقد أن موسوعة إسيدور الإشبيلي كانت المصدر الرئيسي للمعلومات بالنسبة إلى ماوروس. ولكن بالمقارنة مع موسوعة إسيدور نصف الوثنية فقد كانت موسوعة ماوروس هي نتاج نموذجي للعصر الوسيط المسيحي. فقد تشبعت تفسيراته للظواهر الطبيعية والاجتماعية بالصوفية، بينما اختلط الواقع لديه غالبا بالعالم الخيالي لإنسان العصر الوسيط. ومع ذلك فقد أمنت شهرة المؤلف شعبية كبيرة لهذه الموسوعة.

وخلال القرون اللاحقة ألفت في أوربا الغربية عدة موسوعات ولكن لم تحرز أية واحدة منها النجاح الذي كان لموسوعتي إسيدور وماوروس. ومن هذه الموسوعات لا بد أن نذكر أولا «الكتاب المزهر» للكاهن القانوني لامبرت الذي مما كتب في بداية القرن الثاني عشر، ثم موسوعة «بستان المتع» لـ هيراد من لاندسبرغ التي كتبت في النصف الثاني عشر الميلادي.

ومن القرن الثالث عشر الميلادي لدينا أول موسوعة في لغة شعبية ألا وهى «كتب الخزانة» التي ألفها الكاتب الإيطالي المعروف برونيتو لاتيني B.Latini خلال فترة نفيه في فرنسا، التي امتدت ثلاث سنوات (1262-1266م). ولا بد أن نذكر هنا أضخم موسوعة في العصر الوسيط ألا وهي «المرآة الكبرى» التي ألفها الدومينيكاني فينسنت Vincent (1190-1264) م بطلب من الملك الفرنسي لويس التاسع. وكان الملك قد أمن له عددا كبيرا من النساخ الذين كانوا يستخرجون له الخلاصات من الكتب المختلفة وبهذا التصنيف الواسع، الذي يعد أكبر تصنيف من نوعه حتى القرن الثامن عشر الميلادي، أصبح الكتاب القدماء مصدرا متساويا للمعلومات مع الكتاب المسيحيين، وقد كان ذلك مؤشرا على تجاوز الموقف العدائي من الكتاب

الوثنيين اليونانيين-الرومانيين وتأصيل موقف جديد من تراث العصر القديم. وقد نسخت هذه الموسوعة مرات كثيرة بينما قام بطبعها الناشر المعروف مينتيلين-Men telin في أربعة مجلدات ضخمة في سترسبورغ خلال 1473-1476 م.

ومع هذا فإن أية موسوعة من موسوعات العصر الوسيط لم تصل من حيث القيمة إلى مستوى موسوعة إسيدور الإشبيلي. ولذلك فليس من المستغرب أن هذه الموسوعة بقيت تنسخ طيلة العصر الوسيط وبقيت تستخدم كمصدر رئيسي للمعلومات من قبل كل الكتاب الذين عملوا في المجال الموسوعي خلال ذلك العصر.

وبشكل مستقل عن هذه الموسوعات التي أنجزت في أوربا الغربية ظهرت في القسطنطينية عدة موسوعات لعل من أشهرها «كتاب العطورات»، الذي أنجز في القرن التاسع الميلادي. وكان بطريرك القسطنطينية فوس، أحد هواة الكتب الذي كان يتمتع بثقافة واسعة هو الذي أنجز هذا العمل الموسوعي-البيليوغرافي. ففي هذه الموسوعة نجد عرضا لـ 280 كتاب كانت وفي حوزة المؤلف مع تفاوت في التعريف بين كتاب وآخر. فالمؤلف يكتفي أحيانا بتعريف الكتاب في عدة سطور بينما كان يخص بعض الكتب التي يعتبرها مهمة، بعدة صفحات. ويلاحظ هنا أن المؤلف لم يميز بين الكتاب الوثنيين وبين الكتاب المسيحيين، حتى أن نصف الكتب الـ 285 الواردة في موسوعته هي لكتاب وثنيين حظي منهم المؤرخون بتعريف أفضل.

وفي الواقع لقد كانت موسوعة فوس، في العصر الذي كان يفتقد أية استعادة من التراث القديم، تتمتع بأهمية كبيرة كمصدر للمعلومات للشريحة المتعلمة في المجتمع البيزنطي آنذاك. وحتى اليوم لم تفقد موسوعة فوس أهميتها لأن المؤلف يستعرض فيها محتويات الكثير من الكتب التي لم تصل إلينا. ويكفي هنا أن نذكر أنه من أصل 33 مؤلفا تاريخيا وضعها لنا فوس في الموسوعة لا نعرف اليوم إلا ثلاث عشرة بينما فقد عشرون منها.

وفي هذه الموسوعة يكتب فوس عن ضرورة تأليف معجم يعتمد على الاستشهادات من الكتب الأخرى ليشرح الأفكار المختلفة. وبالفعل فقد كتب كتابا من هذا النوع، كما أنه أنجز معجما آخر إلا أنه لم يصل إلينا. وحتى معجمه الأول كان معروفا من خلال بعض المقاطع فقط إلى سنة 1959، حتى

اكتشفت نسخة كاملة منه في أحد الأديرة.

وفي نهاية القرن العاشر الميلادي تضافرت جهود بعض المتعلمين في بيزنطة لإنجاز عمل معجمي بعنوان Suidas وهو تصنيف يعتمد على الكتب الببليوغرافية السابقة والمصادر الأخرى. وفي الواقع أن هذا العمل مهم لأنه حفظ لنا الكثير من المعطيات عن كتب وكتاب من العصر القديم لم نكن نعرف عنهم شيئا لولا هذا العمل. وهناك تفصيل مهم يميز هذا العمل عن موسوعات العصر الوسيط في أوربا الغربية. ففي هذه الموسوعات يتم استعراض المواد من خلال الفصول والأبواب بينما نجد أنه في Suidas تتسلسل المواد حسب الترتيب الأبجدي، أي على الطريقة المتبعة في المعاجم والأعمال المشابهة في العالم اليوناني منذ القرن الثالث ق. م.

ولكن ماذا كان يمكن لإنسان العصر الوسيط أن يتعلم من هذه الموسوعات عن الطبيعة، وعن جسم الإنسان، وعن الرياضيات، وعن كل الأمور الأخرى التي تهمه ؟

إذا قرأنا اليوم هذه التصنيفات تبدو لنا في غالبيتها مجموعة من المعلومات الخاطئة والتفسيرات المغلوطة والساذجة، وخاصة فيما يتعلق بالطبيعة وقوانينها، ولكن في ذلك الوقت كانت المصدر الوحيد تقريبا للمعلومات ولذلك فإن أهميتها كانت كبيرة جدا. وفي الواقع لم يكن في الإمكان أن تكون هذه الموسوعات أحسن مما كانت لأنها أنجزت في ذلك الوقت الذي كانت الظواهر الطبيعية والاجتماعية تفسر بالاستناد إلى الكتاب المقدس وليس على أساس الأبحاث العلمية الأصيلة.

أما المصدر الآخر للمعلومات فكان يتمثل في قواميس الأعلام. كان القديس يورينم (347-419 أو 420) قد أنجز، على نمط الأعمال المشابهة اليونانية والرومانية كتابه «حول الرجال المشهورين»، الذي قلد فيه من كل ناحية قواميس الأعلام التي ظهرت في العصر القديم تحت العنوان ذاته. وقد أنجز يورليم كتابه هذا سنة 392 وقدم فيه سير حياة 135 كاتبا مسيحيا بالإضافة إلى سيرة حياته. وفي الواقع إن هذا القاموس يكاد أن يكون بطابع بيو-بيليوغرافي لأن المؤلف حرص في كل سيرة أن يقدم المعطيات الحياتية التي تخص الكاتب بالإضافة إلى عناوين كتبه. وعلى الرغم من النقائص التي لاحظها المعاصرون (القديس أوغسطين مثلا) فقد بقي هذا

القاموس لوقت طويل في العصور الوسطى نموذجا لقواميس الأعلام.

وهكذا فقد تابع العمل في هذا المجال غناد Genard المرسيلي، الذي أنجز في القرن الخامس قاموس أعلام يحمل العنوان ذاته. أما في القرن السابع الميلادي فقد أنجز إسيدور الإشبيلي قاموسا آخر اهتم فيه بالكتاب الذين ينحدرون من أصل إسباني.

ومع أنه قد ظهرت خلال العصر الوسيط عدة قواميس من هذا النوع إلا أن أهم هذه على الإطلاق، من حيث وفرة المعطيات البيوغرافية والببليوغرافية، كان قاموس «حول الكتاب المسيحيين». الذي أنجزه رجل الدين والفيلسوف هنريك من غاند Gand في القرن الثاني عشر الميلادي. وفي هذا القاموس يرد ذكر تسعة آلاف عنوان كتاب لمختلف المؤلفين المسيحيين. وقد طبع هذا القاموس في كلن سنة 1580، إلا أن مخطوطه كان يستخدم كمصدر للمعلومات حتى قبل هذا التاريخ.

وابتداء من القرن الرابع عشر الميلادي أخذت تظهر قواميس، كثيرة على نمط قاموس بلوتارك «السير المقارنة» ولكن لم تعد الآن تقتصر على سير رجال الدين والكتاب المسيحيين بل أصبحت تشمل الآخرين. ومن هذه القواميس يمكن أن نذكر هنا ما أنجزه بتراركا («حول مشاهير الرجال») وبوكاتشو وغيرهم، إلا أن عدد هذه القواميس تزايد أكثر مع تطور الثقافة في المدن ومع تزايد الحاجة إلى معلومات من هذا النوع. ولكن يلاحظ من ناحية أخرى أن أوربا خلال العصر الوسيط لم تعرف كثيرا الأعمال الببلوغرافية، أي الأعمال التي تتحدث في الدرجة الأولى عن الكتب ثم الكتاب. ومن هذه الأعمال النادرة من هذا النوع «في أسماء الكتب»، الذي أنجزه ريكارد من فورنيقال سنة 1250 م. وكان ريكارد قد أنجز هذا العمل لكي يكون دليلا لمعاصريه إلى عالم الكتاب. وفي الواقع فقد اكتفى ريكارد في هذا العمل بوصف ما لديه من كتب في مكتبته التي يعتقد أنها كانت تحوى حوالي 300 كتاب، وذلك حسب الاختصاصات. وإذا أخذنا بعين الاعتبار العصر الذي كون فيه ريكارد هذه المكتبة فإن عدد ما فيها من كتب يستحق التقدير، لأن هذا العدد من الكتب وهذا النوع من الاختيار للكتاب لا نجد له مثيلا في الكثير من مكتبات الأديرة والكاتدرائيات. وهكذا ندرك من وصفه أنه كان يملك في مكتبته مسرحيات سينيكا وأشعار بروبيروس وتيبول

والكثير من مؤلفات الكتاب في العصر الوسيط. أما في القرن الرابع عشر فقد ألف ريتشارد دي بوري (1354-1287) De Bury مؤلفه المعروف «صديق الكتاب». وكان ريتشارد قد شغل مناصب مهمة جدا في حياته وتجول في أوربا كمبعوث للملك الإنكليزي إدوارد الثالث. وهكذا فقد زار الكثير من مكتبات الأديرة والكاتدرائيات وتزود منها بالكثير من الكتب التي أحب أن تكون في مكتبته الشخصية. فقد كان يشترى ويقبل الهدايا و«يستعير» الكتب التي لا يعيدها ثانية إلى أصحابها حتى تمكن من تكوين مجموعة مهمة جدا من مؤلفات الكتاب في العصر القديم والعصر الوسيط. وفي كتابه «صديق الكتاب» يذكر بالتفصيل كيف تمكن من تجميع الكتب لمكتبته ثم يصف لنا هذه الكتب، ويختتم ذلك في النهاية بتعليمات عن كيفية رعاية الكتب وعن الشروط التي يمكن أن تعار فيها.

وقد أحرز هذا الكتاب نجاحا كبيرا في ذلك الوقت. فقد نسخ مرات كثيرة حتى الآن (وجدت 45 نسخة منه) بينما طبع للمرة الأولى في كلن سنة 1473، وقد بقي يترجم ويطبع بوفرة فيما بعد وحتى يومنا هذا نظرا لأنه من الأعمال المثيرة في مجال هواية جمع الكتب.

ومع أن ريتشارد دي بوري لم يهدف في الحقيقة إلى تصنيف مؤلف مرجعي إلا أنه أنجز عملا من هذا النوع لأن الكثير من القراء كانوا يستفيدون من هذا العمل في التعرف على عدد كبير من الكتاب مع عناوين كتبهم.

وكمصدر للمعلومات لا بد أن نذكر هنا الفهارس المخطوطة للمكتبات المختلفة، مع أنها كانت مخصصة فقط للقراء الذين يستفيدون من تلك المكتبات مما كان يقلل من قيمتها كمصدر للمعلومات. أما النوع الآخر من الفهارس فيتعلق بما يسمى «الفهارس الجامعة» وهي التي كانت قد ظهرت في نهاية العصر الوسيط لتسمح لعدد أكبر من القراء بالاستفادة من الكتب المذكورة فيها. وفي الواقع فإن ظهور هذه الفهارس الجامعة خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد يدل في حد ذاته على اهتمام متزايد للناس المتعلمين للحصول على معلومات من هذا النوع.

إن كل مصادر المعلومات هذه تبدو لنا اليوم قليلة من حيث العدد ومحدودة التأثير خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن عدد أولئك الذين كانوا يستفيدون منها كان قليلا نسبيا. ولكن مع ذلك فإن هذا لا يسمح لنا أن نستخلص بأن

المتعلمين في أوربا خلال العصر الوسيط كانوا غير مطلعين على الكتب الجديدة والأفكار الجديدة بسبب قلة المصادر المكتوبة التي كانت متوفرة لهم. وفي الحقيقة لا يجب أن ننسى أن إنسان العصر الوسيط كان يتوصل إلى معظم المعلومات عن الكتب، وعن الشخصيات التاريخية المختلفة، وعن الحوادث إلخ.. عن طريق السماع سواء في الدير، أو في المدرسة، أو عن طريق المعارف من المتعلمين وهكذا. وبالإضافة إلى هذا فقد كان تنقل الرهبان المتعلمين من دير إلى آخر وتنقل بقية المتعلمين من مدينة إلى أخرى وسيلة جيدة وفعالة لنقل المعلومات.

ل- المكتبات في العصر الوسيط

خلال العصر الوسيط كانت المكتبات توجد في الأديرة والكاتدرائيات والبيوت الخاصة، بينما أخذت تظهر في نهاية هذا العصر المكتبات العامة. وقد كانت الغالبية العظمى من هذه المكتبات في الأديرة حيث نجد مكتبة- حتى لو كانت متواضعة-في كل دير من آلاف الأديرة المنتشرة في أوربا آنذاك. وفي هذه المكتبات كانت أكثر الكتب تتعلق بالخدمات الدينية أو بتربية الجيل الجديد من الرهبان. وإذا قد كنا تحدثنا بشكل مطول عن هذه المكتبات فسوف نتعرض لها ثانية هنا.

وإلى جانب ذلك تأتي من حيث الأهمية مكتبات الكاتدرائيات، التي لعبت دورا مهما في القرون الأولى من العصر الوسيط. وكان هذا النوع من المكتبات قد ظهر في العصر القديم إلا أن بعضها فقط أصبحت لها قيمة ومكانة كبيرة في العصر الوسيط.

وهكذا فإن المكتبات من هذا النوع في إنكلترا، وخاصة تلك التي تأسست في القرن السادس في كانتربرى، والأخرى التي تأسست في القرن السابع في يورك، كانت تتمتع بمثل هذه الأهمية. وكان أشهر راهب في عصره، الكوين، قد حصل تعليمه في مكتبة كاتدرائية يورك بالذات قبل أن ينتقل إلى القارة الأوربية. وفي فرنسا كانت أهم هذه المكتبات في ليون وريمس Rejms, بينما كانت أشهر هذه المكتبات في ألمانيا في ماينس وتريية Trier وفيرسبورغ إلخ. وفي إيطاليا لا بد أن نذكر من هذه المكتبات مكتبة لوتشي وخاصة مكتبة فيرونا التي تأسست في القرن الخامس الميلادي والتي تعتبر من المكتبات الأوربية النادرة التي حافظت على استمراريتها من ذلك

العصر وحتى يومنا هذا. وقد حفظت في هذه المكتبة نسخ نادرة من الكتب القديمة ومخطوطات أخرى بينما انتقلت بعض الكتب التي نسخت في هذه



لوحة تمثل مكتبة في القرون الوسطى في كتاب س. برانتا الذي نشر في بازل 1497.

المكتبة إلى مكتبات أخرى. وقد كانت ورشة النسخ في هذه المكتبة، التي بدأت عملها منذ بداية القرن السادس الميلادي، كانت من أنشط ورش النسخ في إيطاليا وخاصة خلال القرن التاسع الميلادي. وفي الواقع لدينا من القرن السادس بالذات أقدم مخطوط مؤرخ تم نسخه في هذه الورشة ألا وهو كتاب «سيرة حياة مرتينوس» لسولبيسي سيفر، الذي قام بنسخه

المصحح في المكتبة أورسينيوس سنة 517 م، وذلك كما دون هذا بنفسه في المخطوط. وعلى كل حال إن هذا هو أقدم مخطوط مؤرخ في أوربا خلال العصر الوسيط.

وفيما يتعلق بكرواتيا فقد برزت أهمية مكتبة كاتدرائية سبليت، التي كانت تضم ورشة نسخ أيضا. وكانت ورشة النسخ قد أسست في القرن السابع الميلادي أو في القرن الثامن على أبعد تقدير، وكانت تنسخ فيها الكتب لحاجات الكاتدرائية التي أسست في ذلك الحين. ويبدو أن ما يسمى «إنجيل سبليت» قد كتب هنا في القرن الثامن الميلادي على حد رأى ق. نوفاك. وقد اغتنت لاحقا مكتبة الكاتدرائية بمخطوطات كثيرة بقي بعضها إلى يومنا هذا. وفي الواقع فإن هذه هي أقدم مكتبة نعرفها في كرواتيا وفي يوغسلافيا بشكل عام.

وتشكل مكتبات الجامعات مجموعة مهمة جدا، وهي المكتبات التي أخذت تبرز في الجامعات منذ القرن الثالث عشر الميلادي. ومن هذه المجموعة تميزت بغناها ومكانتها المكتبات التي أسست في إطار الكليات في باريس، وخاصة تلك الكلية التي حملت اسم مؤسسها روبرت دي سوربون، وكانت هذه المكتبة قد أصبحت خلال وقت قصير أحد أغنى المكتبات في أوربا. وقد برزت أيضا مكتبات مهمة في جامعة ألمانيا (هايدلبرغ، إيرفورت وكلن) وإيطاليا (بولونيا، بادوفا، ونابولي)وإنكلترا(أوكسفورد وكامبردج) وإسبانيا(سالامانكا) وغيرها.

وقد جمع أيضا الحكام في قصورهم والإقطاعيون في حصونهم مجموعات مهمة من الكتب. ومن هؤلاء كان فريدريك الثاني ملك صقلية والإمبراطور الجرماني لاحقا (حكم 1212-1250) يمتلك مكتبة غنية جدا بقصره في باليرمو. وكان هذا الحاكم من جوانب كثيرة النموذج السابق للحكام والأمراء المتعلمين لعصر النهضة في إيطاليا. فقد كان يجمع في قصره عددا كبيرا من المترجمين والفلاسفة والشعراء والعلماء بحيث حول قصره إلى واحد من أنشط المراكز الثقافية في أوربا. وقد نظم بنفسه ترجمة الكتب العلمية من اللغة العربية ثم ترجمة مؤلفات الرياضيات والفلك والفلسفة للكتاب اليونانيين الكبار وأرسطو بشكل خاص، كما أنه كان يكتب بنفسه المقالات العلمية.

وفي باريس جمع ملوك فرنسا مخطوطات قيمة وأسسوا بهذه نواة «المكتبة الملكية» التي ستتحول بعد وقت طويل خلال الثورة الفرنسية، إلى «المكتبة الوطنية» التي هي اليوم من أكبر المكتبات في العالم.

وكنا قد ذكرنا من مكتبات حكام العصر الوسيط تلك المكتبة التي كونها في قصره الملك الفرانكي كارل الكبير، والتي طورها من بعده خلفاؤه ولا سيما كارل الأصلع (843-877 م).

وقد لجأ الكثير من الحكام والإقطاعيون لاحقا إلى إنفاق المبالغ الطائلة لشراء المخطوطات النادرة والمزينة بشكل فخم سواء بدافع حب المعرفة أو بدافع التقليد والحفاظ على المكانة. وقد تضررت الكثير من المكتبات خلال الحروب والصراعات الاجتماعية بينما سلمت بعض هذه المكتبات من الأخطار وتحولت لاحقا إلى نواة للمكتبات الضخمة في القصور خلال عصر النهضة.

ومن بين كل هذه المكتبات كان لمكتبة البابوات وضع خاص في العصر الوسيط. وحول وجود هذه المكتبة تعود الأخبار الأولى إلى القرن الرابع الميلادي. ففي ذلك الوقت قام البابا داماس الأول ببناء كنيسة القديس لورنس، وخصص قرب هذه الكنيسة بناء كمركز للوثائق البابوية حيث كانت تحفظ الكتب أيضا. ومع أن الأخبار تتضاءل عن هذه المكتبة خلال العصر الوسيط إلا أنه لا يوجد شك بوجودها وأهميتها. وقد نقلت هذه المكتبة في عهد البابا غريغور الكبير (590-604 م (إلى لاتيران، ولدينا من سنة 871 م أقدم خبر يكشف عن وجود أمين للمكتبة فيها. وقد دمرت هذه المكتبة خلال القرون عدة مرات، ولكنها كانت تبنى من جديد في كل مرة. ففي عهد البابا بونيفاتيوس الثامن) القرن 12 م (ازدهرت هذه المكتبة كثيرا في البداية ولكنها لم تنج من الدمار في النهاية. وقد جدد البابا يوحنا الثاني والعشرون (1316-1334 م) هذه المكتبة ولكن في أفينيون[*6] هذه المرة. وبالاستناد إلى فهرس محفوظ يعود إلى سنة 1369 م نجد أن هذه المكتبة كانت تحوى حينئذ 2059 كتابا. إلا أن هذه المكتبة تعرضت للدمار بعد عودة البابوات إلى روما من منفاهم في أفينيون. وقد أسس لاحقا البابا نيقولا

(*6) مدينة على نهر الرون في فرنسا، أصبحت مقرا للبابوية فترة من الزمن (1309- 1377 م) (المترجم).

الخامس، أحد أشهر هواة جمع الكتب في عصر النهضة، هذه المكتبة من جديد في الفاتيكان، حيث ستصبح بسرعة أهم مكتبة في إيطاليا وأوربا بشكل عام.

م-١-مظهر المكتبة

كانت المكتبات في العصر الوسيط تحتوى على عدد متواضع من الكتب، ولذلك لم يكن هناك ضرورة لتشييد أبنية خاصة وضخمة للمكتبات كما كان الأمر في روما خلال العصر القديم. وكانت الكتب في مكتبات الأديرة والكنائس تستخدم في الدرجة الأولى للخدمات الدينية مما كان يحتم وجودها قرب الرهبان ورجال الدين.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن تعبير «مكتبة» Bibliotheca الذي استخدمه القديس بينيديكت في كتابه، «قانون الرهبان» كان يشير فقط إلى معنى الأثاث-أي الرفوف التي توضع عليها الكتب-بينما لم تكتسب المعنى الحالي-المكان الذي توضع فيه الكتب-إلا في وقت متأخر. وكانت الكتب في القرون الأولى للعصر الوسيط تحفظ غالبا في الخزائن Armarium. وفي الواقع فقد كانت الخزائن تستعمل للكتب منذ العصر الروماني، بينما لدينا من بداية العصر الوسيط مشهد بديع لخزانة الكتب المصنوعة من الموزاييك وهي الموجود في ضريح غال بلاسيديه G.Placidie في رافينا Ravena، الذي يعود إلى القرن الخامس الميلادي. ولدينا أيضا مشهد بديع لخزانة كتب في «مخطوطة امياتينوس» المشهورة التي تعود إلى القرن السابع الميلادي إلخ.. وقد وصل الأمر في بعض الأحيان أن يصبح تعبير «أرماريوم» (خزانة الكتب) مرادفا لتعبير المكتبة ذاته وليس مجرد خزانة الكتب في المكتبة. ومن هنا فقد شاع في العصر الوسيط تعبير «أماريوس» Armarius للتدليل على أمين المكتبة. وفي ذلك الوقت كانت الكتب توضع أحيانا في تجاويف الجدران، بينما ظهر في نهاية العصر الوسيط نوع جديد من المكتبات يضم صفوفا من الطاولات المائلة التي تثبت عليها الكتب بالسلاسل liber Catenati. إلا أن هذا النوع من المكتبات ازدهر بشكل خاص في عصر النهضة.

2- حجم ومضمون الكتب

بالمقارنة مع المكتبات العربية والبيزنطية في العصر نفسه، التي كانت الواحدة منها تحوى عشرات ومئات الألوف من الكتب، نجد أن المكتبات في

أوربا الغربية خلال العصر الوسيط كانت متواضعة جدا حيث احتوت المكتبة الفنية على عدة مئات من المجلدات فقط (عادة من 300 إلى 500 مجلد)، بينما كانت بعض المكتبات النادرة تحوي على ألف كتاب أو أكثر. وفي الواقع أن المعطيات المأخوذة من فهارس المكتبات تصور لنا بوضوح الوضع في عدد من أشهر مكتبات الأديرة في أوربا الغربية. وهكذا، على سبيل المثال، نجد أن مكتبة دير البنيديكتيين في درام-Dur ham كانت تحوى في القرن الثاني عشر الميلادي على 366 كتابا، ومكتبة دير بوبيو المشهور في إيطاليا الشمالية كانت تحوى في القرن العاشر الميلادي على 666 كتابا، ومكتبة دير لورش Lorsch في ألمانيا كانت تحوى في القرن التاسع الميلادي على 590 كتابا، بينما كانت مكتبة دير سانت غالين المشهور في سويسرا تحوى في نهاية القرن الحادي عشر على حوالي ألف كتاب. وقد كانت كل هذه مكتبات كبيرة نسبيا لأن بقية الأديرة والاسقفيات كانت تملك عددا أقل من الكتب. وعلى سبيل المثال، نجد أن دير كريمونا كان يحوى في القرن العاشر على 95 كتابا بينما كان دير فوناتولا يحوى على 61 كتابا إلخ.

ولم يختلف الوضع في كرواتيا كثيرا. ففي سجل دير القديس بطرس في سيلو بالقرب من سبليت، نجد في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي 25 كتابا فقط. وفي أشهر دير للبنيديكتيين، وهو دير القديس كرشفان في زادار والذي كان يحوى ورشة للنسخ، لم يكن الوضع أفضل إذ أننا نجد في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي 60 كتابا في هذا الدير.

أما مكتبات الجامعات فقد كانت أغنى نسبيا من بقية المكتبات. وهكذا نجد مثلا أنه في القرن الثالث عشر الميلادي، وبالتحديد بعد أربعين سنة من إنشاء روبرت دى سوربون لكلية اللاهوت في باريس، أن عدد الكتب في مكتبة هذه الكلية وصل إلى حوالي ألف كتاب.

ومن سجلات وفهارس الكتب يمكن لنا أن نعرف اليوم نوعية الكتب التي كانت تضمها المكتبات. وهكذا فإن أكثرية هذه الكتب كانت ذات طابع ديني، وبين هذه تأتي نسخ التوراة قي الدرجة الأولى ثم كتب الصلوات المختلفة إلخ، بينما كانت أغنى المكتبات فقط تحوى بعض مؤلفات الكتاب القدماء والكتاب المعاصرين من غير رجال الدين بشكل عام. ولم تحو العديد من المكتبات إلا على الكتب الدينية فقط. ومن هذا النوع كانت مكتبة دير

القديس بطرس في سيلو، التي مر ذكرها، إذ لا نجد فيها سوى الكتب الدينية فقط.

3- الطابع العام للمكتبات

بعد أن فقد الكتاب خلال العصر الوسيط دوره من عدة جوانب كأداة لنقل المعلومات كان من الطبيعي أيضا أن تفقد المكتبات أيضا دورها الاجتماعي. وهكذا عوضا عن أن تكون المكتبات كما كانت في العصر الروماني، أو كما كانت حينئذ في بيزنطة والعالم العربي، مكانا يلتقى فيه الناس المتعلمون والمهتمون بالعمل العلمي والارتقاء في مجال اختصاصاتهم فقد أصبحت المكتبات الآن مستودعات للمخطوطات الغالية المخصصة لدائرة ضيقة جدا من النخبة. وبعبارة أخرى لم تعد المكتبات مؤسسات مفتوحة وعامة، وهي الحالة التي استمرت حتى القرن الخامس عشر الميلادي. وحتى في الحالات التي كان يسمح فيها أصحاب المكتبات (الأديرة، الكنائس الحكام وهواة جمع الكتب، الأغنياء) بالاستفادة من الكتب التي فيها فإن هذه الاستفادة كانت تقتصر على عدد محدود من الأصدقاء، والرهبان من الأديرة الأخرى، والناس المتعلمين وغيرهم، ولكن لم يكن في الإمكان أن يدخل المكتبة كل من يريد كما كان الأمر في العصر القديم، وفي الواقع فقد كان الوصول إلى كتاب ما في بداية ومنتصف العصر الوسيط يعتبر صعبا للإنسان العادي ومستحيلا لأكثرية الناس.

لقد كانت الكتب ملكية الأديرة والكنائس، بينما كانت المكتبات في قصور الحكام والأمراء الأغنياء تعتبر ملكية خاصة بكل ما في الكلمة من معنى. وهكذا فإن كارل الكبير كان يعتبر مكتبته الغنية في آخن، التي كأن يستفيد منها الناس المتعلمون من حاشيته، شيئا خاصا حتى أنه حدد في وصيته بأن تباع وأن توزع قيمتها على الفقراء.

وهكذا فقد كانت التغيرات التي طرأت على الدور الاجتماعي للمكتبات، منذ نهاية العصر القديم وحتى العصر الوسيط، ظاهرة بوضوح وذلك بسبب الانغلاق المتزايد لها في وجه القراء. وقد بدت هذه التغيرات بشكل واضح للغاية في حالة كاسيودور. وكان كاسيودور بالاستناد إلى مفاهيم العصر القديم حول الطابع العام للمكتبات، يريد أن يؤسس أكاديمية جديدة مع مكتبة كمؤسسة عامة يمكن أن يدخلها كل من يرغب في الاشتغال

بالكتب، على أن تنظم على نمط المكتبة العامة في العصر القديم. إلا أن هذه الفكرة فشلت ولذلك أسس كاسيودور مكتبته في الدير، دير فافاريوم، حيث لا يمكن أن تقوم بدور المكتبة العامة لأن الدير بعيد عن الناس الذين قد يرغبون بالاستفادة منها. وقد كان وجود أكثرية المكتبات في الأديرة المنعزلة، البعيدة غالبا عن طرق المواصلات، يساهم في حد ذاته في إبعاد هذه المكتبات عن المشاركة النشطة في الحياة الثقافية. وهكذا فقد بقي الكتاب طيلة الفترة التي كانت فيها الأديرة المراكز الرئيسية للثقافة والكتابة والمنتجة والمالكة الرئيسية للكتاب، يجد بصعوبة بالغة دوره إلى دائرة أوسع من القراء.

إن فكرة المكتبة كمؤسسة هامة بقيت مجهولة حتى القرن الرابع عشر الميلادي، أي حتى بتراركا. وكان بتراركا قد أخذ هذه الفكرة من العصر القديم، وقرر سنة 1362 م أن يهدى مكتبته لكنيسة القديس مرقس في البندقية على أمل أن يدفع هذا حكومة البندقية لتأسيس مكتبة كبيرة عامة في المدينة. إلا أن هذه الفكرة لم تنفذ في ذلك الحين لأن الظروف لم تكن قد نضجت بعد لتأسيس مكتبة من هذا النوع. ومع ذلك لم يطل الانتظار كثيرا إذ سرعان ما ظهرت في إيطاليا المكتبات العامة الأولى التي كان يحلم بها بتراركا.

4- استعارة وسرقة الكتب

في بداية ومنتصف العصر الوسيط كانت الكتب لا تعار برغبة أصحابها ولا يسمح بإخراجها من الدير أو الكنيسة إلا في حالات نادرة، وذلك نظرا للقيمة المادية الكبيرة للكتب.

وعلى الغالب كانت استعارة الكتب تتم بين الدير والكنيسة سواء للقراءة أو للنسخ وفي داخل أسوار المدير كان يمكن للرهبان أن يستعيروا الكتب لحاجاتهم، وبالتحديد لكي ينسخوها أو لكي يقرأوها. وكان أمين المكتبة هو الذي يراقب استعارة الكتب، يعير الكتب للرهبان ويستعيدها منهم، ويحرص على أن تعود الكتب سليمة إلى المكتبة. وإذا استعار شخص من خارج الدير أو الكنيسة الكتاب فقد كان عليه أن يترك مقابله إما كتابا آخرا يماثل قيمته أو مبلغا كبيرا من المال أو يرهن شيئا قيما يفوق قيمة الكتاب المستعار. ومن بين حالات الاستعارة المشهورة في التاريخ نذكر هنا واحدة منها، حين

اضطر الملك الفرنسي لويس الحادي عشر في القرن الخامس، عشر أن يستعير كتابا طبيا من مدرسة الطب في باريس. فقد اضطر الملك أن يضع في تحت تصرف مكتبة المدرسة 100 كورون ذهبي و 12 من الصحون الغالية مقابل استعارة الكتاب، التي أعيدت له لاحقا فور إعادته للكتاب.

وقد كانت بعض الرهبانيات الدينية تحدد في أنظمتها بشكل واضح متى يمكن أن تعار الكتب ولمن يمكن أن تعار، وما هو الرهن الذي يجب أن يتركه مقابل الكتاب المستعار. وقد حفظت لنا قوائم للكتب المستعارة منذ القرن التاسع الميلادي، حيث يبدو الحرص الشديد على تسجيل الكتب المستعارة.

وللحيلولة دون سرقة الكتب كان يتم تدوين ما يسمى «لعنة الكتاب» على صفحات الكتاب نفسه. ونجد أمثال هذه «اللعنة» كثيرا في كتب دير القديس ألبانس في إنكلترا، ومن هذه اللعنات نقرأ مثلا ما يلي: «هذا الكتاب يخص القديس ألبانس وتحل اللعنة على كل من يسرقه أو يمحي عنوانه». وفي الواقع لقد كان هناك الكثير من هذه اللعنات على صفحات الكتب لأن أصحاب الكتب كانوا على قناعة بأن هذه اللعنات تدفع اللصوص للتفكير طويلا قبل أن يقرروا سرقة الكتاب أو الإساءة إليه. وبالإضافة إلى هذا فقد كان الكثير من أصحاب الكتب يعتقدون بأن هذه اللعنات يمكن أن يكون تأثيرا أقوى إذا طال نصها أو إذا كتبت شعرا مما أدى إلى أن يتطور «فن» أدبي جديد.

ولكن في نهاية العصر الوسيط شاعت استعارة الكتب بشكل متزايد وهكذا فقد اتخذ مجلس كنائسي عقد في باريس خلال 1212 قرارا يحظر فيه على الرهبانيات الدينية أن تمنع في قوانينها استعارة الكتب لـ «أولئك الذين يحتاجون إليها». وقد تضمن أيضا هذا القرار منع حماية الكتب عن طريق اللعنات واعتبار اللعنات المكتوبة لا قيمة لها.

وهكذا مع مرور الزمن أصبحت مكتبات الأديرة تسمح للقراء من الخارج بالاطلاع على بعض كتبها، وبالتحديد على الكتب التي لم تكن ذات قيمة كبيرة مادية أو معنوية. وبهذا أصبحت الكتب أكثر قربا من القراء ومن اللصوص أيضا، الذين كان عددهم كبيرا أيضا. وبالطبع فإن اللعنات المدونة على الكتب لم تكن كافية لتصرف اللصوص عن هدفهم، ولذلك فقد

استخدمت طريقة أكثر فعالية لحماية الكتب القيمة من السرقة. وببساطة فقد كانت هذه الكتب تربط بالسلاسل إلى الطاولات أو إلى الرفوف، وقد أصبحت هذه «الكتب المربوطة» شائعة في نهاية العصر الوسيط. وهكذا فقد كان من نتائج انفتاح المكتبات على القراء، وتأسيس المكتبات العامة لاحقا، بروز خطر اللصوص أو أولئك المتعلمين الذين كانوا يعرفون قيمة الكتاب ولكنهم كانوا عاجزين عن شرائه.

وبالطبع فإن المكتبات لم تكن تربط بالسلاسل كل ما لديها من كتب، بل كانت تكتفي بربط الكتب التي يمكن أن يطلبها القراء وتترك الكتب الأخرى طليقة، أي الكتب التي يحتاجها الرهبان لممارسة الشعائر أو القراءة في غرفهم. وبالإضافة إلى هذه لم تعد تربط أيضا تلك الكتب التي يمكن أن تشترى بثمن بسيط في سوق الكتب، أو تلك الكتب التي انهالت على المكتبات بعد اختراع الطباعة لأن ثمنها كان أقل بكثير من ثمن المخطوطات. ويفيدنا في هذا المجال فهرس المكتبة المذكورة لدير القديس فرانسيس في أسيزى لمعرفة الكتب التي كانت تربط بالسلاسل والكتب التي كانت تترك طليقة. وهكذا نقرأ في مقدمة الفهرس أن المكتبة تتألف من قسمين: كان القسم الأول يسمى «المكتبة السرية» وتحوى الكتب المخصصة للرهبان التي كانت تحفظ في إحدى عشرة خزانة، أما القسم الثاني من الكتب فكان يوضع على الطاولات المخصصة للقراءة بعد ربطه بالسلاسل. وكان بإمكان القراء من الخارج أن يأتوا إلى هذا القسم بعد أن تسمح لهم سلطات الدير بالاستفادة من هذه الكتب.

وفي الواقع أن معظم القرارات المتعلقة بربط الكتب تعود إلى القرن السادس عشر الميلادي. وهكذا نجد مثلا أن كلية الطب في باريس اتخذت قرارا سنة 1509 م بربط الكتب في المكتبة بعد أن تكررت سرقة المخطوطات القيمة. وقد لجأت إلى هذه الطريقة أيضا «مكتبة لاورنزيانا» في القرن الخامس عشر الميلادي في فيرنسا، وهي إحدى أشهر المكتبات في عصر النهضة.

لقد استمرت عادة ربط الكتب بالسلاسل حتى القرن الثامن عشر الميلادي، إلا أن هذا الاستمرار كان بسبب التقليد أكثر من كونه بسبب الفائدة. فقد كانت الكتب المربوطة تضايق القراء لأنها كانت غير قابلة

للنقل من مكان إلى آخر في المكتبة مما كان يحد من الاستفادة منها للأغراض العلمية.

5- الفهارس الجامعة للمكتبات

أصبح نقص المعلومات عن الكتب الجديدة وعن الكتاب، وخاصة عن محتويات المكتبات القديمة، يؤدي بازدياد إلى عرقلة تطور العلم وخاصة بعد أن أخذ مركز الحياة الثقافية ينتقل من الأديرة إلى المدن. ففي القرون السابقة كانت أكثرية المكتبات تجمع عددا محدودا من الكتب، وكانت غالبية هذه المكتبات تتألف من كتب القداس وكتب التراتيل وكتب الصلوات اليومية. ومن هنا نجد أن سجلات هذه المكتبات في مختلف البلدان الأوربية تتشابه فيما بينها على الغالب. ولهذا السبب لم يشعر أحد بالحاجة إلى تعريف الآخرين بمحتويات مكتبة معينة في حد ذاتها، وذلك عن طريق نسخ فهرس المكتبة وإرساله إلى مكتبات الأديرة والكنائس الأخرى. وبعبارة أخرى فإن سجلات المكتبات كانت تبقى حبيسة الأديرة والكنائس، وهكذا فقد ندرت الحالات التي كانت تتبادل فيها المكتبات سجلات الكتب لديها، وذلك لأن الأسباب التي كانت تحتم هذا التبادل كانت قد تلاشت في الواقع.

أما في نهاية العصر الوسيط فقد ظهرت فهارس جامعة لعدة مكتبات تهدف إلى إعطاء المعلومات عن الكتب التي تحتفظ بها المكتبات. وقد أنجز الفرنسيسكان فهرسا جامعا من هذا النوع في منتصف القرن الرابع عشر بعنوان «سجل الكتب في إنكلترا» وذلك بالاستناد إلى تقصي الوضع في 186 مكتبة في إنكلترا. وبالإضافة إلى هذا فلدينا معلومات عن وجود فهرس من هذا النوع منذ القرن الثالث عشر الميلادي في كلية السوربون في باريس، حيث سجلت فيه كتب كل الكليات في باريس. ومن القرن الرابع عشر الميلادي لدينا فهرس جامع آخر قام بإعداده رئيس دير القديس امران في ريغنسبرغ وجمع فيه كتب مكتبات الأديرة في المدينة. أما في القرن الخامس عشر الميلادي فلدينا فهارس جامعة في بلجيكا وغيرها من البلدان.

لقد كان وراء هذه الفهارس الجامعة الدومينيكان والفرن سيسكان وغيرهم من ممثلي الرهبانيات الجديدة الذين ساهموا بإحياء ثقافة الكتاب في الأديرة، والذين كانوا بنشاطهم المعروف أقرب إلى التيارات الروحية

لنهاية العصر الوسيط من البينيديكت وغيرهم من ممثلي الرهبانيات القديمة.

وبهذا الشكل كان العصر الحديث يدق أبواب الأديرة أيضا . فالأديرة لم تكن خارج الزمن ولذلك فقد غرب عصر عزلتها واحتفاظها بالكتب لنخبة من الناس المتعلمين. فبالإضافة إلى الرهبان المتعلمين، والآخرين الذين كان يحق لهم الدخول إلى هذه المكتبات، أخذ يهتم بكتب الأديرة عدد متزايد من الناس العاديين الذين كانوا يبحثون عن المخطوطات حتى في الأديرة البعيدة. ومن هنا فقد أصبحت الحاجة تدعو إلى تقديم كتب هذه المكتبات إلى كل من يهتم بها، وقد كانت أفضل طريقة لذلك هي الفهارس الجامعة التي يمكن أن يعود إليها كل الأفراد المهتمين.

المراجع

حول الكتاب بشكل عام في العصر الوسيط انظر:

W.Wattenbach, Das Schriftwesen im Mittelalter, Leipzeg1896;

B.Bischoff, Scniptonia e manoscnitti mediatori di civilta dal sesto secolo alla riforma di Carlo Magno, Centri e vie di irradiazione della civilta nellalto Medioevo, Spoleto 1963, p479-504;

L.D.Reynolds-N. G. Wilson, Scribes and Scholars, Oxford1968;

A.Petrucci, Scritura e libro nellItalia altomedievale, Studi me dievali, 3, ser, 10, 1969, p157-207;

H.Lulfing, Schreibkultur vor Gutenberg, Der Gegenwartige Stand den Gutenberg-Forschung. Hrsg. v. H. Widmann, Stuttgart 1972, p48-67;

Libri e lettori nel medioevo, a cura di G. Gavallo, Bani-Roma 1977.

وحول الكتاب كرمز انظر:

L.Koep, Das himmliche Buch in Antike und Christentum, Bonn1960

وبشكل خاص حول هذه القضية في بداية العصر الوسيط انظر:

A.Petrucci, La Concezione Cristiana del Libro fra VI e VII secolo. Studi medievali, 3, Ser., 14 (1973), p961-984.

حول تنظيم العمل في ورش النسخ خلال العصر الوسيط انظر:

E.Lesne, Les livres: scriptoria et bibliotheques du commence ment du VII a la fin du XI siecle, Lille1938;

F.E.Roover, The Scriptoium, The Medieval Library, New York1957;

L.S.Thompson, Scriptoria, Encyclopedia of Library and In formation Science, Vol. 27, New York-Basel 1979, p139-159;

وحول ورشة النسخ في دير القديس غريسوغونو البينيديكتي في زادار انظر:

G.Praga, Loscriptorium dellabbazia benedittina di San Gris ogono in Zara, Archivio storico per la Dalmaziya,7/1929-9/1030.

حول فيفاريوم ودوره في الثقافة الأوروبية القروسية انظر:

Th. Klauser, Vavarium; Th. Th. Klauser, Gessammelte Arbeiten. Munster 1974, p.212-217.

ويتميز هذا الكتاب بوجود لائحة كبيرة للمصادر والمراجع القديمة. وعن الكتب التي كانت موجودة في مكتبة هذا الدير انظر:

H.Leclercq, Cassiodorus, Dictionnaire darcheologie Chretienne, et de liturgie, T. II, 2, p2357-2365;

وانظر الطبعة المحققة من «التعليمات» لكاسيودور:

R.A.B.Mynors, Cassiodori Senatoris Institutiones, Oxford1937.

وفيما يتعلق بدير جبل كاسينو كمركز للنسخ وحول مكتبته انظر:

H.Bloch, Monte Cassinos Teachers and Library in the High Mi dle Ages, Settimane di studio del

Centro Ltaliano di studi sullalto me dioevo, 19, Spoleto 1972, p567;

G.Cavallo, Libri e lettori nel medioevo, Barn 1977, p105-120

F.I.Newton, Reconstructing the Monte Cassino Library of the early eleventh century, New Book of the American Philosophical So ciety, 1967, p603;

وحول الكتابة الإيطالية الجنوبية نسجل هنا أهم كتاب:

E.A.Lowe, The Beneventan Script, a History of the South Italian minuscule, Oxford1914;

وحول هذه الكتابة في دالماسيا أنظر:

V.Novak Scriptura Beneventana, s osobitim obzirom na tip dal matinske beneventane, Zagreb1920.

فيما يتعلق بالمبشرين الإرلنديين ودورهم في الثقافة الأوروبية:

B.Bischoff, Ii monachesimo irlandese nei suoi raporti col con tinente, Ii monachesimo nellalto Medioevo e la formazione della civ ilta occidentale, Spoleto 1957, p121-138;

وانظر أيضا حول هذا:

E.Coccia, La Cultura irlandese precarolingia. Miracolo o mito? Studi medievali, 3 ser., 8 (1967), p257-240;

وحول الكتاب والمكتبات لدى الفرنسيسكان أنظر:

L.Alessandrini, Inventario dellantica biblioteca del s. Convento di S. Francesco in Assisi, compilato nel 1381, Assisi1906;

G.Abate, Biblioteche francescane nel medioevo, Ii libro e le bib lioteche IL, Roma 1950, p.77-126;

وحول ورشة النسخ في دير الفرنسيسكان في زادار أنظر:

A.Matijevic, Porijeklo renesansnih psaltira franjevackog sa mostana u Zadru, Radovi Instituta JAZU u Zadru, 2 (1955), p193-232.

وفيما يتعلق بتنظيم إنتاج الكتاب في الجامعات خلال العصر الوسيط أنظر:

G.Finkferrera, La produzione dei libri di testo nelle universiteta medievali, Libri e lettori nel medioevo, Barn 1977, p131-165.

وانظر أيضا الدراسة الواسعة:

J.Desterez, La Pecia dans les manuscrits universitaire du XIII el Du XIV siecle, Paris1935.

وحول ورش النسخ المدنية أنظر:

R.Kautzsch, Dieblod Lauber und seine Wekstatt in Hagenau, Zen tralblatt fur Bibliothekswesen, 12 (1895), p32,57-113;

G.M.Cagni, Vespaziano de Bisticci e il suo epistolario, Roma 1QSQ

وفيما يتعلق بالمعطيات حول تجارة وأسعار الكتب أنظر:

F.Kapp, Geschichte des deutschen Buchhandels, Leipzig,1886;

W.Krieg, Materialen zu einer Entwichlungseeschichte der Buch er-Preise und des Autoren-Honorars vom 15. zum 20. Jahrhundert, Wien 1953, p15-18;

J.W.Thompson, TheMedieval Library, New York 1957, p645-646

وللتوسع حول الكتب الممنوعة في العصر الوسيط أنظر:

J.Hilgers, Der Index der verbotenen Bucher, Freiburg im Breisgau

وحول المؤلفات المرجعية في العصر الوسيط أنظر:

R.Collison, Encyclopaedias: Their History Throughout the Ages, 2 ed. New York1966;

M.de Gandillac (ed.), La Pensee encyclopedique au moyen age, Neuchatel1966;

F.J.Witty, Medieval Encyclopedias: a Librarians View, The Journal of Library History, 14(1979), No. 3, p274-296.

وفيما يتعلق بالمكتبات في أوروبا خلال العصر الوسيط لدينا مرآة ممتازة لدى:

Handbuch der Bibliothekswissenschaft, 2. Aufi. Bd. III, 1, Wies baden 1955, p. 243-498.

وخاصة في الملحق حيث لدينا قائمة مفصلة بالمصادر والمراجع القديمة:

Das Mittelalter K. Christit and A. Kern

ولا بد أن نذكر هنا بشكل خاص مجموعة الدراسات:

The Medieval Library, J. W. Thompson Hafnner Pubi. Co. New York 1957.

وللتعرف على التنظيم الداخلي للمكتبات في العصر الوسيط، وبشكل خاص على مظهرها أنظر:

J.W.Clark, The Care of Books, Cambridge1901.

وحول مكتبة بلاط كارل الكبير أنظر:

B.Bischoff, Die Hofbibliothek Karls des Grossen, Karl der Grosse. II. Das geistige Leben, Dusseidrof1965.

وحول الكتب «المقيدة» بشكل خاص أنظر:

W.Blades, Books in Chains, London1892

وفيما يتعلق بالمكتبات القروسطية في سبليت لدينا دراسة لدى:

H.Morovic, Povijest biblioteka u gradu Splitu, I, Drustvo biblio tekara Hrvatske, Zagreb 1971, p5-56.

وحول المكتبة المطرانية في زغرب أنظر:

A.Markov, Metropolitanska knjiznica, Kulturno-poviestni zbornik zagrebacke biskupije, Zagreb 1945, p493-550.

5 الكتاب في الإمبراطورية البيزنطية

في الوقت الذي كانت فيه الإمبراطورية الرومانية الغربية تتعرض إلى ضربات عنيفة من البرابرة، الذين تمكنوا أخيرا من القضاء عليها، كانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية قد نجحت في مجابهة العاصفة وأمنت لنفسها التواصل السياسي والثقافي حتى سقوط القسطنطينية بيد الأتراك العثمانيين سنة 1453 م. وقد حاول الأباطرة الطموحون للإمبراطورية الرومانية الشرقية أن يأخذوا من روما الدور القيادي في كل ناحية، ولذلك فقد اهتموا أيضا بالكتاب والمكتبات كما كان يفعل الأباطرة العظام في روما خلال العصر القديم. إلا أن الزمن كان قد تغير ولذلك فإن القسطنطينية لم تستطع أن تصل أبدا إلى ذلك المستوى السياسي والثقافي الذي كان لروما في وقت ازدهارها الكبير.

كان عصر الثقافة العظيمة للعصر القديم قد غرب وقد ساهم الأباطرة البيزنطيون بدورهم في هذا: ففي سنة 529 م أغلق الإمبراطور يوستينيان المدرسة الفلسفية في أثينا، بينما تلاشت خلال القرنين الخامس والسادس للميلاد الكثير من

المدارس والمؤسسات الثقافية بعد أن استمرت مئات السنين بنشاطها. وقد أدت الصراعات الدينية في القسطنطينية خلال القرون اللاحقة إلى تناقص اهتمام الأباطرة والمواطنين معا بالكتاب. ففيما يتعلق بالكتاب والمكتبات كان الوضع صعبا بما فيه الكفاية حتى القرن التاسع الميلادي، إلا أن هذا لا يعني بالطبع توقف الاهتمام بالكتاب أو توقف إنتاج الكتاب.

وفي ذلك الوقت بقيت «المكتبة الإمبراطورية» مركز نسخ ورعاية الكتاب ولكن نشأت مع الزمن مكتبتان أخريتان: مكتبة البطريركية في القسطنطينية ومكتبة دير ستوديون Studion .

وكانت «المكتبة الإمبراطورية» بعد أن أحرقت سنة 475 م قد بقيت زمنا طويلا وهي تحاول أن تستعيد مكانتها السابقة، إلا أنها انتكست ثانية خلال حروب الأيقونات في القرنين الثامن والتاسع للميلاد. ولكن فيما بعد، في عهد ما يسمى النهضة المقدونية خلال القرن التاسع ثم بعد ذلك، تزودت بكتب كثيرة نظرا لأن الإمبراطور الهاوي للكتب قسطنطين السابع (912-959 م) استفاد منها لكتابة مؤلفاته التاريخية. وقد اعتمدت الأميرة آنا كومنينا Ana Komnena (1083-1150 م) على هذه المكتبة أيضا لتأليف كتابها «الكسيادا» Aleksiada، حيث استفادت من مؤلفات عدد كبير من المؤرخين القدامى (توكيديد وبوليب وهيرودوت وغيرهم) التي وجدتها هناك.

وقد سلمت هذه المكتبة من احتلال الصليبيين للقسطنطينية وبقيت موجودة إلى أن سقطت المدينة بيد الأتراك العثمانيين. ولا نعرف بعد ذلك ما حدث للمكتبة، ولكن يعتقد أن بعض مخطوطاتها القيمة انتقلت إلى مكتبة السلاطين في ساراي.

أما مكتبة البطريركية فقد أسسها بطريرك القسطنطينية توما الأول في بداية القرن السابع الميلادي، وأصبحت أهميتها تتناسب مع المكانة الاجتماعية والسياسية لبطاركة القسطنطينية.

في مجال نسخ المؤلفات فقد تميز بأهمية خاصة دير ستويون في القسطنطينية ذلك الذي أسسه سنة 462 م الحاكم الروماني السابق ستوديون Studion. وبعد فترة مهمة من التطور في الدير وفي ورشة النسخ التابعة له حلت فترة من الجمود استمرت حتى القرن السابع، حين جاء لرئاسة الدير الأباتي ثيودور (حوالي 759-826 م.) وقد وضع ثيودور قوانين جديدة للدير

حدد فيها ضرورة وجود مكتبة للدير وعين وقتا محددا يمارس فيه الرهبان نسخ المؤلفات. وهكذا فقد جمع الأباتي ثيودور في هذا الدير حوالي ألف راهب كان من بينهم من يشتغل في إنتاج الكتاب كالنساخ والرسامين والمجلدين وغيرهم. وقد بقي هذا الدير حتى القرن الخامس عشر الميلادي مركزا نشيطا للنسخ، وقد بقيت المؤلفات التي كانت تنسخ في الدير بداخله أو كانت ترسل للأديرة الأخرى. وفي حالات نادرة كان يتم هنا أيضا نسخ بعض المؤلفات بناء على طلب خاص.

لقد اعتبر دير ستوديون نموذجا يحتذى في نظر الكثير من الأديرة في القسطنطينية وخارجها. وقد برزت أهمية الأديرة التي تأسست منذ القرن التاسع الميلادي كدير جبل أتوس (الجبل المقدس) وفي الجزء الشرقي من شبه جزيرة خالكيديكي في شمال اليونان. ففي تلك الأديرة (دير القديس اثناس، دير هيليندار إلخ) كان الرهبان ينسخون بهمة ونشاط الكتب المقدسة والكتب الأخرى، ويزينونها بالرسوم. وقد حفظت في هذه الأديرة حتى اليوم حوالي أحد عشر ألف مخطوط ترجع إلى القرن التاسع الميلادي وما بعده.

وقد أرسل من هذه الأديرة إلى أوربا الغربية عدد كبير من الكتب، وخاصة مؤلفات كتاب العصر القديم، بينما سقط عدد آخر من كتب هذه الأديرة في يد الأتراك العثمانيين. وكانت ترسل إلى أوربا الغربية على الغالب مؤلفات الكتاب الوثنيين، اليونانيين والرومانيين، في الوقت الذي بدأت فيه إيطاليا وغيرها من البلدان عمليات بحث واسعة عن مؤلفات هؤلاء الكتاب. وفي الواقع فقد كان الفضل الأكبر لهذه الأديرة وبقية الأديرة في أرجاء الإمبراطورية البيزنطية، وخاصة في القسطنطينية بالذات، يكمن بالضبط في أنها كانت تنسخ وتترجم مؤلفات كتاب العصر القديم بنسخ كافية بحيث إن بعضها على الأقل حفظ إلى الوقت الذي أخذت فيه المراكز الثقافية في إيطاليا في عصر النهضة مهمة حفظ تراث العصر القديم.

ولم تكن مؤلفات الكتاب الوثنيين للعصر القديم تلاحق أو تهمل في بيزنطة. وفي الواقع لقد كانت حالات ملاحقة هذه الكتب وحرقها نادرة لأن المتدينين المتعصبين كانوا غالبا ما يوجهون نقمتهم ضد كتب الهراطقة. وقد أدى هذا الموقف المتسامح للسلطات الرسمية والدينية إزاء مؤلفات

الكتاب الوثنيين للعصر القديم إلى أن تحفظ في القسطنطينية وغيرها من مدن الإمبراطورية البيزنطية الكثير من هذه المؤلفات التي كانت قد فقدت بالتأكيد في ظل موقف آخر. وكان مما ساعد على حفظ هذه المؤلفات الترجمات الكثيرة إلى اللغة السريانية، إذ أنه ترجمت إلى هذه اللغة مؤلفات أرسطو ولوقيان وغيرهم، بحيث إن بعض المؤلفات قد وصلت إلينا اليوم بفضل ترجمتها إلى اللغة السريانية. وقد ترجمت أيضا بعض الكتب إلى اللغة الأرمنية في بداية العصر الوسيط، بينما ترجمت كتب أخرى إلى اللغة العربية في القرون اللاحقة.

وكان مما ساهم في إنقاذ تراث العصر القديم توقف حروب الأيقونات في القسطنطينية. ففي سنة 863 م افتتحت من جديد الجامعة الإمبراطورية، التي تحولت بسرعة إلى أحد أهم مراكز النشاط الأدبي والعلمي في الدولة البيزنطية. لقد كان ذلك الوقت فترة إعادة بناء حقيقية في المجال الثقافي، وقد برز فيها البطريرك فوس الذي ألف كتابه الموسوعي «كتاب العطورات». ثم رئيس الأساقفة القيساري أريتاس Aretas الذي بقي قسم من مكتبته إلى اليوم. وفي هذا القسم الذي وصلنا نجد مؤلفات أفلاطون ولوقيان وأرسطو وباوزان وغيرهم من الكتاب الوثنيين.

ومن الوثائق المدونة التي تعود إلى ذلك الوقت نعرف الآن كيف كان أريتاس يجمع الكتب وكم كان يدفع لأجلها. ففي معظم الحالات كان يوصي بنفسه على الكتب في ورش النسخ التابعة للأديرة وينفق الكثير في سبيل الحصول عليها. وهكذا فقد دفع 14 دوقية ذهبية في سبيل الحصول على كتاب لـ أوكليد Euklid، ودفع 21 دوقية في سبيل الحصول على كتاب آخر لأفلاطون. وقد كانت هذه مبالغ كبيرة بالنسبة لذلك الوقت وكان من الواضح أن مبالغ كهذه كان يمكن أن يدفعها الأغنياء الكبار فقط.

وعلى الرغم من أنه لم يحدث أبدا انقطاع في قراءة ونسخ المؤلفات الكلاسيكية في القسطنطينية إلا أن بيزنطة لم تنجح مع ذلك في رعاية تقاليد العصر القديم فيما يتعلق بالكتاب. ولكن السبب في هذا لا يجب أن نبحث عنه في الموقف السلبي لرجال الدين من بعض المؤلفات الوثنية للعصر القديم بل في إعراض جمهور المثقفين عن بعض المجالات العلمية وعن بعض الفنون الأدبية في الإمبراطورية البيزنطية. ومع هذا فقد بقيت

الأسماء الكبيرة في الأدب والعلم، من اليونانيين في الدرجة الأولى وإلى حد ما من الرومانيين، تقرأ باهتمام وتدخل في قائمة كتب المطالعة الإلزامية في المدارس.

وقد زاد الاهتمام بمؤلفات الثقافة الكلاسيكية اليونانية-الرومانية في نهاية العصر البيزنطي، أي في الوقت الذي كان قد نشط فيه بعض المثقفين المعروفين. ومع أن هؤلاء لم يؤلفوا كتبا أصيلة سواء في مجال العلم أو الأدب إلا أنهم قد ساهموا بعملهم في إحياء ثقافة العصر القديم، وبالتحديد في نسخ مؤلفات كتاب العصر القديم وفي حفظ هذه المؤلفات للأجيال القادمة. وبين هؤلاء المثقفين يحتل المترجم والكاتب مكسيموس بلانودس (حوالي 1255- 1305 م) مكانة بارزة، وهو الذي اشتهر بمعرفته الممتازة باللغة اللاتينية واهتمامه الكبير بالكتب. وقد ترك لنا بلانودس مراسلاته الكثيرة التي يبدو فيها بوضوح كيف كان يبحث باهتمام عن مؤلفات الكتاب القدماء، وماذا كان يفعل لكي تنسخ وتشرح وتحفظ وتترجم هذه المؤلفات. وقد أعد بنفسه عددا كبيرا من كتب المؤلفين القدماء بعد أن علق عليها، وبهذا يعتبر السلف الحقيقي للمتنورين الإيطاليين. وبالطبع فإن بلانودس لم يكن الوحيد الذي يترجم ويجمع ويحفظ مؤلفات الكتاب القدماء في القسطنطينية، ففي ذلك الوقت، في زمن الازدهار الثقافي خلال القرن الثالث عشر الميلادي كان هناك الكثير من المتعلمين الذين جعلوا القسطنطينية لآخر مرة مركز إنتاج الكتاب، إذ إنها تفوقت حينئذ كثيرا على كل المراكز الأخرى في أوربا الغربية.

وقد تمكن الكثير من المسافرين والباحثين عن المخطوطات في عصر التنوير والنهضة من الحصول على كثير من هذه الكتب ونقلها إلى إيطاليا، حيث استيقظت أوربا من سباتها وتولت العناية بهذا التراث القديم بنسخه أولا ثم بطبعه بعد ذلك. ومن ناحية أخرى فقد كان الشعور بالخطر من الأتراك قد دفع الكثير من اليونانيين المتعلمين إلى أن يغادروا أديرتهم وجامعاتهم وأن يلجأوا مع مخطوطاتهم إلى أمكنة أكثر أمنا في إيطاليا.

المراجع

فيما يتعلق بالمكتبات البيزنطية لدينا دراسة جيدة تتضمن قائمة مفصلة بالمصادر والمراجع القديمة:

V.Burr, Der byzantinsche Kulturkreis, Handbuch der Bibliotekswissenschaft, 2. Aufl. Wiessenbaden 1995, Bd. III, p146-187;

وانظر أيضا:

S.K.Padover, Byzantine Libraries, The Medieval Library, New York 1957, p310-329;

C.Wendel, Planudes als Bucherfreund, Zentralblatt fur Bibliothekswesen, 58 (1941), p77-87.

وقد طبعت هذه الدراسة ثانية في:

C.Wendel, Kleine Schriflen zum antiken Buch-und Bibliothekswesen, Koln 1974, p210-220;

وفيما يتعلق بنسخ الكتب في الدولة البيزنطية انظر:

J.Irigoin, Pour une etude des centres de copie byzantins, Scriptorium, 12 (1958), p208-227;

وبشكل خاص فيما يتعلق بنسخ مؤلفات الكتاب القدماء:

A.Dain, La transmission des textes litteraires classiques de Photius a Constantin Porphyrogenete, Dumbarton Oaks Papers, 8 (1954), p47

وحول اهتمام البيزنطيين بتزيين المخطوطات انظر:

V.D.Lihaceva, Iskustvo knjigi Konstantinopol XI vek, Moskva1976.

6 العرب

لم يلعب العرب حتى القرن السابع الميلادي دورا مهما في منطقة الشرق الأدنى بينما دخلوا الساحة التاريخية بزخم بعد ظهور النبي محمدﷺ. فقد اعتنقت القبائل العربية، التي كانت غالبا في حالة انقسام ونزاع، الدين الجديد (الإسلام) الذي منح العرب حيوية ضخمة. فبعد وفاة النبي محمدﷺ بدأوا فتوحاتهم السريعة والناجحة خارج الجزيرة العربية، حتى أنهم خلال عدة عقود فقط قضوا على الإمبراطورية الفارسية القوية وفتحوا سوريا وفلسطين ومصر وشمال أفريقيا بكاملها. وفي سنة 711 م فتح العرب إسبانيا، ووصلت حدودهم في الشرق إلى سهول آسيا الوسطى والهند، مما أسفر عن صلات ثقافية مثمرة بين حملة الإسلام والصين والهند.

ونظر الآن فتحوا بلدانا تعددت فيها الثقافات وتمايزت فقد امتزجت الثقافة العربية مع بقايا الثقافات القديسة في المناطق التي فتحوها. مما أدى إلى تقبلهم السريع لهذه الثقافات ولإبداعهم ثقافة عربية جديدة. وفي الواقع أن استمرار ذوبان التراث الثقافي، الذي نراه في بلدان مختلفة، كان يمكن أن يحدث فقط بفضل السياسة المتسامحة

للحكام العرب إزاء رعيتهم في المناطق المفتوحة. وهكذا فقد تحول الحكام الجدد إلى مدافعين ومشجعين للعلوم والفنون في المناطق المفتوحة، كما أثمر هذا الاتصال الإيجابي بين الثقافات القديمة والثقافة الحديثة عن نتائج خصبة بشكل خاص في بلاد الفرس. ففي بلاط الأسرة الحاكمة الأخيرة، الأسرة الساسانية، ازدهر الأدب والفن والعلم على مستوى رفيع جدا، وكان هناك أيضا مكتبات منظمة يتم فيها نسخ وترجمة المخطوطات القديمة. وهكذا في الوقت الذي كان فيه التراث اليوناني-الروماني يواجه أياما صعبة في أوربا الغربية، وحتى في بيزنطة في وقت من الأوقات، فإن بلاد الفرس كانت هي المكان الذي يجد فيه الشعراء والعلماء الملجأ الأمين والظروف المناسبة للنشاط.

فقد لجأ إلى هذه البلاد مثلا فلاسفة الأفلاطونية الجديدة، الذين اضطروا إلى مغادرة أثينا بعد أن أمر الإمبراطور يوسيتينان بإغلاق الأكاديمية سنة 529 م. وقد حدث هذا أيضا لأساتذة المدرسة المعروفة في أديسة بآسيا الصغرى، التي أغلقها الإمبراطور زينون.

فقد هاجر هؤلاء سنة 489 م إلى مدينة نصيبين القديمة وأسسوا هناك أكاديميتهم من جديد.

وهكذا فقد وجد العرب بعد أن فتحوا بلاد الفرس سنة 637 م الكثير من الكتب والكثير من العلماء والشعراء والمتأثرين بالثقافة القديمة، ووجدوا هناك ما هو أهم أيضا-الأشكال الجاهزة للعمل العلمي والثقافي المنظم (المكتبات، مراكز الوثائق الأكاديميات) مما سهل عليهم تقبل إنجازات الثقافة الفارسية في ذلك الحين، التي كانت قد تأخرت في جوانب كثيرة، ومن ثم تطويرها أيضا.

وفيما يتعلق بشريحة العلماء من السكان الأصليين، الذين اعتنقوا الإسلام بدورهم فلم يكن هناك ما يعيق استمرار نشاطهم وأسلوب حياتهم. وهكذا يمكن القول إن العرب سواء في بلاد الفرس أو في البلاد الأخرى، قد نجحوا في مد جسر قوي بين ثقافة العصر القديم وثقافة العصر الوسيط، وحتى ثقافة العصر الحديث، وذلك بفضل سياستهم الحكيمة إزاء الرعية وبفضل اندماج المثقفين والمؤسسات الثقافية في مسار الثقافة الجديدة التي أبدعها العرب.

أ- الكتابة العربية

إن حب العرب للكلمة المكتوبة، الذي عبروا عنه بسرعة في البلدان المفتوحة، لا يمكن أن يقارن إلا بحبهم للخط نفسه-للخط العربي-فالخط بالنسبة للعرب ليس مجرد نظام عملي للحروف التي تعبر عن الأفكار، بل هو أكثر من ذلك بكثير. إن الخط العربي نفسه، وهو الذي كتب به الكتاب المقدس للمسلمين (القرآن) وغيره من الكتب، مقدس في حد ذاته وله مغزى ديني ورمزي عميق. إن الخط العربي يستخدم في آن واحد للرسم والتزيين والتعبير عن الأفكار. وهكذا فالخط العربي يتداخل مع المشاعر الإسلامية ومع الفن الإسلامي إلى حد أنه أصبح جزءا لا يتجزأ من الهوية الدينية والقومية، وذلك بغض النظر عن المكان والزمان الذي يكتب فيه. إن نسخ القرآن هو في حد ذاته عمل ديني وسحري، ولذلك فإن هذا الكتاب المقدس ينسخه كل من يطلب التقرب إلى الله أو ينتظر الرحمة من الله، أو كل من يتمنى أن يرضي الله بعمله هذا. وفي العالم الإسلامي يأخذ شكل وجمال الحروف العربية معنى رمزيا وسحريا. وهكذا فإن التفنن في كتابة الحروف أو ابتداع تشكيلات جمالية من الحروف، ما هو إلا عمل مقدس. ولذلك لا نستغرب أن العرب، والمسلمين بشكل عام، قاموا بذلك النشاط العظيم في نسخ المؤلفات، الشيء الذي لا نجد له مثيلا في تاريخ الكتاب المخطوط.

لقد تطور الخط العربي عن الخط النبطي، الذي كان يستعمل منذ بداية القرن الأول الميلادي في شرق الأردن. وقد كان هذا الخط يستعمل قبل ظهور الإسلام للأغراض الإدارية إلا أنه أخذ سمة مقدسة عندما شرع العرب يدونون كتابهم المقدس.

ب- مادة الكتابة-إنتاج الورق

كان العرب حتى القرن الثامن الميلادي مثلهم مثل بقية الشعوب في ذلك الوقت، غالبا ما يستعملون الرق للكتابة ثم أخذوا يستعملون ورق البردي بعد فتح مصر. ولكن القفزة التي حدثت لاحقا في إنتاج الكتاب لم تكن ممكنة لولا ظهور مادة جديدة ورخيصة للكتابة وهي الورق.

وحول هذا يسجل المؤرخون العرب حادثة، لها ما يؤكدها في المصادر

الصينية، تتعلق ببداية إنتاج الورق في العالم العربي. وكما يروي هؤلاء المؤرخون فقد اندلع في صيف سنة 751 م نزاع بين قبيلتين تركيتين في آسيا الوسطى وطلبت حينئذ كل قبيلة المساعدة من جيرانها، الأولى من العرب والثانية من الصينيين. وقد انتهت حينئذ المعركة بين هاتين القبيلتين بفوز القبيلة التي يدعمها العرب، مما أدى إلى أسر العرب لبعض الصينيين الذين كانوا يعرفون سر إنتاج الورق. وقد اقتاد العرب هؤلاء الأسرى إلى مدينة سمرقند، حيث أسسوا بمساعدتهم أول معمل لصنع الورق، وخلال فترة قصيرة أصبحت هذه المدينة معروفة بورقها الممتاز الذي كانت تنتجه وتصدره إلى كثير من البلاد العربية. وفي نهاية القرن الثامن الميلادي، وبمساعدة الصينيين بدأ إنتاج الورق في بغداد نفسها بينما اشتهرت دمشق بسرعة كمركز معروف لإنتاج الورق.

ففي دمشق بقي ينتج لوقت طويل أفضل نوع من الورق، وبقي هذا يصدر إلى عدة بلدان أوربية حيث كان يشتهر باسم مصدره (الورق الدمشقي).

وفيما بعد أخذت معامل الورق تظهر في مصر، حيث سيقضي الورق بالتدريج على استعمال البردي. وعبر المغرب وصل إنتاج الورق أخيرا إلى أوربا، وبالتحديد إلى إسبانيا. وفي الواقع فإن أول إشارة حول هذا نجدها لدى الإدريسي، الذي يذكر سنة 1150 م مدينة شاطبة (ياتيقا اليوم) في فالانسيا حيث الورق «الذي لا يوجد له مثيل في العالم المتمدن» والذي يصدر لـ «الشرق والغرب».

ولكن في العالم الإسلامي لم يلغ الورق فورا استعمال الرق كمادة للكتابة، إذ بقي يستعمل لفترة أخرى لكتابة القرآن كما بقي ورق البردي يستعمل لفترة أخرى أيضا. ففي بغداد نفسها، وهي أكبر مركز لإنتاج الكتاب في العالم العربي حينئذ، لم يظهر أول كتاب على الورق إلا سنة 870 م. وفي الواقع فقد استمرت المنافسة بين ورق البردي والورق الجديد حتى القرنين 12-13 م، حين أنهى الورق الجديد تماما استعمال ورق البردي للكتابة.

وفي القرن الثالث عشر الميلادي انتشر أخيرا الورق خارج العالم العربي- في أوربا. ففي ذلك الوقت تقريبا انتهى احتكار العرب لإنتاج الورق والاتجار به، بعد أن بقي في أيديهم حوالي 500 سنة.

جـ- إنتاج الكتاب وانتشاره

حتى القرن الثامن الميلادي، أي إلى أن بدأ العرب بإنتاج الورق، كانت معظم الأبيات الشعرية والروايات وحتى «الإنجازات» العلمية تنتقل من فرد إلى آخر بالمشافهة.

ولكن لدينا في القرآن ذاته معطيات كافية تشير إلى أن العرب كانوا يستخدمون الرق قبل ظهور الإسلام وغيره من مواد الكتابة لتدوين النصوص التجارية والإدارية إلخ.

ومع إنتاج الورق بدأت المرحلة الذهبية للكتاب الإسلامي فقد ازداد عدد المخطوطات كثيرا وأخذ التنافس يشمل الخلفاء والوزراء والأغنياء على اقتناء الكتب الغالية والنادرة وأصبح الخطاطون موضع البحث والتقدير بينما كان الكبار منهم يغمرون بالتواصي والهدايا القيمة. وكان الكثير من الخطاطين يعملون في المكتبات، حيث ينسخون هناك المؤلفات لحساب تلك المكتبات، بينما كان كبار الخطاطين يعيشون في قصور الخلفاء حيث ينسخون المؤلفات الغالية للمكتبات الخاصة. وإلى جانب هؤلاء كان هناك خطاطون يعيشون فقط من عملهم، أي يعملون حسب الطلب. وبين هؤلاء الخطاطين تمتع أولئك الذين كانوا ينسخون القرآن بشهرة خاصة كابن مكلا (886-940م) وابن البواب (توفي 1022 م و 1032 م)، الذي يقال إنه كتب بخط يده خلال حياته 500 نسخة من القرآن.

في كل المدن الإسلامية كانت التجارة بالكتب نشيطة للغاية. وكان الوراقون عادة يفتحون دكاكينهم أمام الجوامع والمدارس، وكانت هذه الدكاكين كثيرا ما تتمركز في شوارع خاصة حيث تكون حركة المارة على أشدها. إلا أن هذه الدكاكين لم تكن فقط لبيع الكتب. فهناك كان يجتمع المثقفون وأولئك الذين يريدون أن يصبحوا مثقفين وهناك كانت تناقش الموضوعات المختلفة وتنشد الأشعار وهكذا. وعلى الرغم من هذا فقد كان الدور المهم لهذه الدكاكين، بالإضافة إلى بيع الكتب، يكمن في نشر المعلومات حول المؤلفات الجديدة.

وفي العصر العباسي كانت بغداد المركز الأساسي لإنتاج الكتاب والاتجار به. ففي مرحلة الازدهار الكبير لإنتاج الكتاب في هذه المدينة وصل عدد دكاكين الوراقين إلى مائة. ومن بغداد كانت الكتب سرعان ما تجد طريقها

إلى أبعد المدن في العالم الإسلامي. وعلى ظهور الجمال كانت القوافل تحمل الكتب من بغداد إلى أقصى البلدان، كما كانت أيضا تحمل الكتب من هذه البلدان (بيزنطة، سوريا، الهند) إلى بغداد.

وقد كانت الكتب التي ينسخها الخطاطون المعروفون، أو التي يكتبها المؤلفون أنفسهم غالية جدا ولم يكن في استطاعة أحد أن يقتنيها سوى الأغنياء. وعلى سبيل المثال يكفي أن نذكر أن ثمن كتاب المؤرخ الطبري (839-923 م)، كما يذكر المقريزي، كان يصل إلى مائة دينار.

وكان هذا بالنسبة لذلك الوقت ثمنا مرتفعا إذ أن الكتاب المتوسط كان يباع بدينار أو دينارين. وحتى هذا يبدو ثمنا مرتفعا إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الأجرة السنوية لمقهى كانت لا تتعدى الدينار. أما أولئك الذين لم يكونوا يملكون هذه الإمكانية فقد كانوا ينسخون المؤلفات بأنفسهم أو يعطونها إلى خطاطين مغمورين لكي ينسخوها.

د- الكتب والمكتبات

بالمقارنة مع الكثير من المراكز الثقافية للعالم الإسلامي فإن بغداد تتميز بأنها ليست مدينة قديمة بل هي مدينة جديدة بنيت في القرن الثامن الميلادي. وقد بناها العرب بأنفسهم في مركز دولتهم الواسعة، وبالتحديد على ضفة دجلة حيث تتقاطع الطرق التجارية التي كانت تربط المحيط الهندي بالبحر الأبيض المتوسط. ونظرا للسياسة الحكيمة للأسرة العباسية، والموقع الجغرافي الملائم، فإن بغداد سرعان ما تحولت إلى أهم مركز سياسي وثقافي للعالم الإسلامي وأكبر مدينة في العالم من حيث عدد السكان (حوالي مليون ونصف نسمة). ففي هذه المدينة، ابتداء من القرن التاسع الميلادي وحتى سقوطها بأيدي المنغوليين سنة 1258 م، تطور إنتاج الكتاب بشكل لا مثيل له في ذلك الوقت.

كان الخلفاء أنفسهم يتحمسون للكتاب ويهتمون به، إذ أنهم كانوا يشجعون العلماء على ممارسة العلوم ويحضون الكتاب على كتابة مؤلفاتهم. وكان هؤلاء أيضا يشجعون كثيرا على جمع وترجمة ودراسة مؤلفات الكتاب اليونانيين القدماء. وهكذا فقد شاركت أعداد كبيرة من الناسخين والمترجمين والمجلدين والمزخرفين والمثقفين في إنتاج الكتاب، وفي ترجمة وتفسير

النصوص المختلفة. وقد كان من الأهمية بمكان ما قام به هؤلاء من محاولات لجمع مؤلفات الكتاب اليونانيين القدماء، حيث وصل إلينا عدد كبير من هذه المؤلفات بفضل الترجمات السورية وبفضل الترجمات الأخرى التي جرت في نهاية العصر القديم وبداية العصر الوسيط. إلا أن بغداد لم تكن تجمع فقط مؤلفات الكتاب اليونانيين القدماء بل كان يصل إليها أيضا مؤلفات الكتاب من البلدان المجاورة كالهند وغيرها. وقد كان من الطبيعي في هذه الظروف أن تبرز بسرعة المكتبات الأولى الخاصة أولا ثم مكتبات القصور والخلفاء وبيوت الوزراء والعلماء الذين كانوا يقلدون بدورهم الخلفاء وبالإضافة إلى هذه فقد أخذت تكثر المكتبات الأخرى في الجوامع والمدارس الدينية.

كانت معظم الكتب التي تنسخ في ذلك الوقت وتحفظ في المكتبات ذات طابع ديني، وكانت نسخ القرآن تحتل مكانة خاصة بخطها الجميل وتجليدها النفيس. وإلى جانب ذلك كانت هناك كتب من الفلك والتاريخ والطب والرياضيات والحقوق وبقية العلوم، بالإضافة إلى الكتب الأدبية.

وفي مكتبات العلماء نجد أولا تلك الكتب التي كانوا يعودون إليها كل يوم والتي يعتمدون عليها لإنجاز مؤلفاتهم. وقد أوصى الكثير من أصحاب هذه المكتبات الخاصة بمكتباتهم إلى المكتبات العامة، مما يشهد برغبة هؤلاء لكي يستفيد الآخرون من هذه الكتب. ولدينا هنا استثناء واحد يتعلق بالكاتب المعروف أبي حيان التوحيدي (القرن العاشر الميلادي) الذي حرص على إحراق مكتبته عوضا عن أن يتركها لمواطنيه نظرا لأنه كان يعتبرهم غير قادرين على تفهم ما يكتبه.

وقد جمعت المكتبات الكبرى في بغداد المثقفين حيث كانوا يتناقشون في العلوم ويسمعون النصوص الأدبية، كما في مكتبة الإسكندرية والمكتبات القديمة الأخرى. وفي بغداد أيضا كان يعين لإدارة هذه المكتبات أناس مثقفون يتمتعون بمكانة اجتماعية كبيرة.

ومن بين هواة جمع الكتب الكبار في بغداد يحتل الخليفة هارون الرشيد (766-809 م) مكانة خاصة، إذ أنه كان قد جمع في بلاطه مترجمين ليترجموا له مؤلفات الكتاب اليونانيين القدماء، أما ابنه المأمون الذي حكم خلال (813-833م)، فقد أسس الأكاديمية المعروفة «بيت الحكمة» التي ضمت

مرصدا فلكيا ومكتبة ضخمة. وفي هذا المكان اجتمع أشهر العلماء المترجمين والخطاطين في ذلك الوقت سواء من العرب أو من الهنود والفرس إلخ. وقد كان المأمون نفسه يشجع العلماء على دراسة الفلسفة اليونانية وعلى



الخطاط حسايو زارين قلم والرسام ماندهار في مخطوطة تعود الى سنة 1581 في بلاط الحاكم المسلم اكبر في الهند (الملكية الاسيوية-لندن)

ترجمة الكتب من اللغات اليونانية والسريانية والسنسكريتية والفارسية إلى اللغة العربية.

وقد كان المأمون يرسل مبعوثيه الذين يثق بهم إلى بلدان الشرق الأوسط لكي يبحثوا عن المخطوطات اليونانية القديمة، بل حتى أنه أرسل وفدا إلى الإمبراطور البيزنطي ليون الخامس لكي يطلب منه بعض المخطوطات اليونانية. وقد أثمرت هذه المهمة في القسطنطينية نتائجها الطيبة حينئذ إذ عاد الوفد بكتب كثيرة تشمل مختلف العلوم، مما دفع المأمون أن يطلب ترجمتها فورا إلى العربية. وحسب بعض المصادر، التي يمكن أن ننظر إليها ببعض التحفظ، فإن مكتبة المأمون بلغت من الضخامة أيام حكمه إلى حد أنها جمعت مليون مخطوطة.

وقد تابع الخلفاء الذين جاءوا بعد المأمون دعم «بيت الحكمة» حتى أن مكتبتها أصبحت تجمع كنزا هائلا، إلا أن المنغوليين أحرقوها للأسف حين فتحوا بغداد سنة 1258 م.

وإلى جانب «بيت الحكمة» كانت هناك مكتبات أخرى في بغداد، ومن أهمها تلك المكتبة التي أسسها في نهاية القرن العاشر الميلادي الوزير صبر ابن أرادشير، التي كانت أيضا في إطار أكاديمية أخرى. وقد تمتعت هذه المكتبة بشهرة خاصة لدى المعاصرين نظرا لغناها بالكتب حتى أن الكاتب ياقوت الحموي يقول في القرن الثالث عشر الميلادي إنه «لا يوجد في كل العالم كتب أجمل مما في هذه المكتبة».

وقد كانت مكتبات المدارس أيضا غنية بالكتب، وخاصة تلك التي أقامها الخليفة المستنصر خلال 1232-1233 م في بناء رائع. وقد كان طلبة العلم الذين يرغبون بتكوين مكتبات خاصة بهم يحصلون بالمجان على الورق والأقلام لنسخ ما يريدون من الكتب.

وبالإضافة إلى المكتبات العامة كانت هناك في بغداد الكثير من المكتبات الخاصة التي كان بعضها يحتوي على كتب ذات قيمة كبيرة. ومن بين هذه نذكر مكتبة المؤرخ الواحدي (توفي 822 م)، التي كانت مكتبته الخاصة والتي كانت تحوي على 600 صندوق.

ولم تكن بغداد بطبيعة الحال تحتكر وجود المكتبات في العالم الإسلامي إذ أنه وجدت في المدن الأخرى كسمرقند والبصرة وحلب والموصل ودمشق إلخ.. مكتبات كبيرة وكثيرة. وقد خلف لنا الكتاب العرب معطيات كثيرة عن هذه المكتبات، ومن بين هؤلاء الطبيب والفيلسوف المعروف ابن سينا (9801037م) الذي وصف لنا في سيرته مكتبة الأسرة السمندية في بخارى. وهكذا فهو يروي لنا أنه خلال إقامته في المدينة مرض سلطان المنطقة نوح بن منصور ولذلك استدعوه لمعالجته.

وكما يضيف ابن سينا: «في أحد الأيام رجوته أن يسمح لي بالدخول إلى مكتبته لأرى الفهرس وأقرأ كتب الطب. وحين سمح لي بذلك دخلت إلى بناء مقسم إلى عدة أقسام وفي كل قسم كانت هناك صناديق الكتب الواحد فوق الآخر.

في أحد الأقسام كانت هناك الكتب الخاصة باللغة والشعر، وفي قسم آخر كانت هناك الكتب المتعلقة بالحقوق إلخ. وهكذا ففي كل قسم كانت هناك الكتب التي تتعلق بأحد العلوم، شاهدت هناك فهرس المؤلفات اليونانية القديمة وطلبت ما كنت أريده. وهناك شاهدت كتبا قد لا يعرف أحد عنها

شيئا ورأيت كتبا لم أرها في أي مكان آخر لا سابقا ولا لاحقا. قرأت هناك تلك الكتب وأخذت بعض الملاحظات. وهكذا عرفت المكانة التي شغلها كل واحد في علمه»(*)

وعلى الرغم من هذا فإن المكتبات التي أسست في مصر كانت تفوق بضخامتها وأهميتها كل المكتبات الأخرى في العالم الإسلامي. ففي القاهرة مارست الأسرة الفاطمية (969-1171 م) ذلك الدور الإيجابي في التطور الثقافي على نمط ما قامت به الأسرة العباسية في بغداد. فقبل تولي الأسرة الفاطمية للحكم في مصر لم يكن العرب يعبرون عن اهتمام بالكتابة والكتب والمكتبات، وقد شكلت في السنوات المتأخرة تلك الأسطورة التي تقول بأن العرب هم الذين أحرقوا بقايا مكتبة الإسكندرية الشهيرة حين فتحوا هذه المدينة سنة 642 م. وحسب هذه الأسطورة فإن حمامات المدينة بقيت أربعة شهور تحرق كتب المكتبة لتسخين المياه في مراجلها. أما اليوم فيشك بحق في أن يكون العرب هم الذين أحرقوا بقايا مكتبة الإسكندرية.

في العصر الفاطمي أصبحت العاصمة الجديدة لمصر (القاهرة)من أكبر المراكز الثقافية للعالم في ذلك الوقت. وقد أسس حينئذ الخليفة العزيز بالله (975- 996 م) مكتبته الشهيرة في قصره، تلك التي ضمت حسب بعض المصادر 200 ألف مخطوط وحسب بعض المصادر الأخرى 600 ألف مخطوط. وربما يكون في هذه المصادر بعض المبالغة، إلا أنه لا يشك أبدا في أن هذه المكتبة كانت ضخمة بالفعل إذ أنها كانت تتوزع على أربعين قسما مما كان يدفع شهود العيان للتحدث عنها باندهاش وهكذا نعرف الآن أنه كان يوجد في هذه المكتبة 240 نسخة من القرآن مزينة ومجلدة بشكل نفيس، بالإضافة إلى 1800 مخطوطة حول العلوم القديمة. وقد نقل قسم من هذه المكتبة إلى الأكاديمية الجديدة «دار الحكمة» التي أسسها الخليفة الحاكم بأمر الله سنة 1005 م على نمط «بيت الحكمة» في بغداد.

(*) أورد صاحب شذرات الذهب إضافة لها مغزى ومعنى: «واتفق بعد ذلك احتراق تلك الخزانة فتفرد أبو علي بما حصله من علومها، وكان يقال: إن أبا علي توصل إلى إحراقها ليتفرد بمعرفة ما حصل منها وينسبه إلى نفسه». انظر:

ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق محمود الارناؤوط ج 5، بيروت 1989، ص134

(المترجم).

وقد تحولت «دار الحكمة» القاهرية أيضا إلى مكان يلتقي فيه العلماء، وفي مكتبتها كان يمكن للعلماء والمترجمين والمهتمين أن يجدوا ما يحتاجون إليه من الكتب في كل فرع من فروع العلم. وكان يمكن لأي شخص أن يدخل إلى مكتبة «دار الحكمة»، بينما كانت تقدم للقراء بالمجان الأوراق والأقلام والمحابر. وقد كان هناك خطاطون يختصون بنسخ الكتب والإكثار منها، إلا أن العدد الأكبر من كتب المكتبة كان يأتيها مع القوافل من المدن الأخرى.

وقد سجلت نهاية العصر الفاطمي بداية انهيار المكتبات الكبرى في القاهرة. فقد أدى النهب والحرائق واللامبالاة إلى القضاء على قسم كبير من ثروة المكتبات، التي كان الخلفاء الفاطميون وهم من محبي الكتب قد أنفقوا عليها الكثير من اهتمامهم وثروتهم.

ولكن هذا لا يعني بطبيعة الحال نهاية الاهتمام بالكتاب ونهاية الحياة بالنسبة للمكتبات في مصر. فمع أن الحكام في العصر المملوكي (1250-1517 م) لم يستطيعوا أن يعيدوا لمصر أهميتها الثقافية التي كانت لها في العصر الفاطمي إلا أن بعضهم حاول أن يرعى العلوم والفنون وأن يشجع على نسخ المؤلفات وأن يساعد على تأسيس وتطوير المكتبات. وبالإضافة إلى هذا فقد أسست في ذلك الوقت مكتبات خاصة بالعلماء من أطباء وحقوقيين ولغويين الخ.. مما يدل على تطور في إنتاج الكتاب في ذلك الحين. وهنا تذكر لنا المصادر على سبيل المثال أن الإمام ابن جابر (توفي 1325 م) كانت له مكتبته الخاصة التي تحتوي على 6000 مخطوط.

وإلى جانب هذه المكتبات الكبرى في بغداد والقاهرة كانت هناك مكتبة الأسرة الأموية في قرطبة بالأندلس، التي أسسها الخليفة الحكم الثاني (961-967 م)، الذي يحتل مكانة خاصة بين الحكام المتنورين العرب. ونظرا لرغبته في أن يجمع بأسرع وقت الكتب القيمة لمكتبته فقد أرسل المبعوثين إلى القاهرة ودمشق وبغداد والمدن الأخرى التي تهتم بالكتب، وذلك لشراء الكتب بأثمان عالية حتى استطاع أن يجمع بسرعة حوالي 400 ألف مجلد لمكتبته. وفي هذه المكتبة كان هناك «جيش» من الخطاطين والمزخرفين والمجلدين الذين كانوا يعملون لحاجات المكتبة، بينما تمكن العاملون في المكتبة بوضع فهرس لها في 44 مجلدا.

ولسوء الحظ فإن هذه المكتبة لم تعمر طويلا إذ أن البرابرة نهبوها سنة

1013 م وانتهت من الوجود حين سقطت الأسرة الأموية. وبالطبع فقد كان في قرطبة مكتبات أخرى، إذ أن هذه المدينة كانت المركز الرئيسي للكتاب



صفحة من القرآن الكريم بخط الخطاط المشهور ابن البواب من القرن العاشر الميلادي (مكتبة شيستربتي-دبلين).

في البلاد. فقد كان في المدينة عدد كبير من الخطاطين الذين كانوا ينسخون الكتب في محلاتهم ثم يبيعونها في قرطبة أو في مدن أخرى. وفي ذلك الوقت كان هناك الكثير من محبي الكتاب من العلماء والشعراء وغيرهم، الذين يرغبون في تكوين مكتبات خاصة بهم. وإلى جانب هؤلاء كان أولئك الذين لا يعرفون الكثير عن الكتب ولكنهم مع ذلك يحرصون على أن يجمعوا في بيوتهم مجموعات نفيسة من المخطوطات ولدينا من ذلك الوقت نادرة تصور بأفضل شكل تقليد الآخرين في الاهتمام بالكتاب: «أقمت بقرطبة، ولازمت سوق كتبها مدة، أترقب فيه وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء، وهو بخط فصيح وتجليد مليح، ففرحت به أشد الفرح، فجعلت أزيد في ثمنه فيرجع المنادي بالزيادة علي، إلى أن بلغ فوق حده، فقلت له: يا هذا أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه إلى ما لا يساوي. قال: فأراني شخصا عليه لباس رياسة فدنوت منه وقلت له.

أعز الله سيدنا الفقيه، إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده، فقال لي لست بفقيه ولا أدرى ما فيه، ولكن أقمت خزانة كتب، وحافظت عليها لأتجمل بها بين أعيان البلد وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب، فلما رأيته حسن الخط، جيد التجليد، استحسنته ولم أبال بما أزيد فيه، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير. فقلت لنفسي: لك حكمتك يا رب، تعطي البندق لمن لا نواجذ له»[*1] إلا أن المكتبات لم تكن موجودة فقط في قرطبة بل كانت هناك مكتبات غنية في بقية المدن الكبيرة في الأندلس كما في مالاغه وأشبيلية وغرناطة. وبالإضافة إلى المكتبات العامة في هذه المدن كانت هناك مكتبات خاصة للعلماء والأدباء، منها ما هي إسلامية ومنها ما هي عبرية أو يونانية (بيزنطية) إلخ، وذلك بحكم السياسة المتسامحة لحكام البلاد.

وعلى الرغم من هذا فقد بقيت قرطبة لوقت طويل مركز الحياة الثقافية، وهي التي كانت إلى جانب القسطنطينية أكبر مدينة في أوربا. وقد كان لنشاط الخطاطين في ذلك الوقت، وخاصة خلال القرنين 10-11 م، أهمية عظيمة. فحسب بعض التقديرات كان ينجز في كل سنة نسخ 60-80 ألف

(*1) النص الأصلي ورد لدى المقريزي في كتابه «نفح الطيب» على لسان أندلسي-م.

المترجم.

كتاب في قرطبة، ومن المثير أن نشير هنا إلى أن النسوة كن يشاركن أيضا في هذا النشاط ففي أحد مراكز النسخ كانت تعمل 170 امرأة في نسخ القرآن.

وفي الواقع لقد كان لهذا النشاط الكبير، وخاصة النشاط المتعلق بالترجمة في ذلك الحين، أهمية كبيرة بالنسبة للثقافة الأوربية فقد ترجمت الكثير من كتب العلوم والفلسفة اليونانية إلى العربية، وسيتعرف الأوربيون لاحقا إلى هذه الكتب عبر الترجمات العربية بالذات. وقد كانت طليطلة هي المركز لنشاط الترجمة، بعد أن استردها المسيحيون وأسس فيها برعاية الفونسو الحكيم (1252-1284 م) مدرسة المترجمين المعروفة.

فقد ترجمت هنا من العربية إلى اللاتينية مؤلفات الطب والفلك والرياضيات والفلسفة وبفضل هذه الترجمات تعرفت أوربا على إنجازات العرب في العلم والفلسفة وعلى مؤلفات الكتاب القدماء.

هـ- المؤلفات المرجعية

في عصر الازدهار العظيم لإنتاج الكتاب في العالم الإسلامي، أي في الوقت الذي بدأت فيه تعددية المراكز الثقافية الإسلامية تطرح مشكلات جدية حول نشر المعلومات المتعلقة بالإنجازات العلمية والمؤلفات الأدبية بعد أن أصبحت المعلومات التي تسمع في بلاط الخليفة أو في المدارس غير كافية، ولدت الحاجة إلى إنجاز مؤلفات مرجعية. وهكذا كان لا بد من تسجيل وترتيب عناوين عدد كبير من الكتب، سواء تلك التي ألفها العرب أو التي ترجمها العرب عن اللغات الأخرى كاليونانية والسريانية والهندية وكان لا بد أيضا من توفير المعطيات حول مؤلفي الكتب ومحتوياتها.

وقد كان فضل الريادة في هذا العمل العظيم لابن النديم، الذي ولد في بغداد وعاش في القسطنطينية.

ففي سنة 987 م ألف كتابه المعروف «الفهرست» الذي سجل فيه كل المؤلفات العربية بالإضافة إلى مؤلفات الأمم الأخرى التي ترجمت إلى العربية. وفي مقدمة كتابه يطرح ابن النديم بوضوح كبير الهدف من عمله: «هذا فهرست كتب جميع الأمم، من العرب والعجم، الموجود منها بلغة العرب وقلمها في أصناف العلوم، وأخبار مصنفيها وطبقات مؤلفيها،

وأنسابهم، وتاريخ موالدهم، ومبلغ أعمارهم، وأوقات وفاتهم، وأماكن بلدانهم ومناقبهم ومثالبهم، منذ ابتداء كل علم اخترع وإلى عصرنا»[*2]

ومن المثير أن ابن النديم يزودنا أيضا بالمعطيات عن هواة جمع الكتب في ذلك الوقت وعن مكتباتهم، وحتى عن المزايدات التي كانت تقام حول الكتب.

وقد ألفت فيما بعد مؤلفات مشابهة خلال القرن الحادي عشر الميلادي، ولكن ليست لها تلك القيمة التي يمتاز بها «فهرست» ابن النديم. ومن بين هذه المؤلفات لا بد أن نذكر «فهرست» الطوسي[*3] (955-1067 م)، حيث تذكر فيه 900 مؤلف من كل مجالات العلم والدين والأدب إلخ. وقد ظهرت مؤلفات ببليوغرافية من هذا النوع في الأندلس الإسلامية، ولا بد أن نخص بالذكر «فهرست» ابن خير الأشبيلي (1110- 1179 م). ففي هذا الكتاب يذكر 1400 مؤلف في اللغة العربية في مجال الأدبيات الدينية والمعاجم والشعرالخ.

وفي الواقع أن أهمية هذه المؤلفات الببليوغرافية كانت كبيرة جدا في الوقت الذي وصل فيه إنتاج الكتاب في العالم الإسلامي إلى مستوى رفيع جدا، وفي الوقت الذي لم تعد فيه الثقافة الإسلامية تقتصر على مركز واحد مما كان يجعل من الصعب معرفة ماذا يؤلف من كتب في أرجاء الدولة الإسلامية الواسعة.

و- الإسلام والطباعة

في الوقت الذي كانت فيه الكتب تطبع في أرجاء واسعة من آسيا، في اليابان وكوريا والصين وبلاد الأويغور الأتراك، بواسطة القوالب الخشبية ثم بواسطة الحروف المتحركة، نجد أن إنتاج الكتاب بقي يعتمد في بقية آسيا وأوربا على النسخ بخط اليد. وكما هو معروف فإن الاكتشافات الكبيرة في حقل الطباعة، سواء بواسطة القوالب الخشبية ثم بواسطة الحروف

(*2) عدنا إلى النص العربي كما ورد على لسان ابن النديم. انظر: كتاب الفهرست للنديم، تحقيق رضا-تجدد، طهران 1971/ص 3.

(المترجم).

(*3) من الواضح أن المؤلف يقصد هنا «فهرست كتب الشيعة» لأبي جعفر الطوسي انظر «الإعلام» للزركلي، ج 6 ص 84- 85.

(المترجم)

المتحركة، لم تصل إلى أوربا مع أن هذه الإمكانية لا يمكن استبعادها تماما، لأن التأثيرات الثقافية والسلع التجارية كانت تسير باتجاهين عبر «طريق الحرير» المعروف بحركته الدائمة.

وربما كان السبب في عدم وصول هذه الاكتشافات إلى أوربا في العصر الوسيط يكمن في عدم اهتمام العرب بهذه الاكتشافات، مما أدى الأمر إلى تأخر انتقال هذه الاكتشافات إلى الغرب. وقد حاول الباحث الاختصاصي بشؤون الطباعة في الشرق الأقصى ث. ف كارتر في كتابه «اختراع الطباعة في الصين وانتشارها باتجاه الغرب» أن يبرر هذا الموقف للعرب بقوله إنهم قد رفضوا لأسباب دينية أن يطبعوا كتبهم المقدسة بوسائل ميكانيكية مما أخر انتشار الطباعة من الشرق الأقصى إلى أوربا.

وفي الواقع أن العرب المسلمين قد رفضوا طباعة القرآن حتى في العصور المتأخرة ويبدو من المثير هنا أن نسجل ما حصل في استنبول للمدعو إبراهيم الهنغاري الذي طلب سنة 1727 أذنا لتأسيس مطبعة في المدينة. وقد حصل أولا على فتوى صريحة من العلماء ترفض بشدة طباعة القرآن على أساس أن هذا يتعارض مع الإسلام ثم حصل أخيرا على موافقة بتأسيس مطبعة بشرط ألا يطبع فيها القرآن. وإذا استثنينا بعض الحالات نرى أن العرب لم يكونوا ليسمحوا بتأسيس المطابع في بلادهم.

وهكذا فقد تأخر عمل أول مطبعة في مصر إلى سنة 1825. وعلى كل حال فإن القرآن قد بدأ في طباعته منذ القرن الخامس عشر الميلادي ولكن خارج المنطقة العربية. فقد طبع للمرة الأولى في فيينا خلال سنوات 1483- 1499 م بينما طبعت عدة كتب عربية أخرى في مدينة فانون بإيطاليا الوسطى خلال 1514 م. ومع أنه لا يوجد شك بأن موقف المسلمين لم يكن مشجعا لانتشار مهنة الطباعة من الشرق باتجاه الغرب، إلا أن ظهور الكتب المطبوعة بالقوالب الخشبية في مصر خلال العصر الوسيط يستحق اهتماما خاصا لأنه يعبر عن حالة غير مألوفة في العالم الإسلامي.

ز- الكتب المطبوعة بالقوالب الخشبية في مصر

في نهاية القرن التاسع عشر اكتشفت في آثار مدينة قديمة بالقرب من الفيوم نصوص لحوالي خمسين كتابا تم إنتاجها بواسطة الطباعة بالقوالب

الخشبية خلال سنوات 900-1350 م. وكانت هذه الكتب دون استثناء مكتوبة باللغة العربية وتناولت موضوعات دينية، وهي اليوم محفوظة في المكتبة الوطنية في فيينا-حيث توجد غالبيتها وفي بقية المكتبات الأوروبية. وليس من السهل هنا تفسير ظهور هذه الكتب المطبوعة في إطار حضارة كانت ترفض طبع الكتب الدينية بوسائل ميكانيكية. ويعتقد هنا أن إنتاج هذه الكتب كان من قبل الشعب، الذي كان يعتقد بالقوة الخارقة للكلمة المطبوعة، والذي لم يكن يملك القدرة على شراء المخطوطات بأسعارها العالية في أسواق الوراقين.

وهكذا يمكن أن يقال إن الأمر في مصر، كما في أوربا لاحقا، يتعلق بالإنتاج الثقافي الدوني للشرائح الفقيرة. ومن الصعب الاعتقاد بأن إنتاج الكتب على هذا النحو كان بمساعدة أو مباركة رجال الدين، وهم الذين كانوا يتميزون بموقف صارم من طبع الكتب المقدسة. وهناك من يعتقد أن أمثال هذه الكتب قد طبعت في البلاد العربية والإسلامية الأخرى، وليس فقط في مصر، ولكن مناخ مصر الجاف هو الذي ساعد على حفظ النصوص التي وجدت.

إن الباحثين الاختصاصيين الذين اهتموا بهذه المطبوعات النادرة في العالم الإسلامي قدموا براهين مقنعة بما فيه الكفاية لتكوين رأي يقول بأن هذه الكتب المطبوعة قد ظهرت بتأثير مباشر أو غير مباشر للتقنية الصينية في الطباعة بالقوالب الخشبية، ولذلك فهي تعتبر جسرا مهما بين الطباعة التي ظهرت أولا في الشرق الأقصى وبين الطباعة التي ظهرت لاحقا في أوربا في نهاية العصر الوسيط. وفي الواقع أن القارئ يجد نفسه مقتنعا بما يذهب إليه هؤلاء الاختصاصيون، مع أنهم لا يستطيعون أن يدعموا آراءهم ببراهين قوية، من أن الأوربيين قد تعلموا هذه التقنية من المسلمين نتيجة للصلات التي كانت قائمة بينهم. وعلى الرغم أنه من الصعب إثبات الصلة بين الطباعة المصرية والطباعة الأوربية إلا أنه تبقى لدينا حقيقة لا شك فيها، ألا وهي أن الكتب المطبوعة الأولى بالقوالب الخشبية قد ظهرت في أوربا في الوقت الذي توقف فيه إنتاجها في مصر.

المراجع

فيما يتعلق بالكتاب والمكتبات في العالم الإسلامي انظر:

K.Holter, Der Islam, Handbuch der Bibliothekswissenschaft, 2. Aufl, Wiesbanden 1955, Bd. III, p188-242;

ومن بين الدراسات الكثيرة حول المكتبات العربية لابد أن نذكر:

O.Pinto, Le Biblioteche degli Arabi nell' eta degli Abbassidi, Bibliofilia, 30 (1929), p139-165;

A.Grohmann, Bibliotheken und Bibliophilen im islamischen Orient, Festschrift der Nationalbibliothek in Wien, Wien 1926, p431-442;

R.S.Mackensen, Four Great Libraries of Medieval Baghdad, The Library Quarterly, 2 (1932), No. 3, p229-279;

S.K.Padover, Muslim Libraries, The Medieval Library, New York 1957, p347,368;

وحول الخط الإسلامي لدينا صورة جميلة لدى:

A.Katibi-M. Sijelmassi, The Splendor of Islamic Calligraphy, New York1975.

وحول البيليوغرافيا الإسلامية بشكل خاص انظر:

Syed Jalaluddin Haider, Bibliographic heritage of Muslims, Libri, 29 (1979), No. 3, p. 207- 218.

المؤلف في سطور:

د. الكسندر ستيبتشفيتش

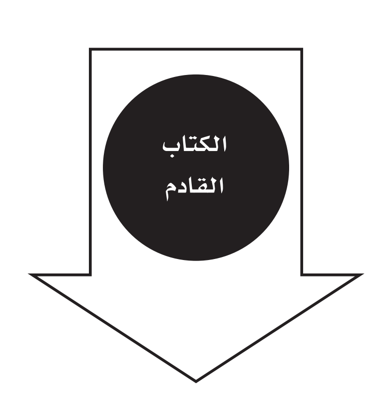
* باحث كرواتي معروف في تاريخ الكتابة والكتاب والمكتبات.
* عمل فترة طويلة بعد الحرب العالمية الثانية مديرا لمكتبة الأكاديمية اليوغسلافية للعلوم والفنون.
* بروفسور في جامعة زغرب منذ 1972 لمادة «تاريخ الكتاب والمكتبات».
* ترجمت معظم أعماله إلى اللغات الغربية (الإيطالية، الإنكليزية، الألمانية).
* من مؤلفاته:

- فن الإليريين، الطبعة الإيطالية 1963، الطبعة الإنجليزية 1966.
- الإليريون، الطبعة الإيطالية 1966، الطبعة اليوغسلافية 1967.
- الببليوغرافيا الإليرية، أربع طبعات 1967 , 1974 , 1978 , 1984 .
- رموز العبادة عند الإليريين 1982.

المترجم في سطور:

د. محمد م. الأرناؤوط

* مواليد دمشق 1950.
* ماجستير ودكتوراه في التاريخ الحديث من يوغسلافيا.
* أستاذ مساعد للتاريخ الحديث في قسم التاريخ بجامعة اليرموك.
* يشتغل في التاريخ الحضاري لبلاد البلقان وبلاد الشام في العصر العثماني.
* له عدة أبحاث في المجلات العلمية المتخصصة وشارك في عدة مؤتمرات دولية.



تاريخ الكتاب

(القسم الثاني)

تأليف: د. الكسندر ستيبتشفيتش

ترجمة: د. محمد م. الأرناؤوط

* من كتبه المنشورة:

- تاريخ بلغراد الإسلامية، الكويت 1987.
- ملامح عربية إسلامية في الأدب الألباني، دمشق 1990.
- الوجه الآخر للاتحاد والترقي، ترجمة وتقديم، إربد 1990.
- دراسات ووثائق حول الدفشرمة، ترجمة وتقديم، إربد 1991.
- معطيات عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية في نهاية القرن السادس عشر، إربد-دمشق 1992.
- الإسلام في يوغسلافيا-بيروت 1992.

هذا الكتاب

تحت هذا العنوان، أو بعناوين مشابهة، صدرت في أوربا خلال القرن العشرين حوالي عشرة كتب، ولكن أهمها دون شك هو هذا الكتاب الذي صدر للبروفيسور اليوغسلافي د. الكسندر ستيبتشفيتش، الذي يعتبر من الخبراء المعروفين في مجال تاريخ الكتاب والمكتبات.

ففي هذا الكتاب الضخم يعيد المؤلف الاعتبار للشرق نظرا للدور الكبير الذي كان له على مر العصور. وهكذا لم يعد الشرق يحتل عدة صفحات، بل أصبح هنا يحتل عدة فصول وأصبح للعرب فصل خاص بهم تقديرا للمكانة الكبيرة التي شغلها الكتاب لديهم. ومن ناحية أخرى فإن ميزة هذا الكتاب تكمن في أنه يتخذ تاريخ الكتاب كمفتاح ليعرفنا على جوانب هامة في تاريخ الحضارة الإنسانية.